نفس الشيطان

«سكوبولامين»

أماني حبلص

حبلص، أماني.

نفس الشيطان. تأليف/ أماني حبلص.

التصنيف : رواية.

21 سم ، 218 ص

تدمك : 3- 6 -85867- 977 - 978

تدقيق لغوي: د. مريم عبد الجواد

وإخراج فني وتصميم الغلاف

يوريكا لخدمات النشر والتوزيع

EUREKA
Eureka4publishing
حلّق خارج السرب

01288627690

eureka4publishing@gmail.com

الطبعة الأولى

رقم الإيداع : 2021/7219

جميع الحقوق محفوظة و يحظر طبع أو تصوير أو تخزين أى جزء من الكتاب بأية وسيلة من وسائل تخزين المعلومات إلا بإذن كتابى صريح من الناشر

إهداء

إهداء خاص إلى أمي الغالية

إهداء إلى والدي الحبيب

التعريف بكاتبة الرواية:

- أماني محمود حبلص كاتبة مصرية، ولدت في مدينة دسوق محافظة كفرالشيخ.
- خريجة بكالوريس تجارة جامعه الأزهر.
- العمر : ٢٢ سنة.
- أعمالي السابقة: رواية المانتا تم نشرها في معرض الكتاب الدولي سنه ٢٠١٩ ومعرض الإسكندرية والدار البيضاء في المغرب وبعض مكتبات في مصر- متاهة حب قصة قصيرة - قصة قصيرة سيتم نشرها خلال أيام.

عزيزي القارئ:

مـن دواعـي سروري أن تقـرأ هـذه الروايـة، سـتقابل الكثـير مـن الغمـوض وبعـض الألغـاز التـي تراهـا معقـدة، وفي غايـة الصعوبـة، ولكـن لا ترهـق ذهنـك، فبينـما كانـت البدايـة حتـمًا سـتكون هنـاك نهايـة.

ستواجهك بعض العقبات لكن لا داعي للقلق؛ فالأسوأ لم يأت بعد.....

مـتردد أن يدخـل مـكان كهـذا لا خـوف أو رهبـة، وإنمـا لم يعتـد عـلى فعـل عمـل شيء غـير مقتنـع بـه أبـدًا، ولكـن المـرء عـلى ديـن خليلـه؛ فاسـتجاب بالأخـير إلى إلحـاح صديقـه المفضـل، إن كان لـه أصدقـاء مـن الأسـاس مفضلين عنـد معـاذ؛ فهـو شـخصية غامضـة شـديد الخطـورة والتبجـح، يرافـق فقـط مـن سيسـتفيد منـه، ويخـدم متطلباتـه وتخطيطـه إذا ركَّـز الهـدف نحـو مـا يريـد، إذا نعـت بالأنانيـة، لـن يكـون الحكـم عليـه عـدلًا، ولكـن لا يمكـن إنـكار أن الحـذر مـن هـذا النـوع مـن البـشر واجـب إن لم يكـن فريضـة تتوجـب عـلى مـن يتعامـل معـه أن يكـون شـديد الدقـة والحـذر.

بينـما هـي مـاذا فعلـوا بهـا حتـى تكـون طـوال الوقـت شـاردة الذهـن، باهتـة الملامـح، كسـيرة ومهمشـة الـروح، نظـرة الحـزن والانكسـار الواضحـة، سـلط عينـاه نحـو عينيهـا بقـوة؛ ليقـرأ مـا بداخلهـا مـن نظـرات تائهـة حائـرة خائفـة، بعينيهـا لم تبـق الحياة...اسـتطاعوا بـكل قسـوة قتلهـا، سـجنوا ضحكتهـا الطفوليـة، وأطلقـوا صراع الألم آثـرت الصمـت عـلى أن تبـوح عـمَّا يعذبهـا، أدركـت الحقيقـة الصادمـة، لـن تكـون مثـل الأول بنقائهـا وفطرتهـا، قتلـوا شـيئًا داخلهـا أقـوى مـن أن يبتسـم لهـا الحـظ مـرة أخـرى، استسـلامها لـكل شيء دعـت الحيـاة تعصـف بهـا كـما تشـاء، ليـس لديهـا أحـد تبـوح لـه بمـا يثقـل كاهلهـا، لم تعـد تكـترث بعـد، ضحكتهـا مؤلمـة، وقلبهـا عـلى وشـك الحطـام.

مقدمة:

أيفضل الموت بالرداء ذي اللون الأحمر، أو الرداء ذي اللون الأصفر؟

إذًا، ماذا عن الأفكارالتي تنهتك العقل في الظلام الدَّامس، في بداية كل يوم يُنظر إلى آخر الرواق بفضول قاتل، يودُّ أن يدفع نص عمره ويعلم ما بداخل هذا المكان الغامض المريب والمحظور للجميع، لا أحد يُسمح له بالدخول إلا عدة أشخاص معدودين على أصابع اليد الواحدة, ذاك الرواق المؤدي إلى المكان السري الخطير للغاية، والكثير من الخطوط الحمراء التي لا يسمح بتعديها، إضافة للحراسة المشددة عليه، ولافتة في مقدمة المكان معلقة؛ لتحذير طاقم الأطباء والتمريض بالتحذير الشديد لعدم الاقتراب من البوابات الحديدية، لربما تكون تجارة أعضاء غير مشروعة بحكم إنها مشفى، ثمة سر يبدو لافتًا وخطيرًا لا يمكن إفشاؤه، واللوحة العريضة التي تسبق الممر بخمس غرف مكتوب عليها عدم الإزعاج، وإشارة لدائرة حمراء بها خط مائل نحو المكان تعني الكثير.

تنهَّد معاذ بحيرة وقلة حيلة وداخله يميزغضبًا وغيظًا، ويتوعد بأنه لا بدَّ أن يأتي اليوم الذي يدخل فيه هذا المكان دون أن يفشل في المحاولة ككل مرة أجرى محاولاته والتي فشلت فشلًا ذريعًا، فقد حاول القيام بالمشاركة في ملكية المشفى عن طريق شراء نسبة من الأسهم، ولكن كان في بنود العقد بند ينصُّ على عدم المشاركة في الإدارة، وبعض القوانين التي تنص على عدم التدخل في شئون خاصة من حق مؤسسي المشفى؛ أي يقصد: {الطبيب نائل وجو}، وبعض أهم الشخصيات المتواجدة في الدولة، اتَّجه نحو غرفة العمليات في صمت وهو يدرك جيدًا أن الطريق طويل للغاية وشاق.

الفصل الأول

يتحرك ببطء حتى يستطيع الهرب، مع أول فرصة سنحت له، وعندما وجد الطريق مظلمًا وخلفه مجهول، ظل يعدو نحو الظلام، بعيدًا عن ذاك الشاب الذي فشل في مجاراته منذ قليل, وقد اعترف أمام ذاته لأول مرة أنه قد فشل بجدارة، وعندما وجد نفسه في أرض مظلمة, خالية من البشر، ظل يلهث بقوة وعنف، والدماء تسيل من جانب رأسه وفمه ويديه اليسرى، ترك جسده على الأرض الرطبة، ثم أخرج الهاتف من بنطاله الضيق بصعوبة واتصل بأول رقم في لائحة الاتصال.. في إحدى المستشفيات الخاصة، والتي هي إحدى ممتلكات الجوكارد، ويشاركه بها الطبيب نائل الذي يبلغ من العمر أربع وأربعين عامًا مرتديًا الزي الطبي.

في غرفة العمليات..

وقف الدكتور نائل واضعًا يديه الاثنتين خلف ظهره أمام الفريق الطبي؛ ليقول بصوت واضح لمجموعة من الأطباء المستجدين:

- إمبارح كنتوا طلاب والنهاردة أصبحتوا دكاترة...

غرفه العمليات هتكون جزء أساسي من حياتكم، لازم تكونوا عائلة واحدة رغم التنافس بينكم، حاليًا أنتم في أهم وأكبر المستشفيات في الدولة، فحضراتكم مطلوب منكم تبذلوا قصارى جهدكم عشان تقدروا تثبتوا إنكم أصحاب كفاءة وأهل للمكان، إحنا عشان ننقذ حياة حد لازم نكون حذرين، أغلب الأخطاء اللي بنرتكبها بتكون نتيجة استخدام الإحساس بدل التفكير والعقل، الدكاترة لازم يكونوا عارفين بيعملوا إيه، لو الدكاترة هقيدورا ينقذوا واحد من اتنين لازم يختاروا واحد، أي لحظة تردد تلخبطكم وترتجف إيديكم، وتبقوا مش عارفين بتعملوا إيه.

الخطوة الأولى لأي عملية جراحيه ناجحة هو جرح المنطقة اللي يتم

إجـراء فيهـا العمليـة بطريقـة مسـتقيمة، بهـدوء أعصـاب وحالـه نفسـية هاديـة خاليـة مـن التوتـر والخـوف والقلـق، ومتنسـوش أبـدًا خـلال الأوقـات المحـدودة في المرحلـة دي إن فيـه خيـط رفيـع بـين أيديكم..وهـي تحديـدًا وقـت بـين إنقـاذ الحيـاة أو قتلها..يمكـن لمجـرد خطـأ صغـير ينهـي الأمـر, وعشـان تكـون جـرَّاح محـترف أول حاجـة تقـوم باتباعهـا تكـون أعصابـك هاديـة، يعنـي تكـون بـارد، يـا كـدة يـا تتحـول إلى قاتـل، دون عمـد..!!

ثم بدأ نائل في إجراء العملية....

بعـد انتهـاء العمليـة التـي اسـتغرقت عـدة سـاعات قامـت إحـدى الفتيـات تنـادي قائلـة بصـوت راقٍ وهـادئ: دكتـور نائـل..!!

اسـتدار نائـل نحـو الفتـاة قائـلًا بصـوت مرحـب: أهـلًا يـا دكتـورة نورهـان، يـارب تكـوني اسـتفدتي النهـاردة مـن المحـاضرة.

هتفت نورهان بامتنان:

- جدًا يا دكتور، وبشكر حضرتك على المعلومات دي..

ابتسم قائلًا باستفهام:

- والدك هاشم بيه عامل إيه..؟

ردت نورهان بتهذيب:

- الحمد لله بخير.

أومأ نائل رأسه قائلًا ببساطة:

- بلغي خالي هاشم إن هكون عنده النهاردة.

قالت نورهان بهدوء: حاضر يا دكتور.

ألقى نظرة باسمة، ثم رحل بصمت دون كلمة.

عـلى الجانـب الآخـر كان نائـل يتفحـص في عـدة أوراق داخـل مكتبـه الخاص، وسـحابة مـن دخـان السـجاير تحيـط بـه مـن كل جانـب، رن الهاتـف الـذي بجانبـه؛ فـرد قائـلًا بسرعـة:

- أيوة يا قنَّاص!؟

فهتف معاذ بصوت غير متزن، وهو يتنفس بصعوبة للغاية:

- يا دكتور نائل ابن ****هاجمني، ومعرفتش أنفذ اللي اتفقنا عليه!!

انتفض نائل من مكانه قائلًا بقلق:

- أنت فين دلوقت!!؟؟

قال معاذ وهو يتنفس بصعوبة:

- هربت منهم بالعافية.

هتف نائل بتوتر بالغ:

- طيـب إهـدى، وافتـح الـ GBS، وفيه عربيـة هتوصل عندك حـالًا في مكانك.
ثم أغلق الهاتف، وقام بإرسال نداء عاجل إلى نورهان، قائلًا بحسم:

- أيـوة يـا دكتـورة نورهـان، فـورًا تكـوني في الطـوارئ، فيـه حالـة خاصـة جـدًا، أرجـو الاهتـمام البالـغ بهـا, مفهوم؟؟

ردت نورهان على الجانب الآخر باهتمام وسرعة:

- تحت أمرك يا دكتور.

***

قامـت بتعقيـم الغرفـة التـي سـتقوم باسـتقبال الحالـة الخاصـة لـدى الدكتور نائـل في ثـوانٍ معـدودة، اتَّجهـت لتلبـي نـداء الواجـب المهنـي كـما تعـودت، ثـم توقفـت أمـام الطـوارئ، وأعـدت كل الأدوات الطبيـة اللازمـة اسـتعدادًا

لأسوأ الاحتمالات التي من الممكن أن تحدث..

بعد وقت ليس بقصير.

استند معاذ فوق السرير الحديدي الصغير الخاص بالمشفى يتطلع حوله بإهارق، ويديه تضرب على الفراش بحركة رتيبة، منتظمة؛ ليصدر صوتًا رنَّانًا نتيجة تصادم الخاتم مع المعدن الموجود في طرف الفراش، دلفت نورهان إلى الداخل بعد عدة دقائق؛ لتجده شبه متكئ، ومظهره مهترئ للغاية؛ فقالت بهدوء خافت:

- مساء الخير.

تطلع نحو الصوت الأنثوي الرقيق؛ ليجد فتاة فاتنة للغاية ترتدي الزي الطبي، وكأنه ملاك نازل من السماء، كان محقًا من أطلق ملاك الرحمة على الأطباء من أجل هاتين العينين الواسعتين المميزتين.!! فقال معاذ مفتونًا بعينيها وجمالها المميز الملفت، وبهيمان عاطفي:

- تحية شكر وتقدير للحاج والحاجة والطبيب وقسم النسا وطاقم التخدير وكلٌّ من ساهم في إنجاز هذا العمل..

قطبت نورهان جبينها بدهشة منتظرة أن يقول شيئًا مفيدًا، ولكن من الواضح أنه يتناول شيئًا يجعله يجهل ما يتفوَّه به غير مفهوم، تجاهلت الأمر، ثم أخرجت مشرطًا معقمًا؛ لتقوم بتفقد الجروح التي تملأ جسده وعينيه تتفحصها دون خجل وحرج؛ فهمس بنعومة للغاية:

- إزاي تسمح القلوب القاسية، إنها تخلي إيديكِ الرقيقة تستخدم الأدوات الحادة دي..!

قطبت نورهان جبينها بضيق ودهشة للمرة الثانية، ثم قالت بصرامة:

- أفندم...!!؟؟

تابع معاذ مكملًا وهو يهز رأسه مبتسمًا بثقة:

- أيوة، أيوة حقيقة أنت أجمل من أنك تشتغلي في المكان المقبض ده.
رفعت حاجبها باستنكار، وتابعت دون أن تكترث لكلامه.

فقال معاذ بصبر دون ملل:

- شكلك مش مقتنعة بكلامي؟؟ إيدك خفيفة، وأنت حلوة، مبترديش ليه؟؟؟!

قالت الطبيبة بلامبالاة:

- عشان كلامك مش فارق معايا..!!

مط معاذ شفتيه ببساطة هامسًا:

- ولا أنا، صحيح إحنا متعرفناش أنا معاذ...!!؟

قالت نورهان بنبرة غير مرحبة:

- وأنا دكتورة، إنت مش هينفع تطلع من غير ما تعمل شوية فحوصات؛ لأن محتمل يكون فيه نزيف داخلي.
رد معاذ ببرود مستفز:

- أكيد هكون حابب أكون معاكِ فترة أطول، بس حاليًا أنا مشغول عندي ميعاد..!

انتهت من الخياطة، ثم وضعت الشاش والقماش على رأسه محل الجرح، قائلة بروتينية: حابب تخرج براحتك، بس أنا قولت اللي في صالحك والأفضل..!

قال معاذ بابتسامة عريضة مغمضًا عينيه بهيام: إيه الأفضل؟؟
رفعت حاجبها استفزازًا من ذاك السمج البارد وسيم الوجه، هاتفة وهي تنظر إلى البعيد: نصيحة مني كدكتورة لازم تفضل في المستشفى لحد ما الجرح يلتئم، وتكون تحت الملاحظة.
تجاهل معاذ ما قالته هامسًا بنبرة مرحة: لو عايزاني استنى أوي كدة

هخلص مشواري وأرجعلك تاني بس تفضلي معايا.

قالت نورهان بحسم وهي تقدم له بعض الأوراق حتى يوقع: لازم توقع هنا، وإن خروجك على مسئوليتك، اتفضل أمضي هنا...!!؟
قام بتوقيع اسمه في المكان التي أشارت إليه، قائلًا بعبث متكاسل: طلباتك أوامر لو عايزة أوقع على عقد الجواز عادي برده..!
هتفت نورهان باستنكار:

- ليه ما تفكرش في حاجات أفضل من كدة؟؟

نظر إلى الأعلى بتفكير، ثم قال بلامبالاة:

- مش عارف يمكن عشان شوفتك...على فكرة نسيت أقولك الحالة النفسية للمريض عامل مهم جدًا أهم من العلاج، أنت شريرة وقاسية على المرضى..!
هتفت نورهان بانزعاج مقتضب: من رأيي تعرض نفسك على دكتور نفسي..!
قال بصوت هادئ ناعم:

- هشوفك تاني؟؟!

ابتسمت نورهان بسماجة، ثم هتفت بحدة:

- أتمنى ده ميحصلش؟؟!!

رد معاذ بغموض وصوت متزن وواثق:

- ومع ذلك هيحصل كتير، ثم تركها ورحل بهيمنة وغرور وهو يقوم بتعديل خصلات شعره متأنقًا.!!

وأثناء خروجه من المشفى وجد أحد الأطباء الذي يعمل بالمشفى، والذي يدعي ياسين استقبله مرحبًا حين قال ياسين:

- المستشفى نورت!

نظر معاذ نحو نافذة الغرفة التي تتواجد بها نورهان، قائلًا بخبث:

- المستشفى احلوت فجأة.

لاحظ ياسين ما يرمي إليه قائلًا بتساؤل:

- تقصد دكتورة نورهان خلي بالك، واسطتها تقعدنا في بيتنا.

ابتسم معاذ قائلًا بتهكم:

- ليه بنت هاشم بيه؟؟

هزّ ياسين كتفيه قائلًا بغموض :

- حاجة في الحدود دي ....!!

قال معاذ بنبرة شيطانية وقحة لا تمد للزي الذي يحمله بيد:

- شكلنا هنتسلى كتير الفترة الجاية...!

***

في مكان يشبه المنازل العصرية، لكنه غير مجهز على الإطلاق، دلف شاب في أوائل الثلاثينات من عمره، طويل القامة، جسده رياضي وبشرته الخمرية، وابتسامة عينيه التي لا تتواجد في كثير من الناس, ومع ذلك لم يرَ في يوم ما أنها شيء حسن يتميز به عن غيره، كاد هذا الشاب يدخل نحو المكان المراد، ولكن أوقفه ثلاثة رجال بجسدهم الضخم الهائل من رجال الجوكارد، هذا الرجل من أكبر رجال الأعمال المهمة بالدولة، وله تاريخه..ال..المشرف بالطبع، بينما في الجهة الأخرى كان هناك ثلاثة رجال يجلسون في صالون مهترئ بعض الشيء؛ فقد كان مكان يدل على أنه غير آدمي للعيش، إذن ماذا عن ملوك القمار؟ وقف يتطلع حوله بسخط من المناظر التي يراها؛ فالأجواء هادئة يقل فيها الضوء، حتى تكاد تكون مظلمة، بينما رائحة دخان اللفائف طاغية ومنتشرة في المكان بشكل بشع، بالإضافة إلى شرب الخمور، وتناول المخدرات وكل طاولة تحتوي على عدة رجال، وأصوات هادئة وهمهمات؛ ترتفع لحظات، وتنخفض لحظات، أحيانًا يدخلون في توجس وتردد، ويلتفُّوا جميعهم حول مائدة خضراء تتصاعد حولها أنفاسهم

العدوانية، ومن المفترض أنهم أصدقاء، ولكنهم في الحقيقة أعداء؛ فكلٌّ منهم يتربص بالآخر كالنمرالذي ينتظر اصطياد فريسة، ويعمل صاحب المكان على تخدير أحاسيس الجميع بما يقدمه لهم من موسيقى حالمة، ونساء فاتنات، وأفخم أنواع الشراب، ويكثر من أنواع التدخين، وتكثر حول المائدة الخضراء ضروب الغش والخداع؛ فالسقاة والمطعمون والفتيات يكشفن أوراق لاعب إلى لاعب، ويغمزن ويهمسن؛ لينصرن بالباطل واحدًا على الآخر، وليقمن أحيانًا نوعًا من التوازن يضمن استمرار اللعب وطول اللقاء، ويخسر الجميع بلا شك، يخسرون بما يدفعونه ثمنًا للشراب والطعام، وبالطبع الفتيات كلهن مناظر تتجسد أمام معاذ ينظر لهن باشمئزاز واضح، يتذكر جيدًا عندما وضع قدمه في هذا الطريق، قال له الصياد ناصحًا في إحدى الجلسات:

- لو أنت عمرك ما دخلت السكة دي قبل كدة خليك على البر؛ لأن دخولك إدمان مش ممكن هتقدر تتعافي منه أبدًا غير بعد ما تقابل الرفيق الأعلى.

وكأنه كان ينتظر فقط هذة الكلمات من الصياد العجوز حتى ينفذ هذه النصيحة على أكمل وجه، كاد يدخل، لكنه توقف حين وجد شابًا معبأ في الشوال، وأحد من الرجال يقوم بجره كالبهائم، ورجل غاضب يسير خلف الشوال يتوعد بقتله.

بينما في هذا الصالون المهترئ.. أول من تحدث كبيرهم، والملقب بالجوكارد والذي سأل بصوت أجش:

- إيه أخبار الشغل اليومين دول..!!

تحدث راهف وهو يتناول كأس من الفودكا، قائلًا بهدوء كئيب:

- الحكومة مفتحة عيونها علينا اليومين دول يا جوكارد...

ثم تحدث الآخر بعنجهية، والذي يدعي الدكتور نائل ابن شقيقة هاشم منصور:

- لـو عـلى الرجالـة فكلـه تمـام، بـس إحنـا عايزيـن سـكة سـالكة مـن الضابـط الجديـد الـلي زي الشـوكة الواقفـة في الـزور.!

رفع راهف حاجبه بغرور، ثم قال باستهتار:

- شـغل أخويـا هاشـم بيـه الملقـب بالجـوكارد واقـف بسـبب حتـة عيـل ملـوش لازمـة، يتظبـط!

وضع الجوكارد الكأس فوق الطاولة، قائلًا بهيمنة وحسم:

- ومـين قالـك يـا راهـف إن شـغلي واقـف، شـغلي كلـه في السـليم، وواثـق أوي مـن نفـسي، الـدور والباقـي عـلى الـلي مـش واثـق مـن نفسـه.

كان نائـل يتحسـس ذقنـه ناظـرًا في الأرض بتفكـير وكأنـه يحـل معادلـة مـا، لاحـظ ذلـك راهـف فقـال بصوتـه الرخيـم الجـاد: متقلقـش يـا باشـا كل الـلي جـاي هيبقـى حلـو.

هتـف الجـوكارد وهـو يصـب جـزءَ النبيـذ الأحمـر مفجـرًا قنبلتـه: أنـا قـررت أترشـح لمجلـس الشـعب.

نظـر لبعضهـما في صمـت محـاولًا اسـتيعاب مـا يتفـوه بـه، ثـم انفجـر في الضحـك أمـام نظـرات الجـوكارد الصامتـة منتظريـن أن يقـول هـذه مزحـة، بينـما أول مـن تحـدث هـو راهـف حـين أردف قائـلًا بعبـث متكاسـل: أنـت زودت في الـشرب ولا إيـه يـا جـو ياخويـا.

رد الجو بنبرة خشنة صارمة:

- بالعكس أنا في كامل قواي العقلية.

هتف حامد صديقهم وهو يضرب كفًا بآخر بقوة ساخرًا:

- مش بقولكم الأيام الجاية هتبقى حلاااااوة.

في ذلـك التوقيـت دخلـت فتـاة تحمـل المزيـد مـن النبيـذ، ثـم انحنـت

بجسدها النحيل لتضعه على الطاولة؛ فجذبها حامد من خصرها بقبضتيه الاثنتين قائلًا بصوت عابث مقزز: فعلًا حلاوة وقشطة، صرخت الفتاة بين يديه وظلت تقاومه لتهرب من براثن ذلك الذئب الجائع القذر، ولكنه بدل من ذلك ضحك بسماجة هامسًا في أذن الفتاة بخبث: إهدي يا حلوة.

بينما يضحك الرجلان مشجعين ما يحدث!

في هذه الأثناء دخلت امرأة في منتصف الثلاثين من عمرها ترتدي قميصًا أزرق وجيبة قصيرة وحذاء طويل الكعب رغم طول قامتها، قاطعت ما يحدث حينما أومأ الجوكاد رأسه بنظرة ذات معنى؛ فأومأت نادين ثم أشارت بأصابعها لأحدهم ليتقدم، وبالفعل خلال ثوانٍ كان هناك رجلان قاما بجر شوال، ثم وضعه أمامهم جميعًا. أشار الجوكارد بيده أمرًا بأن يفتح الشوال؛ ليخرج منه شاب قصير القامة، ومن الواضح أنه صبي صغير للغاية، قام راهف من الأريكة وتعابير وجهه مليئة بالتحفيز والشر؛ ليهمس قائلًا من بين أسنانه بشراسة وفحيح: ده أحلى مفاجأة حصلت لي النهاردة يا جوكارد.

ثم قام بركله بقدميه دون ذرة رحمة بقوة ليتأوه الصبي بقوة؛ فيصرخ حامد به قائلًا بشر دفين: الحيوان القذر، اتجرأ وتطاول على أسياده تفتكر عقابه إيه، ده أنت هتتنفخ النهاردة!

أشار الجوكارد بأن يأخذه من هنا ويبتعدوا، معللًا أنه لا يحب هذا الصوت المزعج؛ فقال راهف متجاهلًا زوجته متعمدًا:

- خدني معاك ياحامد، نسهر على الواد ده النهاردة.

نظرت نادين زوجة راهف إليهما وهما ينصرفان واحدًا تلو الآخر، ثم جلست على المقعد بجانب الجوكارد قائلة بعتاب حزين:

- ينفع يا جوكارد تجاهل أخوك راهف ليا كدة؟!

أمسك الجوكارد ذقنها هامسًا بثقة وتعاطف:

- زي كل مرة بقولك خديه على قد عقله وعامليه بالمثل؛ لأن حقيقي أنا تعبت من مشاكلكم.

انحنى وجه نادين بيأس من طريقة تعامل زوجها معها، وعدم تحمل المسئولية من كثرة المال والدلال الذي لا يبخل عليه الجوكارد.

ثم تابع الجوكارد مبتسمًا هامسًا بلطافة حتى يرضيها:

- الهدية اللي كنت وعدتك بيها يا نادين، المبلغ المالي أتحول إلى حسابك البنكي.

اتسعت عينا نادين بفرحة عارمة، ثم قالت بسرور ورضا: ربنا يخليك لينا ياباشا.

وكادت لتنصرف، ولكنها توقفت فجأة عندما اصطدمت خلفها إلى الشاب الوسيم الذي يتنحنح بخشونة معلنًا دخوله؛ فقال الجوكارد بصوت أجش آمر: ادخل يا قناص.

ظلت نادين واقفة تطلع إليه بهدوء، وكأنها تنتظر شيئًا ما.

تقدم حتى وقف في منتصف البهو رافعًا ذقنه بتحدٍ وبهاءٍ هامسًا بثقة وقوة: أهلًا بالجوكارد.

أشار إليه بأن يتقدم ليجلس وهو يلمح جانب رأسه المصابة والتي يغطيها الشاش الأبيض قائلًا بهدوء وهو يشير نحو رأسه:

- أهلًا يا قناص، أقعد عرفت أن حصل لك انتكاسة.

جلس معاذ على الأريكة، وابتسم بخفة هامسًا بامتنان:

- أشكرك.

ثم نظر إلى نادين بنظرة ذات معنى.

فشعرت نادين أن وجودها غير مرحب به، تنحنحت ثم همست بلطافة:

- إحم، طب أستأذن أنا، تؤمرني بحاجة يا جوكارد؟

رد جوكارد قائلًا بصوت هادئ:

- لا يا نادين، متنسيش زي ما قولتلك.

أومات رأسها بتهذيب، ثم هتفت باقتضاب:

- حاضر يا باشا.

ابتسم القناص بتملق، ثم قال بصوت كالحجر: أخبارك إيه يا جوكارد؟!

التوى فمه بتهكم، ثم قال بصوت أجش: أنت ما زالت في شبابك، أما أنا كبرت وبقيت عجوز !

ابتسم القناص بسخرية، وكاد أن يقول ما يعتلي داخل صدره، ولكن بدلًا عن ذلك قال بعذوبة:

- وهتصغر عشرين سنة ورا لما تشوف المفاجأه دي.

ثم أخرج علبة قطيفة حمراء، ووضعها أمام الجوكارد لتتسع عيناه بصدمة غير مصدق ما يراه أمامه، تلك الجوهرة التي بين يديه نادرة الوجود، ولا توجد إلا بأماكن محدودة على مستوى العالم. وضع جو يديه على «ماس حجر الدم» يتحسس ذاك الماس، ذا الطراز الغالي الثمن، ثم قال بزهو وصوت غريب غير مصدق:

- عظيم عظيم، الجواهرجي فلوسه وصلت كاملة؟!

قال القناص بصوت هادئ واثق:

- حصل يا باشا وبالأخضر كمان!

قال الجوكارد بفخر رغم القهر الذي يجتاح نبرة صوته بسبب خفي:

- عظيم، لو مكاني تدفع كام في القطعة دي؟

قال معاذ بصوت أجش غامض:

- يعتمد على حسب القطعة، أنت تدفع فيها كام؟

رد عليه الجوكارد بنفس النبرة:

- يعتمد على حسب القطعة بردو.

ضحكا الاثنان فهتف هاشم بنبرة صادقة:

- كنت أتمنى يكون أخويا شاطر زيك كدة، بدل ما هو أكبر همي، كل يوم يرجع لي لوش الفجر سكران ومراته بتشتكي منه، عيال بايظة، صحيح نسيت أقولك أنا قررت أترشح لمجلس الشعب، وعايزك تقف معايا الفترة الجاية.

رغم الغضب الذي اجتاح معاذ والذي انعكس في عينيه المشتعلة بغضب، ولكنه تغاضى عن ذلك وهو يحك مؤخرة رأسه قائلًا بنبرة فضولية متفحصة:

- أمرك يا باشا.

ثم صمت عدة ثوانٍ متصنع التفكير بقوة وبانتباه زائف: صحيح وأنا داخل لقيت ولد تحت إيد راهف بيه هو عمل إيه يا باشا.

قال الجوكارد بنبرة خافتة تحمل في طياتها التهديد والوعيد رغم هدوء صوته:

- حتة عيل تطاول على راهف من القرية عندنا، لما بعته يقضي مصلحة عاملي مشاكل، واستحلف للولد.

رفع معاذ حاجبه بدهشة ساخرًا دون شفقة على هذا الموقف المثير

للاشمئزاز، فقط تطاول الصبي على هذا المدلل السِّكّير النسونجي، فماذا يظن أن يكون جزاء الصبي المراهق، بالطبع القتل دون رحمة، ثم غامت عيناه فجأة مرة واحدة ليسخر من نفسه، وماذا عن كرة قدم كسرت زجاج سيارة أخيه المدلل؟! يبدو أن الحساب يثقل، كل ذلك كان يدور في ذهنه قطعة شروده الكئيب إشارة الجوكارد إلى فتاة خلفه، يأذن له بالدخول فاستدار ببطء؛ ليجد الطبيبة التي قامت بمعالجة صباح اليوم، نظر لي الجوكارد الذي كان يبتسم ببهجة؛ فقد كان دائمًا هذا العجوز يرى هذه الفتاة تعويضًا عن فراق ابنته الصغيرة بعد الفعلة الشنيعة التي ارتكبها في حق ضحية ضعيفة وفقيرة.

اقتربت نورهان الفتاة المدللة كما يراها، أغلق الجوكارد علبة الماس، ثم وضعها على الطاولة، قائلًا برزانة ومحبة:

- تعالي يا نور!

دلفت إلى الداخل برشاقة وأناقة وضحكة مرحة تزين ثغرها؛ لتدخل قائلة بسرور:

- هاي بابي.

ثم قامت بتقبيل جبينه، وكادت لتجلس بجواره، ولكنها اصطدمت بذاك الشاب الثرثري وسيم الوجه غامض المظهر أو كما تظن، رغم أن رجال وصبيان الجوكارد الذين لا يعدوا ولا يحصوا سواء داخل البلاد أو خارجها، إلا أنه أول واحد يلفت نظرها، فقال جو باندهاش نحو نورهان المسلط نظرها نحو معاذ بصمت حذر:

- مالك يا نورهان أنت تعرفي معاذ؟!

صمتت نورهان ولم تجب، بينما عيناها متعلقة به وذهنها شارد حين قال لها سنتصادف كثيرًا، هل كان يقصد ذلك اللقاء، شعر برجفة تسير في جسدها حين أرسل معاذ غمزة وقحة إلى نورهان، ثم قام من مكانه متجاهلًا نظرات تلك الصغيرة المندهشة، قائلًا باقتضاب:

- استأذن أنا يا باشا.

قال الجوكارد باهتمام ونبرة ذات مغزى:

- أوك، إبقى عدي عليا بكرة نتكلم في الموضوع إياه.

كان هـذا رد الجـوكارد المبهـم ذي المعنـى، وهنـاك عيـون مسـتنكرة لا تفهـم شـيئًا تلاحقـه، ولكـن قاطعهـا صـوت الجـوكارد غافـلًا عـمَّا تفكـر بـه حـين أردف هامسًـا بحنـان:

- أخبارك إيه يا نورهان؟

رغمًا عنها ابتسمت لأبيها بحالة الذهول التي ظلت ملازمة لها، قائلة:

- بخـير الحمـد للـه، صحيـح دكتـور نائـل بيسـلم عـلى حضرتـك وقـال هيقابلـك.

أومـأ الجـوكار رأسـة موافقًـا حـين قـال بتأكيـد: هـو قابلنـي فعـلًا، أخبـار شـغلك إيـه؟

رفرفرت عينيها بسعادة، ثم قالت بحماس: الحمد لله شغالة زي الفل.

ابتسـم بفخـر أبـوي، ثـم قـال هاشـم مشـجعًا: طـب ورينـي شـطارتك بقـى عشـان عايـزك تكـوني مديـرة المستشـفى بتاعـت أبـوكِ.

ردت نورهان بتفاؤل: إن شاء الله.

****

عمر باشا.

في مقهـى اجتماعي راقٍ، بمنطقة بسـيطة هادئـة يلتقي ثلاثة أصدقاء من وقت لآخـر كلـما تحـين الفرصـة، وعندمـا قـرر أن يجتمعوا لأمـر عاجـل، ولكن هذه المـرة قـام أحدهـم باسـتدعائهم عـلى وجـه السرعـة لأمـر طـارئ ليـس مجـرد جلسـة مرفهـة لتسـلية الوقت، فما كان منهـما إلا أن يتركا مـا في أيديهم ويلبي

أمـر صديقهـم، فقـال أحدهـم والـذي يدعـى رامـي: عمـر إتأخـر كـدة ليـه؟! هتف رامز بملل حانق:

- مش أول مرة، عادته ولا هيشتريها.

ثم اقترب إليه قائلًا بفضول:

- مـا تقـول إيـه الموضـوع الـضروري الـلي جايبنـي عـلى مـلى وشي وسـيبك منـه؟

ابتسم رامز دون مرح حقيقي، ثم قال بهدوء:

- مـش هينفـع يـا رامـي، أنـا عايـز أقـول الـكلام مـرة واحـدة عشـان نفكـر هنتـصرف إزاي.

لم يكـد ينتهـي مـن جملتـه، وقـد سـمع صوتًـا مرحًـا للغايـة، ظهـر مـن الخلـف فجـأة، قائـلًا بـسرور: أهـلًا بأعـز الحبايـب.

التقوا جميعًا بعد غياب لفترة؛ فقال رامي بحماس وفرح عارم:

- اتأخرت كدة ليه يا بني؟

هتف عمر قائلًا بتذمر وهو يلكمه في ذراعيه:

- حيلـك عليـا شـوية يـا شـبح، يـادوب عـلى مـا خلصـت الخدمـة ومسـافة الطريـق.

قام بالتقاط كوب من الماء يرتشف منه قائلًا بفضول:

- خير؟

ابتسم رامي، ثم أردف قائلًا بمرح:

- برنـس الداخليـة، مبدئيًـا كـدة مـبروك النجمـة الثالثـة يـا باشـا عقبـال النـسر والنجمـة.

ابتسامة مهلكة، زينت ملامح وجهه الجذَّابة الهادئة، أردف عمر قائلًا بعذوبية:

- الله يبارك يا شق،عقبال ما أشوفك أجمد جراح في المجرة.

قال رامي بشقاوة:

- حبيبي.

- هتف عمر باستنكار مندهش:

- بس صحيح مين اللي قالك؟

جاء صوت متذمر قائلًا بتبرم:

- أنا، أنا يا خويا منك ليه، انجزو خلصوا بقى عايز أنام.

التوى فم عمر بتهكم قائلًا إلى رامز:

- اتقل شوية علينا ياعمنا.

ثم التفت بدهشة إلى رامي، قائلًا باستفهام: هو الحوار على إيه صحيح؟

اقترب إليهما رامي بمقعده؛ لينظر حوله بحرص، هاتفًا بصوت خافت للغاية:

- قربوا شوية.

اقتربا إليه، وهما ينظرا لبعضهما بدهشة، ويهمسان بارتياب بنفس نبرة الصوت: خير؟

قال رامي بنبرة محقق اكتشف لغز خطير: بعد بحث دام معايا فترة، جبت لكم كل تحركاته الفترة الجاية،

قال الاثنان بنفس النبرة المستنكرة:

- مين؟

أخرجا الملف الذي بحوزته، وعندما تحققا من الاسم الذي يحوي الورق، انفرج الاثنان بصدمة غير متوقعة خاصة في وقت كهذا، أول من فاق من هذه الصدمة كان عمر حين هتف بارتياح قائلًا بنبرة رضا:

- أخيرًا يا راجل، عملت حاجة صح في حياتك!

أخذ رامز يتطلع إلى الصورة والتي تحتوي على رجل ذي لحية معظمها بيضاء رغم شبابه؛ فقال رامز بتساؤل:

- طب ده هنعمل معاه إيه؟

قال رامي بقوة وحسم دون تردد:

- هنقتله.

رفع عمر رأسه نحوه بحدة عند قراءة الملف، ثم قال مفكرًا ببطء:

- متبقاش غشيم، موته مش هيجب نتيجة.

رد رامي بحدة غير مقصودة:

- بالعكس هنستفاد كتير.

هتف رامز باستفهام:

- إزاي؟

قال رامي بصوت متزن واثق:

- مبدئيًا كدة عايز تنتقم من حد آذاك، متعملش شبح على صبيانه اللي بيأمرهم؛ لأنهم في الآخر مجرد شوية عبيد لأسيادهم، هما نفذوا أوامر من كبيرهم، ومقابل المصلحة فلوس، فأنت عايز تخلص وتضرب الضربة صح، يبقى الهدف يكون على الراس الكبيرة اللي أمرت بكدة

مـن البدايـة، وهـما يتفككـوا لوحدهـم عشـان الـلي كان بيتحكـم فيهـم اتقتـل، فيتشـتتوا ولا إيـه يـا عمـر بيـه؟

عمَّ الصمت عدة لحظات، ثم تحدث عمر بجدية:

- كلام كلـه صـح يـا رامـي، بـس ده مـش مـبرر بـردو أننـا نقتلـه القتـل مـش الوسـيلة الصحيحيـة؛ لتحقيـق العـدل زي مـا العقـل والظـروف بتقـول، رغبـة الانتقـام فكـرة بتنمـو طـول الوقـت، وللأسـف عمرهـا مـا حققـت مكسـب لأي إنسـان إلا للأسـوأ مـن رأيـي شـوف حـل تـاني..! هتف رامي بصوت حاسم لا يقبل الجدل:

الراجـل ده قتـل أخويـا الصغـير عشـان غلـط في أخـو الباشـا راهـف بيـه أمـر بكدة،عشـان حرقـة قلبـه عـلى أهلـه الـلي بيتاخـد حقهـم قـدام عيونهـم ومـش قادريـن يتكلمـوا، العـين بالعـين والسـن بالسـن والبـادئ أظلـم، الـلي مـش عاجبـه الـكلام يطلـع بـرة الليلـة.

قال رامز بحماس مفاجئ:

- وأنا معاك وجاهز.

وهـمَّ ليأخـذ الملـف لينفـذ مـا يـودُّ فعلـه منـذ سـنوات عـدة، ولكـن أوقـف ذراع رامـي قائـلًا بنـبرة حـادة دون قصـد:

- أنـا بقـول تطلـع بـرة الليلـة دي يـا رامـز، أنـا مـش بقـالي فـترة بتـدرب في نـادي الرمايـة عشـان مجهـودي يـروح فجـأة كـدة، أنـا الـلي هقتلـه، يمكـن نـار قلبـي تـبرد شـوية، ولـو إني أظـن أن ده صعـب يحصـل في يـوم مـن الأيـام.

عبس رامز حين تحدث بتذمر معترضًا:

- واشمعنا أنت اللي تقتله، وأنا لا؟

تأفف عمر بعصبية وملل حانقين حين أردف قائلًا:

- وبعديـن بقـى في شـغل العيـال ده, هـوه ده كـمان فيـه إشـمعنا، طالمـا كلامـي مـش مسـموع ولا كأني قولـت حاجـة، طلعـوني بـرة الليلـة دي، واعرفـوا الـلي إنتـوا بتعملـوه ده منتهـى الغبـاء.
قال رامي بحرقة رغم اتزان صوته:

- لا هـو مـش غبـاء يـا عمـر، وياريـت تفهـم الـلي بقولـه، الراجـل ده مـش مجـرد إنسـان مجـرم أخطـأ في حـق واحـد ولا اتنـين، الراجل وأجداده بسـببهم أطفـال اتيتمـوا، وحريـم اترملـوا، وأمهـات قلبهـم اتحـرق عـلى ولادهـم الـلي زي الـورد، أنـت مجربتـش إحسـاس لمـا يكـون أخـوك الصغـير الـلي مربيـه عـلى إيـدك وبيكـبر كل يـوم قدامـك عشـان تفـرح، مـرة وحـدة يـرن عليـك ويقولـك أنـا حاسـس إن قلبـي مقبـوض، وأنـت تهـزر وتقولـه أجمـد يـاض ومتبقـاش فرفور،عشـان تتفاجـئ بعدهـا إنـه اتخطـف، عـارف إنـت قبضـة القلـب الـلي بتيجـي فجـأة بشـعة أوي، وبعدهـا يجيلـك تلفـون يبلغـوك إن أخـوك اتقتـل عـلى يـد حبـة كلاب، تعـالى عشـان تسـتلم جثـة أو المتبقـي منهـا، والقضيـة تتقفـل، والحـق يضيع.عرفـت ليـه أنـا لـو قتلـت الراجـل ده هبقـى ارتحـت شـوية، ووقتهـا هيبقـى ضمـيري ارتـاح شـوية لـو مـوت في أي وقـت..

شرد عمـر في أخيـه الـذي لم يتسـن لـه اللقـاء حتـى الآن، ثـم أردف هامسًـا بحقـد:

- مش لوحدك على فكرة.

مسـح رامـي دموعـه التـي سـقطت مـن عينيـه رغـمًا عنـه، وقـال بمـرح يلونـه الحـزن:

- يبقى متفقين يا جدعان.

هتـف عمـر بكآبـة وهـو مـازال شـاردًا نحـو البعيـد، يبـدو أنـه غـير مقتنـع بمـا سـوف يحـدث:

- تمام، اشرح التفاصيل.

اخـرج رامـي ورقًـا بـه مخطـط للمـكان الـذي سـوف يقـوم بتنفيـذ المهمـة بـه:

- هـو هيكـون بكـرة في فنـدق اسـمه**** في مدينـة*** وبعدهـا هيقـضي كام مشـوار كـدة فأنـا هفضـل متابعـة لحـد مـا ييجـي الوقـت المناسـب، أهـم حاجـة ياعمـر تظبطـلي سـلاح، ووقـت مـا أخلـص المصلحـة هسـبهولك في مـكان هنتفـق عليـه.

هتف عمر بجدية:

- هدبرلك أمره النهاردة إن شاء الله، وهيكون جاهز قبل الفجر!

هتف رامي بإيجاز:

- وأنت يا رامز تدبرلي فزبة؟

أومأ رامز برأسه قائلًا باقتضاب:

- حصل.

ابتسم رامي هاتفًا بتفاؤل:

- توكلنا على الله نقرأ الفاتحة..

بعد الانتهاء من قرأته الفاتحة، قال رامز:

- بالمناسبة بقى أنا عازمكم على العشاء.

هتف الاثنان في وقت واحد:

- موافقين.

قطب رامز حاجبيه بدهشة قائلًا باستنكار:

- إنتوا جعانين بقى؟!

ابتسـم لبعضهـم البعـض، ثـم انفجـرا في الضحـك فجـأة ، فقـال عمـر بإرهـاق بـادٍ عـلى وجهـه:

- أوي جدًا يعني.

أشـار رامـز للنـادل كي يحـضر، لكـن توقفـت عينـي عمـر عـلى إحـدى الفتيات الـلائي دلفـن إلى المقهـى للتـو، فقـام مـن مقعـدة مسـتأذنًا، ثـم اتجـه نحـو الطاولـة التـي تجلـس عليهـا فتيـات؛ لينحنـي إلى أذن الفتـاة قائـلًا بخفـوت آمـر:

- قومي معايا.

اسـتدارت أهلـة رغـمًا عنهـا نحـو الصـوت الـذي جعـل قلبهـا ينتفـض بعنـف، أفلتـت مـن شـفتيها ابتسـامة جميلـة تزيـن ثغرهـا رغـمًا عنهـا، وهـي تهمس بالاسـم المحبـب إلى قلبها:

- عمر!!!

قال بنفس النبرة وهو ما زال منحنيًا:

- أيوة..

ثم انتصب ظهره مخاطبًا الفتيات بدبلوماسية مصطنعة:

- بعد إذنكوا يا بنات!

جذبهـا مـن يدهـا وهـو يشـير إلى زملائـه بتحيـة أنـه سـيرحل، توقفـه أهلـة أمامـه بعصبيـة بعدمـا خرجـا، جاذبـة ذراعيهـا بعنـف مـن قبضتـه الملتـف حولهـا، قائلـة بقنـوط وحنـق:

- عايز إيه يا عمر..!

الفصل الثاني

قال عمر بهدوء مسيطر رغم تكفهر وجهه:

- فيه واحدة تخرج كدة بدون ما تستأذن من خطيبها؟

قالت أهلة بعنف وشراسة قطه برية:

- ماهو لو حضرتك كنت بترد على تلفوناتي ولا بتشوف رسالة ليا، مكنتش قولت كدة، كفاية إني أقعد أربع أيام مش عارفة أشوفك بسبب شغلك الغريب ده.

رد عمر بتذمر وضيق:

- أعملك إيه كان عندي مأمورية.

ضربت أهلة قدميها بقوة فوق الأرض كطفلة متمردة هاتفة بغضب: وأنا اتخنقت وطهقت وخرجت مع أصحابي شوية من كتر الملل والروتين، كفاية إني معتش بشوفك زي الأول كمان هتتخانق معايا.

شعر عمر أنها محقة فيما تقول، فهتف بصوت مرح حتى يريح رأسه قليلًا من عناء النكد والدراما التي تلبس شخصية الفتيات حين يكون الطرف الثاني قلل من اهتمامه نحوها: بالعكس أنا مش جاي اتخانق، أنا كنت هعدي عليك عشان نروح سينما.

التمعت عيناها ببريق خاطف حين هتف بجنون مرح: بجد؟!

رفع رأسه ليضحك بقوة من حالها الذي تبدل بأقصى درجة حين هتف بعبث :

- عندك شك.

حاولت إخفاء تعبير وجهها قائلة بتصنع حزين:

- بمناسبة إيه؟

رد ببساطة متفحصًا ملامح وجهها الطفولي:

- غيابي عنك الفترة اللي فاتت.

طبقت أهلة ذراعيها أمامها قائلة بكبرياء:

- أنت كدة بتصالحني يعني عشان أسكت.

رد عمر بصراحة وإيجاز: أيوة ، قولتي إيه؟

وضعت أصابعها على رأسها مفكرة قائلة بنبرة طفولية للغاية:

- موافقة بس بشرط تجبلي فشار.

ضحك عمر بخفة قائلًا بعاطفة إثر حركاتها العفوية:

- ماشي بس نتغدى الأول، أنا بقالي يومين مأكلتش أكل اللي يخليني أقدر أمشي على رجلي!

انفطر قلبها الأمومي رغمًا عنها، قائلة بقلق حقيقي:

- بجد.

قطب عمر حاجبيه هامسًا بتأثر زائف يقلد صوتها:

- شوفتي كله عشان الوطن..!

- ضربته على كتفه بقنوط وضيق، وكادت لتجاوزه ذاهبة، ولكنه توقف أمامها هامسًا بجدية: مش زعلانه صح؟؟

ابتسمت بطفولة وبراءة شفافة للغاية:

- لا خلاص مش أنت هتجيب فشار يبقي صافي يا لبن.

همس عمر بخفوت حتى لا تسمعه:

- هبلة أوي، بينضحك عليكِ بسرعة.

رفعت أهلة حاجبيها هاتفة باستنكار:

- بتقول حاجة؟

ابتعد مفسحًا لها الطريق؛ ليشير بطريقة مسرحية زائفة:

- هو أنا أقدر اتفضلي يا سمو الأميرة..!

في السينما...

المكان مظلم للغاية شاشة ضخمة تتوسط المكان، ظلت أهلة تحاول الإندماج مع الفيلم؛ لتفهم شيئًا ولكن دون جدوى، دارت عيناها في المكان تارة, وتنظر إلى السقف تارة أخرى، لا شيء مسلٍ على الإطلاق، استدارت إلى جانبها لتتشرب ملامح عمر المحببة والأقربِ إلى قلبها، لقد واجه العالم لأجل أن يكون لها رجلها الوحيد، لا أحد بعده كما كان لا أحد قبله، ظلت تتأمل بشرود وهيام مبتسمة دون أن تشعر بنفسها، ولكن أخرجها من شرودها وحلمها الذي يحيا في كل لحظة كلما التقى سويًا صوته المزعج للغاية حين همس بخشونة دون أن ينظر لها:

- الفيلم قدامك مش في وشي..!

ذعرت من كلماته البسيطة الهادئة، وأحمرّ وجهها خجلًا، عضت على شفتيها السفلى بحماقة، ثم قالت بنبرة خشنة محاولة إخفاء خجلها الظاهرعلى وجهها بوضوح:

- أنا مش عارفة أنت واخد خطيبتك معاك السينما ولا العسكري بتاعك.

التفت عمر إليها قائلًا بدهشة:

- ليه بتقولي كدة..؟

همست أهلة بضيق:

- المفروض تفرق وتفهم أنك خارج معايا، يعني نسمع فيلم رومانسي، مش الأكشن والضرب والخبط اللي يرعب ده..!

قال عمر ببساطة وكأنه يتحدث عن الطقس: أهو الأكشن اللي مش عاجبك ده بنشوف أغلبه في الحقيقي.

همست أهلة بقلق حقيقي: هو أنا قلقي طول الوقت عليك ده من شوية، أنا ممكن أموت لو حصلك حاجة...!

أخذ عمر واحد من الفشار قائلًا ببساطة:

- لا متموتيش..؟!

صمتت عدة دقائق، ثم قالت بلهفة:

- عمر.

همس دون تركيز، وعيناه فقط مسلطة نحو الشاشة:

- همهم.

قالت أهلة بعطف وتأثر:

- تخيل أنا لو موت هيحصلك إيه؟

صمتت دقيقة ثم تابعت بهيام وتأثر:

- أكيد هتموت ورايا من الزعل صح!

قال عمر بنبرة عابثة مشاكسة:

- أنا، لا خالص، أنا هدفنك مع الميتين، وادعي ربنا يغفرلك الذنوب اللي عملتها معايا..

انتظرت أهلة أن يضحك على سبيل المزاح، ولكنه كان يقول ذلك بمنتهى الجدية؛ فهمست بصدمة:

- بتتكلم جد؟

همـت لتتركـه عندمـا وجدتـه صامتًـا، ولكنـه شـبك أصابعـه في يديهـا قائـلًا بخفـة: خـلاص تعـالي، بهـزر أكيـد، هزعـل شـوية.

قالت أهلة بنبرة صادمة:

- شوية، وبعدين؟!

رافعًا أحد حاجبيه، هامسًا بلامبالاة:

- بردو هدعيلك ربنا يغفرلك ويرحمك، وأقول كانت طيبة.

تنهـدت أهلـة بضيـق ثـم همسـت بيـأس: عمـرك مـا هتتغـير، دايمـا بتهـزر وتفصلنـي في المواقـف العاطفيـة.

همس عمر بملل دون أن ينظر لها:

- أنت اللي درامية زيادة عن اللزوم.

قالت أهلة بصوت مرتفع رغمًا عنها:

- درامية؟!

قال رجل من خلفها بإزعاج:

- الصوت يا أستاذة مش عارفين نسمع.

همس عمر بضيق:

- عجبك كدة جبتلنا الكلام كولي فشار وأنت ساكتة..!!

ثـم تابـع عمـر الفيلـم باندمـاج، كتمـت أهلـة غيظهـا رغـمًا عنهـا متوعـدة بـين نفسـها ككل مـرة أن تسـخر مـن حديثـه كـما يفعـل الآن معهـا، ولكـن يـزول ذاك التوعـد والانتقـام والمزيـد مـن المصطلحـات مـع أول ابتسـامة صغـيرة تجعـل قلبهـا ينتفـض، تلـك الانتفاضـة القلبيـة المعهـودة التـي تشـعر

بهـا فـور رؤيـة.

وقـف نائـل ليعـرف طـلاب الامتيـاز عـلى الأطبـاء المتخصصـين في القسـم قائـلًا بنـبرة حماسـية: أحـب أعرفكـم عـلى الدكاتـرة المسـئولين عنكـم خـلال الفـترة الجايـة، بـدأ نائـل بالإفصـاح عـلى أسـمائهم وتخصصاتهـم، مـما جعـل أحـد الطالبـات تقـف متسـمّرة مـن صدمـة التـي تتمثـل أمامهـا في هيئـة ذاك الطبيـب الثرثـار، هـل هـو طبيـب، حتـمًا سـتعاني الفـترة القادمـة مـما سـتلقاه مـن سـوء التعامـل، انـصرف الجميـع دون أن تشـعر وهـي غارقـة في أفكارهـا القادمـة، ولكـن قطـع تفكيرهـا حـين قـال نائـل بصـوت عميـق راسـخ:

- أخبـارك يـا دكتـورة. همسـت بتوتـر وعيناهـا متعلقـة بالـذي يقـف خلفهـا مباشرة.

- الحمد لله يا دكتور.

رد نائـل بلطافـة غـير مـدرك حـرب العيـون، بينهـما خائفـة متوتـرة والطـرف الآخـر عينـاه تلمـع بتسـلية سـاخرًا:

- ده دكتـور معـاذ وهيكـون المديـر المبـاشر لـكِ، طبعًـا مـش محتاجـين تتعرفـوا؛ لأنكـم اتقابلتـوا قبـل كـدة.

طأطـأ معـاذ راسـه ببسـاطة، واضعًـا يديـه الاثنتـين خلـف رأسـه، بينـما نورهـان تترقـب كل تحـركات معـاذ الغـير مريحـة، وتلـك البسـمة السـمجة التـي تزيـن ثغـرة منـذ أن وقعـت عينـاه الوقحـة المتسـلية نحوهـا؛ فقالـت بخفـوت حـذر:

- اتعرفنـا فعـلا، تشرفـت بحضرتـك يـا دكتـور، وليـا الـشرف إن هشـتغل معـاك.

ارتفع حاجبا معاذ هامسًا بتعاطف مسرحي زائف: حقيقي، وأنا كمان.

انـصرف نائـل بهـدوء معلـلًا أن وراءه الكثـير مـن الأعـمال المتراكمـة فوقـه،

صمتت تتنفس بسرعة وعنف وهي تراه يجلس على المقعد خلف المكتب، واضعًا قدميه الاثنتين فوق المكتب بمنتهى الاحتقار، وكأنه امتلك المكان بأكمله، وهو يقول نافثًا دخان سيجارته، هاتفًا بصوت متباعد وهدوء مسيطر:

- مش قولتلك هنتقابل كتير الفترة الجاية.

قالت نورهان بصوت آسف معتذر:

- أنا مكنتش أعرف إن حضرتك دكتور هنا، أعذرني لو كنت أسأت إليك في المرة اللي فاتت.

هتف معاذ بصوت هادئ قاتل:

- ومين قال إني مضايق بالعكس، أسلوبك كان معتاد.

همست نورهان بأريحية:

- شكرًا.

هتف معاذ بصوت أجش مهدد:

- بس مش معنى ذلك إن متقبل اعتذارك.

فغرت نورهان فاها ببلاهة، ثم همست باستنكار: يعني إيه؟

رد معاذ بعنجهية وتسلط عنيف:

- لازم تعرفي إن اللي قبل منك عشان يعرفوا طريق باب العمليات، مجبرين ينفذوا كل أوامري.

قالت نورهان باستنكار:

- بمعنى؟

نظر إليها معاذ بتفحص دون خجل، ثم استدار بالكرسي المتحرك بتسلية

حين همس بصلف آمر:

- أولًا: قهوة كل يوم الصبح مظبوطة، عشان المود؛ لأنها لو معجبتنيش اليوم مش هيعجبك، بالإضافة إني عندى لبسي لازم يروح كل يوم للمغلسة، وتتطمني إن بتاع الدليفري يكون وصل الأكل في معاد الغذاء، وطبعًا تكوني حريصة إن الأكل يكون سخن عشان ممكن أزعل وتتسد نفسي.

ابتعلت نورهان ريقها بصعوية وداخلها صوت صارخ: « إلهي تتسد نفسك يا بعيد»، ولكن قالت بدلًا عن ذلك عندما وجدت صوتها هامسًا ببحة:

- بس اللي حضرتك بتقول عليه ده خارج مجال الطب تمامًا.

رد معاذ بمنتهى التفهم والهدوء البارد:

- عارف، ولحد ما تثبتي لي كفاءتك وقتها أقرر دخولك غرفة العمليات أولًا..

سمعها معاذ وهي تهمس بعدة كلمات ساخطة؛ فقال ببساطة وهو يأخذ أشياءه استعدادًا للخروج:

- الهدوم متعلقة وراكي وعايز غدا النهاردة.

ثم قال مفكرًا بنبرة مستفزة:

- لأ، هاكل النهاردة على ذوقك، رقم الدليفري في الورقة دي متنسيش الساعة أربعة ونص، ثم أشار بيده كعلامة للوداع، بينما هي تقف فاغرة الفم منتظرة أحدًا يقرصها علها تستفيق وتعلم أن الذي حدث منذ ثوانٍ واقع لا مجرد كابوس ستنتهي منه.

****

في الصباح قرر الجوكارد التواجد بين أهل بلدة الدائرة التي ينتوي

الترشح بها؛ ليعلم احتياج أهل البلد والتطورات التي يرغبون بها في المستقبل كباقي المرشحين، توقف موكب من أفخم السيارات التي اقتحمت البلد ببهاء وهيمنة في القرية, لا في الحقيقة هي ليست قرية بالضبط، وإنما هي مساحة الأراضي الزراعية تمثل٥٧٪من مساحتها, والباقي منازل يتواجد داخلها أصحاب هذه الأراضي لرفضهم التام أن يدخل أجنبي قريتهم حتى لو من القرى المجاورة, استثناء المساحات الشاسعة التي تخص قصر العمدة ومساحات الأراضي الشاسعة من القصر.

اتجه موكب يحتوي على العديد من أفخم وأحدث أنواع السيارت الفخمة، والذي كان يتوسط أحد

ث أنواع السيارت الفخمة، والذي كان يتوسط أحد السيارات الجوكارد والطبيب نائل وبعض من الرجال المسئولين عن أعماله ورجال الحرس، بدأ التجمع من أهل البلدة حول السيارات ليتعرفوا على هوية هذا الضيف الجديد, وعندما نزل من السيارة ليرحب، اكتشف أهل البلد أن هذا الرجل أخوه الذي قتل شابًا صغيرًا من هذة القرية في الماضي، ولم يتم عقابه من أهل القرية، ولم ينل القصاص العادل من القضاء بسبب الإجراءات التي اتخذها الجوكارد لحماية أخيه، وبالتالي تم معاقبة شخص آخر ليس له علاقة بالقضية من الأساس, صاح بهم أحد الرجال وعندما تعرف على هويته فثار عليه أهل البلد رميًا بالحجارة والأتربة والأحذية، وقام أحدهم بالتطاول على الجوكارد؛ فتهشمت نضارته الثمنية وكان سيحلق بها لولا حمايته من أحد رجال الحراسة الذي أدخل السيارة سريعًا، وقاموا بالهرب بسيارتهم، فلو كان انتظر الباشا بضع دقائق لكانت أصبحت الخسائر فادحة وخسر روحه ومن معه. يبدو ما زال الحريق مشتعلًا في البلدة، ولم تبرد النار التي تشتعل في قلوب أهل البلدة وتتحول للرماد بعد، عند الوصول إلى أحد الاستراحات أحد ممتلكات الجوكارد, فتح باب المكتب بعنف وهو ينفض الأتربة والأشياء المتسخة التي طالت حليته الأنيقة وهو يصرخ بغضب وقوة

عاصفـة:

شـوفت يـا نائـل الـلي حصـل مـن أهـل البلـد, هـما دول أهـلي ونـاسي الـلي هيدعمـوني في الانتخابـات.

رد نائل بصوت أجوف خافت:

- إهـدا بـس يـا هاشـم، نشـوف حـل للموضـوع ده، متنسـاش الـلي إحنـا عملنـاه في ابنهـم عشـان أخـوك ده مكنـش كفايـة.

رد هاشم بفظاظة وسخط متجاهلًا بعض كلماته:

- متقوليـش أهـلي، أنـا كل الـلي عايـزه إن كرامتـي ترجعـلي، مـش الجـوكارد الـلي يحصـل معـاه كـدة عـلى آخـر الزمـن مـن نـاس ملهـاش أي تلاتـين لازمـة.

اسـتدار هاشـم إليـه حـين وجـد نائـل صامـت لا يتحـدث، فقـط وضـع يديـه في جيـب بنطالـه، وأخـرى عـلى أسـفل ذقنـه، ناظـرًا نحـو الأرض وكأنـه يحـل معضلـة عويصـة.

صاح هاشم بصوت شرس حانق:

- أنـت مـش بـترد عليـا ليـه؟ إنـت عايـز تجننـي يـا نائـل مـا تنطـق تقـول أي حاجـة أو حـل للمصيبـة دي، لازم النـاس دي تدفـع الثمـن.

مط نائل شفتيه بامتعاض عابس:

- يعني عايز تعمل إيه؟

قال هاشم بحقد وتسلط عنيف:

- حوصـل الـلي حصـل لي، للنـاس الكبـار علشـان يعرفـوا أن الموضـوع مـش هيعـدي مـرور الكـرام كـدة...

همس نائل بتريث ولهجة فاترة:

- مش حل, دي قرية كاملة يعني لا فرد ولا اتنين ولا عشرة حتى.!؟

هتف هاشم بنفاذ الصبر وحنق بالغ:

- أنا مش هيجنني قد برودك المبالغ فيه ده....!

صمت نائل عدة دقائق, جعل الجوكاد يزفر بعنف وقنوط، لمعت عيناه بخبث وشيطانية، ثم ابتسم بتملق قائلًا:

- لقتها, لقتها يا جو.!!

قال هاشم بهدوء مفاجئ مترقب:

- هي إيه؟

قال نائل بنبرة باترة كصوت شيطان أعمى:

- عندي لك فكرة جهنمية، خلال أيام بسيطة بس هتخلي القرية كلها تتمني لك الرضا, وتدعليك, وكمان هما اللي هيسعوا عشان توافق على ترشحك للانتخابات..!

همس هاشم بتعجب ذاهل:

- كل ده ليه, أنت بتفكر في إيه بالضبط؟

رد نائل بنفس النبرة:

- هقولك بس تسمع كل حرف هقوله..

هتف هاشم بتشويق وفضول: معاك مهما كان الثمن؟

***

وضع معاذ السماعة الطبية داخل أذنيه؛ ليكشف على منطقة الرئتين؛ فقال بهدوء للمريض:

- خد نفس عميق..!!

ثم قال للمتدرب الذي يقف بجانبه بصوت آمر:

- فيه نقص بمعدل الأكسجين G-SS يتحول لأشعة على الفور محمتل يكون فيه كسر في الضلع...

فقال المتدرب بتهذيب:

- تمام يا دكتور.

أضاف معاذ قائلًا:

- وكمان تراقبوا الهيموجلوبين.

كاد ليخرج معاذ، ولكن أوقفة نائل قائلًا:

- معاذ أخبارك إيه..!

رد معاذ بهدوء:

- الحمد لله يا دكتور أخبارك إنت ايه.؟؟
رد نائل بغضب مصطنع:
- أنا زعلان منك!!
همس معاذ باندهاش مستنكر:
- خير يا دكتور نائل حصل حاجة.!!

وضع نائل قبضته فوق كتف معاذ، قائلًا:

- أنت مزعل نورهان ليه؟ مش بتدخلها عمليات وطلباتك كلها خارج نطاق الطب تمامًا...

ابتسم معاذ بتهكم، ثم وضع يديه في جيبه بثقة قائلًا ببرود:

- تمام أستاذي الرسالة، وصلت كله بردو إلا زعل الآنسة نورهان.

صمت معاذ عدة دقائق، ثم همس بتردد:

- دكتور. ..!

كان نائل يتفحص بعض الأوراق الخاصة بإحدى الحالات فرد دون أن يستدير:

- خير يا معاذ عايز حاجة؟

رفع معاذ حاجبيه بانتباه قائلًا بلباقة مستنكرة:

في الحقيقة طالما جبت سيرة نورهان المتدربة الجديدة، كنت عايز اسألك هي بنت جو؟ طب إزاي وهو أصلًا مش بيخلف..
عبس نائل بتلقائية وهمس ناقمًا ساخطًا دون أن يرفع رأسه:

- تبني ..!!!

هتف معاذ بذهول يحثه في الحديث بحذر:

تبني إزاي؟ أعتقد هو مش عاجز على إنه يتجوز ويخلف أولاد من صلبه.
قال نائل بنبرة باهتة:
- حصل فعلًا، خالي أيام شبابه كان شاب مستهتر وبيحب البنات، تحديدًا من اتنين وعشرين سنة ضحك على بنت مسكينة بتشتغل عند عمه واتجوزها عرفي بس وقت ما عرف إنها حامل وفيه طفل، هددها تنزل اللي في بطنها والبنت خافت، وكان وقتها فيه خطورة على حياتها لو نزلته بس بمجرد ما خلفت الطفلة، هربت وكان من حسن حظي أكون طالب مع الدكتور اللي موجود وقتها في النبطشية، عرفت إنها ولدت وكان هيتجنن، كنت وقتها بتلذذ بتعذيبه لما عرف إنها بنت، وشاء القدر تكون على قيد الحياة ومحروم منها؛ لأنه اتحرم من الخلفة عشان بنت الحسب والنسب بنت أكبر رجال القبيلة عندها عقم، وبعد ما اتوفت رفض فكرة الجواز دي تمامًا، زي ما تكون أم بنته علقت معاه، سنوات من البحث في بلدها والبلد المجاورة عشان يوصل

لبنتـه ولكـن بـدون فايـدة؛ لدرجـة إنـه سـمى المستشـفى عـلى اسـم الـلي كانـت اختارتـه غـروب...!!!.. ومـن هوسـه وحبـه للبنـات، تبنـى نورهـان دي ودخلهـا أرقـى الجامعـات، وزي مـا أنـت شـايف حالهـا كـدة, مبيرفضلهـاش طلـب, وبيخـاف عليهـا مـن النسـمة الطايـرة؛ لدرجة إنهـم عايزينـي أتجوزها.
رد معاذ بشك:
- طب وأنت رافض ليه؟؟
قال نائل بعد فترة من السؤال:
- مسـألة ارتيـاح، ومـش هكـدب عليـك، هـي لـو كانـت غـروب بنـت خـالي مكنتـش اتـرددت لحظـة إني أتجوزهـا، خاصـة إن أمهـا كان جمالهـا فتـاك، أصـل خـالي كـدة مـش بـيروح غـير للحاجـة النـادرة النضيفـة.
قـال جملتـه الأخـيرة بنـوع مـن الاسـتهانة والتهكـم، ظهـر التأثـير عـلى ملامـح معـاذ رغـمًا إنـه ـ داخليًـا ـ لم يشـعر أبـدًا بـذرة شـفقة عليـه، بـل الحقـد والغضـب كفيـل بـأن يحرقـه بنـار الانتقـام، ثـم تجـاوزه نائـل بهـدوء، بينـما لمـح معـاذ نورهـان تمـر مـن أمامـه دون أن تـراه، فأخـد نفسًـا عميقًـا وهـو داخلـه ينفـث لهيبًـا لا مجـرد غضـب، متوعـدًا لهـا، حـضر معـاذ التجهيـزات اللازمـة؛ لدخـول عمليـة السـاعة السادسـة، دخـل غرفـة الأطبـاء وهـو يزفـر بقـوة وغضـب؛ فقـال ياسـين الـذي كان يتجهـز اسـتعدادًا للخـروج:
- معاذ أنت كويس؟؟

فقال معاذ بدون مقدمات:

- أنـا يوقفنـي رئيـس القسـم عشـان حتـة حـشرة طلعـت اشـتكت عليـه، طـب تـشرب بقـى!!

خمن ياسين قائلًا بشك:

- متقولش أنك هدخلها عمليات.

التـوى فـم معـاذ سـاخرًا، بينـما عينـاه بـدت كحريـق مسـتعر أسـود اللـون هامسًـا بتشـفي:

- لا هـي الـلي هتعمـل العمليـة بنفسـها, خليهـا تـشرب بقـا لحـد مـا نشـوف أخرة الواسـطة والمحسـوبية.

قال ياسين بقلق:

- لا يا بني حرام عليك هيغمي عليها...

قال معاذ من أعماق قلبه متميزًا بحقد وغيظ:

- ياريت!!

كانـت نورهـان تركـض سريعًـا، وحينـما وصلـت إليـه بأقـصى سرعـة، قالـت وهـي تلهـث بقـوة: دكتـور حضرتـك طلبتنـي؟

ابتسـم معـاذ بنفـس الابتسـامة الباهتـة السـاخرة التـي لا تفـارق ذهنـه، وبالأخـص عندمـا يتواجـد شيء يسـتفزه، فقـال سـخرية:

- آنسـة نورهـان أنـت اشـتكيتي منـي لرئيـس الأطبـاء كـوني بطلـب منـك حاجـات خـارج نطـاق العمـل..

تحدثـت نورهـان شـارحة مـبررة؛ لأنهـا لا تـود إثـارة غضبـه مـن جديـد، ولكـن قاطعهـا قائـلًا بـبرود سـاخر مقيـت رغـم نـبرة لم تخـلُ مـن التحـدي وصـوت صـارم لا يقبـل الجـدل:

- حضري نفسك حالًا هتدخلي معايا عملية...!

ثـم تجاوزهـا بهـدوء، بينـما هـي ظلـت فاغـرة شـفتيها بقلـق, هـذا مـا كانـت تخشـاه، ولا تـود حدوثـه مـع زملائهـا حتـى لا يسـخروا منهـا، منـذ أول مـرة دخلـت بهـا المشـفى, كـما أنهـا خائفـة وقلقـة لمـا سـيحدث بعـد قليـل ربمـا يمكـن بسـبب نـبرة معـاذ الغـير مطمئنـة عـلى الإطـلاق رفعـت رأسـها إلى السـماء برجـاء أن يوفقهـا اللـه في غرفـة العمليـات، وقـف معـاذ ونورهـان وبعـض الأفـراد مـن طاقـم التمريـض ملتفـين حـول المريـض، كتَّـف معـاذ يديـه حـول صـدره قائـلًا بـبرود:

- يلا يا دكتورة نورهان المريض قدامك عايزين نشوف مهاراتك...!

ابتعلت ريقها بصعوبة وتوتر، ثم همست بقوة:

- حاضر، ثم طلبت بعض أدوات الجراحة لتبدأ العملية!

مررت المشرط على جلد المريض ببطء وخفة وكأنها تتعامل مع ريش بنعومة؛ فقال معاذ بملل:

- أعصاب إيدك تجمد شوية، الجلد في المكان ده قاسي وقوي..

ظل يتطلع إليها بتسلية من أعلى، لفرق الطول الواضح بينهما، ولحظة إخراج الرصاصة، قال معاذ:

- مكان الجرح متأذم جدًا، والجرح طولة ١سم وعمقه يتراوح بين ٧ إلى ١٠ سم ...!!

حاولت نورهان التحدث لتلطف الجو من شحنات التوتر المحيط بها منذ أن دخلا؛ فقالت بنبرة ذات مغزى:

- أنت قنَّاص فعلًا, زي ما بيقولوا عليك؟!

رفع حاجبيه من سؤالها الجرئ أو جوابها أيًّا كان؛ فقال بنبرة خطيرة:

- وأنت جريئة عشان تاخدي خطوة زي اللي خدتيها النهاردة, كملي حبوب الشجاعة اللي أخدتيها النهاردة، واطلبي وجودك الدائم معايا يا نورهان.

ثم نظر إلى عينيها بقوة ولمعان التحدي المخيف ظاهر في عينيه، تابع مكملًا بصوت غريب:

- وهعلمك كل حاجة.

توردت وجنتاها رغمًا عنها رغم بساطة الكلمات العفوية وابتسامة خفيفة زينت ثغرها ببطء وقلق، من الواضح لأنها ستدفع ثمن ما

فعلتـة ولكـن كيـف, وعنـد اقـتراب الانتهـاء وبـدأت تخيـط المـكان الـذي أجـرت بـه العميلـة؛ قـال معـاذ:

- ماشي الحال..!

فقالت بنبرة تلونها بعض الانتصار:

- شكرًا.

فهتف معاذ بترقب:

- أهـم حاجـة خـدي بالـك مـن الوريـد الـلي بينـزف, أربطيـه بحـذر، وخـلي بالـك مـن الخيـط، وأوعـي يتقطـع منـك.

لم يكن أنهى كلماته، وقد انقطع الخيط؛ فقال معاذ بغضب رغمًا عنه:

- بينزف، فكري بسرعة هنعمل إيه بسرعة اتخذي القرار.

قالـت أحـد الممرضـات بسرعـة وقلـق: حصـل نزيـف والضغـط بينـزل يـا دكتـور.

توقفـت نورهـان عـن الحركـة وشـل عقلهـا مـن هـول التوتـر والخـوف الـذي لحـق بهـا فجـأة، فلـم تسـتطع الانتبـاه إلى أحـد مـن هـول الخـوف التـي تشـعر بـه؛ فزفـر معـاذ بغضـب، ثـم قـال بصـوت حانـق وقنـوط : غبيـة طلعوهـا بـرة، ثـم أكمـل مـا توقفـت عنـده نورهـان!!

****

خـرج معـاذ مـن المشـفى بهيمنـة وغـرور، وكأنـه امتلـك المشـفى بمـا فيهـا؛ فوجـد نورهـان جالسـة عـلى أحـد المقاعـد التـي تعـد اسـتراحة للمريـض نظـر إليهـا بحنـق وغيـظ، ثـم أكمـل طريقـه نحـو السـيارة، ولكـن عـاد إليهـا ثانيًـا، ثـم وضـع يديـه في جيـب بنطالـه وهـو ينظـر حولـه بملـل قائـلًا: أعتقـد الـلي حصـل النهـاردة مـش نهايـة العـالم، وارد جـدًا إنـه يحصـل إنـك تكـون موقـف زي ده.

رفعت رأسها لتظهر عينيها شديدة الاحمرار بوضوح وهمست بحزن، وتسأل:

- واضح من نظرة عينك إنك كنت مراهن عليا وكسبت الرهان صح؟

انتبة معاذ مندهشًا لصراحتها؛ فقال دون تردد:

- أكيد يكون هو ده الشعور الطبيعي لأيِّ حد في موضعي، صحيح اتشفيت فيكي شوية بس خلاص مضى...!

فغرت شفتيها بصدمة الجلف الحقير عديم الإحساس والذوق عديم الخبرة بالتعامل مع النساء الفاتنات.

أخذت نورهان نفسًا عميقًا، بينما تشتعل غضبًا داخلها؛ فقالت بإيجاز:
- بهنيك،غلطي إني أتخصص جراحة يمكن لو اتخصصت في الطب الشرعي مكنتش هخاف إن المريض يموت تاني..!

ضحك معاذ ضحكة رجولية خشنة عالية بعض الشيء، قطبت نورهان جبينها بدهشة لأول مرة تراه يضحك، انتفض قلبها رغمًا عنها، ثم غضت عينيها التي ترمقه بإعجاب من أول مرة وقعت عيناها الواسعتان عليه؛ فقال معاذ بصوت جامد كالحجر:

- التخصص ده للناس اللي معظهم معندهمش روح المغامرة اللي مستشعرها فيكي، محدش فينا اتخلق متعلم ومبيغلطش، لازم نغلط عشان نتعلم.

ثم تركها ورحل أمام عينيها الباكيتين، وفمها المبهور بمن كان يتحدث.

***

في اليوم التالي...

بعد أن قام عمر بتسليم رامي المتفق عليه, توقفت سيارة عمر أمام الهدف, يحرك أصابعه بتوترعلى الدريكسيون وهو يزفر بضيق من كم التوتر الذي

يشعر به, لو كان يستطيع أن يوقفه ويقوم بدلًا منه بتلك المهمه لكان مطمئنًا الآن، بدلًا من مكان بعيد يقف يشاهد دون أن يملك أي حيلة, خرج من السيارة؛ ليقوم بشراء علبة سجائر، ثم أستند على باب السيارة، وهو ينفث السيجارة الثانية بعنف وكأنه يفرغ غضبه المكبوت بها...! بعد عدة لحظات سمع صوت طلقات نار وأعيرة نارية وأصوات ممزوجة بالصراخ والفزع والذهول والقلق...!

أخذ نفس عميق من السيجار، ثم قذفها تحت قدميه، واتجه نحو السيارة؛ لينطلق سريعًا وابتسامة غريبة تزين ثغره, ابتسامة تتميز نوعًا ما من الانتقام والشر والحقد وشيء من الزهو, ولكن الأمر لم ينته بعد, الأمر ما زال في البداية...!!

شعر بالهاتف يهتز في جيبه فأخرجه من بنطاله الضيق، ثم فتح الخط؛ ليتحدث مع أعز وأغلى صديق في حياته البائسة بعض الشيء؛ فقال بخفوت:

- عايز إيه ياروح أمك...!!

جاءه الرد من الجهة الأخرى:

- فينك يا برنس الداخلية؟!

رد عمر بمرح وهو يدور بالسيارة نحو القسم :

- برنس الداخلية في الطريق ياخويا.

قال سمير بغيظ:

- ويا ترى البرنس بتاعنا سايب المركز كدة, ومش خايف إن فيه حد من وحدة التفتيش تطب علينا في أي وقت...

قال عمر بنبرة مفاجأة:

- هو أنا مش ورايا رجالة يسدوا لامؤخذة؟

رد سمير بعبث:

- هبيعك في ثانية يا صاحبي.

رد عمر بيأس:

- اعملها وتبيعني في لحظة.

قال عمر ببساطة:

- ما أنا عارف..

- انجز بقى يا جدع قبل ما تتعلق.

- ماشي ياخويا سلام.

***

في الطريق نحو القسم.....

تقابل أحمد وعمر في الطريق؛ فتراجعت سيارة أحمد إلى الخلف بجوار سيارة عمر التي توقفت فور رؤيته، هتف أحمد قائلًا بدون مقدمات بصوت مشاكس:

- أخيرًا شوفت وشك يا باشا، أنت من ساعة ما دخلت الكلية وأنا مش بشوفك غير في المناسبات.

أنزل عمر زجاج السيارة، ثم هتف بتهكم رغم صوته المرح:

- أعمل إيه خدمة الوطن بقى.

رد أحمد بتحدٍ ساخر:

- خدمة الـ إيه، طب أعمل حسابك بقى أن خدمة الوطن مش هتاخدك مني النهاردة إلا لما تلاعبني ماتش عشان أغلبك.

هتف عمر باستسلام:

- اعتبر نفسك كسبت.

قال أحمد بصوت جاد:

- لا أنا مبهزرش يا خفيف عشان أرغي معاك شوية.

رد عمر بدون مواربة:

- تقصد تقول آخر مصايبك اللي مش بتخلص واللي بدبس في معظمها.

ضحك أحمد رغمًا عنه، قائلًا مؤكد صدق كلامه:

- بالضبط هو كدة.

زم عمر شفتيه، ثم هتف مقترحًا:

- أنا رايح مشوار كدة لحد القسم نخلص مصلحة ونرجع على طول ما تيجي.

أغلق أحمد سيارته بسرعة، قائلًا بعبث:

- معاك يا باشا.

ثم انطلاق ...

في مكتب رئيس المباحث دلف كلٌّ من عمر وأحمد ابن عمه، كان سمير يتعامل مع أحد المجرمين، قائلًا بصوت جهوري:

- ما تنطق ياض؟

هتف السجين بصوت غير متزن قلق:

- وربنا يا بيه ما خدت حاجة.

قال سمير بنفاذ صبر:

- يا بني أنت متلبس وأنت بتسرق موبيل من المسجد، ضاقت في وش أهلك ملقتش غير المساجد اللي الناس بتعبد ربنا فيها.

رد الرجل بصوت مسكين:

- ياباشا أنا مظلوم ومعرفش حاجة عن اللي أنت بتقوله!

هتف سمير بحنق وغضب:

- وأنا هشغل دماغي معاك ليه، خده ياعسكري على الحجز.

كاد ليجلس، ولكن قام مرحبا بهذا الثنائي، مصافحًا إياهم بحرارة، هاتفًا بفرحة حقيقة:

- يا نهار أبيض المهندس أحمد مشرفنا، وأنا بقول القسم منور ليه، اتفضل يا باشا.

رد أحمد بلطافة:

- عامل إيه يا سمير بيه، وحشني.

قال سمير بصوت مرحب رغم فظاظة صوته:

- زي الفل، إنت اللي مبتسألش ببعتلك السلام مع الواد ده، بس شكله مبيوصلش.

رد أحمد بعذوبية:

- وصل يا باشا، أخبارك إيه في الشغل.

أخرج سيجارة، ثم أشعلها قائلًا:

- بخير، نازل كمين شوية كدة.

هتف أحمد بشقاوة:

- أنا من زماااان نفسي أقف في كمين كدة وأخش على العربية أشاور

بتناكة قدامها..وبعدين أجي من الجنب أبص لي سايق يمين وشمال كدة وأقوله الرخص وأنا بشاور بإيدي.

ضحك كلا من سمير وعمر، وقال سمير بيأس:

- الله يخربيت الأفلام اللي بوظت صورتنا يا عم.

رد أحمد بحماس:

- اسمع مني، بس أنا لو خدت فرصتي هعمل أداء كويس.

التوى فم عمر بسخرية لاذعة، ثم قال باستهزاء:

- إحنا لما بنعاقب حد بنشغله ضابط يابني.

هتف سمير مشجعًا:

- قوله ياخويا .

أشار أحمد بذراعيه متذمرًا، ثم قال بعبس:

- هو أنا اشتكيت يا جدعان، وبعدين أنا مش عايز أشتغل ضابط، أنا بس عايزلي يومين في كمين أطلع موهبتي، وممكن كمان أخدكم ونطلع على تجار المخدرات نعمل حملة نجيب حتتين حشيش على كام سلاح بس لوحدنا إحنا التلاتة، بس تدخل تضرب الباب برجلك ياسمير والباب يفتح وأنت تأمن وأنا أقتحم، بعدين أنا أدخل أقولك CLEAR تروح أنت داخل مكمل وهكذا، أنا في دماغي شغل عالي أوي لو تطاوعني هنقلك نقلة تانية في عالم المباحث.

حك سمير ذقنه قائلًا بملل:

- فكرة بردو.

هتف أحمد بغطرسة مصطنعًا:
- هكملك أفكاري بعدين، بس أكيد عندكم ضباط مباحث كتير ممكن

ياخـدو الأفـكار دي، ويسـتفيدوا هـما بالنقلـة.

قال عمر بتهكم ساخر:

- يابنـي أنـت عايزنـا نلعـب بابچـي عـلى الحقيقـة، أنتـوا عايشـين في كوكـب زمـرد.

رد سمير بصبر وتفهم:

- ابـن عمـك طيـب وعنـده طاقـة وأفـكار إيجابيـة تسـاعدهم في تنفيذهـا ولا تحبطـه يعنـي.

قال أحمد باندفاع وتفاؤل رياضي مخاطبًا سمير:

- مثلًا قوله ياخي ده حتى الشرطة والشعب إيد واحدة.

هتف سمير برجاء زائف:

- وحياة أبوك يا عمر هاتو يطلع معانا مأمورية يشوف بنفسه.

قال أحمد بعطف زائف:

- قوله ياعم مبيحسش بحد ده، معاملة ميري ٢٤ساعة على الفاضي.

رد عمر بنبرة باهتة:

- مـش عاجبـك المـيري، إنتـوا متعرفـوش إننـا نخـوض حربًـا لا تعلمـون عنهـا شيئًا .

قال أحمد بغيظ:

- كـدة، سـيبك منـه يـا سـمير، بكـرة لمـا ننفـذ أفكارنـا وصيطنـا يسـمّع هـو الـلي هيجيلنـا يطلـب كورسـات أمـن وتأمـين ومعلومـات اسـتخباراتية وحكايـة كبـيرة.

هتـف سـمير بمـزاح رقيـق: ومالـوا ياعـم، سـيبه براحتـه بكـرة الهـوا يجيبـه، وأقـول اشـتريت تكييـف، ضحـك الجميـع .

الفصل الثالث

الكتمان من الوجع الذي يستنزف ما بداخلك ويمزقك قطعًا قطعًا رغمًا، عنك تلك الدموع اللعينة التي تأبى التحرر من عينين متجمدتين كالجليد تحرق ما بداخلي ببطء قاتل.

*****

لم تمض عدة أيام وانتشر في جميع وسائل الأخبار عن ذاك الفيروس الذي انتشر في المحاصيل الخاصة بقرية آل هاشم، دلف نائل غرفة استراحة الأطباء؛ ليجد معاذ عاكفًا على جريدة؛ فقال باستنكار:

- فيه حاجة يا معاذ؟ زعلان جدًا على الأخبار السيئة.. «يشير إلى ما حدث في القرية» .

التوى فك نائل بسخرية؛ فتابع معاذ قائلًا بتفكير حائر:

- تفتكر الوباء ده حقيقي ولا مفتعل.

رد نائل بغموض مبهم:

- هسبلك الجواب !

ثم ترك كوب النسكافيه على الطاولة، تاركًا معاذ يتفحص المجلة دون أن ينتبه إلى ما تفوه به نائل للتو.

****

بعد منتصف الليل وضع عمر السلاح الذي قام بقتل راهف منصور داخل الدولاب الخاص به، فقد أعطاه رامز قبل أن يأتي إلى المنزل, بعد نجاح العملية، قام عمر بدسه داخل ملابسه حتى لا يراه أحد ممن يقومون بتنظيف غرفته.

ثم شرع في النوم وهو يتنهد بارتياح، يومان دون أن تغمض عيناه لحظة

مـن القلـق وتوتـر الأعصـاب، غـارق في سـبات مـن النـوم، وشـعر بـشيء يتلمـس وجهـه؛ فابتعـد قليـلًا عنـه وهـو يحـك ذقنـه ويحـرك فمـه وكأنـه يتـذوق طعـام لذيـذ، ثـم تابـع النـوم، ولكـن لم يكـف عـن هـذا الـشيء المزعـج بـإصرار؛ فاسـتيقظ رغـمًا عنـه وكان الغضـب الحـارق مشـتعلًا داخلـه، فـما كان منـه إلا أن يستسـلم للأمـر الواقـع، فتـح عينـاه بصعوبـة، ثـم أغمض مـرة ثانيـة، ولكـن لم تكـد تمـر لحظـة إلا وقـد جحظـت عينـاه في الرجـال الملتفـين حـول الفـراش والسـلاح الآلي الـذي يحيـط مـن كل جهـه؛ فقـال بصـوت غريـب لا يشـبه صوتـه وذهـول تـام:

— هو فيه إيه؟!

قال أحد الرجال بصوت رخيم مرعب:

— أنت مطلوب القبض عليك.

أغمض عمر عينيه عدة مرات، ثم أردف قائلًا بصدمة:

— بتهمة إيه؟!

هتف الضابط بصوت رخيم:

— اغتيـال راهـف منصـور، رامـي حجـاج اتمسـك واعـترف عليـك أنـت وصاحبـك التالـت، رد عمـر بتأثـير زائـف متجاهـلًا الجملـة الأخـيرة:
— لا حول ولا قوة إلا بالله هو راهف بيه منصور اتقتل؟
— ايوة اتفضل معانا.
— معاك إذن من النيابة؟

قال الرجل بجدية صارمة:

— معايا إذن من النائب العام نفسه, قوم ياحضرة الضابط.

قـام منتفضًـا مـن الفـراش، محـاولًا اسـتيعاب الأمـر، سـمع صـوت العسـكري يقـول، ملقتـش حاجـة يافنـدم، أمـر الضابـط العسـكري قائـلًا بأمـر:

— ادخل فتش هنا, إشارة نحو المرحاض، بينما أمر سمير قائلًا:
— وأنت فتش الدولاب ده.

لم يتردد سمير حين قال:

— تحت أمرك يافندم.

عندها شعرعمر بما يجري حوله شعر ببرود يسري في جسده وكأن دلوًا من السقيع سقط فوق رأسه في ليلة شتاء قارص، وجسده تصلب بقوة من القادم؛ فابتلع غصة في حلقه.

بصعوبة كالصدأ ودقات قلبه ترتفع وتنخفض بقوة، قام سمير بتفتيش المكان بدقة في كل أرجاء الدولاب يتحسس كل الملابس المعلقة في الجانب، شعر بشيء تحت يديه؛ فمرَّر أصابعه الطويلة على الجلباب من أعلى إلى أسفل؛ ليدرك الذي يلمسه الآن هو مدفع رشاش، قام باستكمال التفتيش ثم جمع شتات نفسه وهو يحاول أن يأخذ نفس عميق في أقل من دقيقة استدار نحو رئيس المباحث والضابط وبعض العساكر الذين يقوموا بالتفتيش، وبالطبع نحو عمر الذي لا يشعر بشيء حوله وكأنه لا يرى ولا يسمع سوى ما سيتفوَّه به سمير، رفع سمير يديه كتحية عسكرية، ثم قال بنبرة رزينة واثقة:

— تمام يا فندم، مفيش حاجة.

زفر عمر بقوه وكأنها إزيحت صخرة شديدة الصلابة من فوق صدره..

استدار إليه الضابط قائلًا بصوت آمر:

— اتفضل إلبس يافندي، قدامك دقيقتين بالضبط، يلا يارجالة.

كل ذلك وعيناه الممتنة فقط معلقة بعيون سمير التي تحمل خيبة أمل ولوم وعتاب، مهما كان للأعذار مبررات .

في قسم الشرطة ...

مكتب المأمور....

ظل ينظر إليه كلٌّ من وكيل النيابة والمأمور عله يتحدث، ولكنه كان صامتًا لا يتفوه، فقط ينظر نحو البعيد؛ فقال وكيل النيابة بصرامة:

— مش ناوي تعترف يا عمر بيه؟

قال عمر بهدوء مسيطر:

— أنا معرفش حاجة يا باشا عن اللي أنت بتقوله!

هتف وكيل النيابة بقلة حيلة:

— بردو مفيش فايدة.

هتف المأمور بنبرة صادقة:

— عمر مخلص النبطشية وماشي من القسم متأخر، وأنا شاهد على كدة يا فندم

رد وكيل النيابة بتهور:

— إزاي يا حسن بيه والشهود والأدلة بيقولوا غير كدة من معرفة القاتل عن طريق الكاميرات اللي بتثبت إتصاله بالنقيب عمر، على العموم أنا همشي دلوقتي، وياريت تجيب الباشا على النيابة ياسيادة المأمور، أنا مش هجيبه متكلبش في وسط الضابط والعساكر مراعاة؛ لأنه مكان شغله, ثم اتجه للخارج.

قال المأمور برجاء خفي مخاطبًا عمر:

— اتكلم ياعمر قول الحقيقة عشان نقدر نساعدك.

قال عمر ببرود دون أن يكترث لأحد:

— أنا اللي عندي قولته يا باشا, أنا معرفش هو بيتكلم عن إيه.

أمر المأمور أحد العساكر قائلًا:

— خده يابني على الزنزانة الانفرادي رقم *٨٧*.

أشار العسكري بتحية عسكرية:

— أوامرك يا باشا.

ثم انصرف وهو يأخذ عمر، والذي يبدو مظهره غير مبالٍ، وكأن الأمر لا يعينه بشيء أمام أعين سمير المترقبة الغامضة، والعساكر وبعض الضباط.

جلس سمير على الكرسي المقابل بجانب مكتب المأمور نفس المقعد الذي كان يجلس عليه وكيل النيابة منذ قليل؛ فقال سمير باستنكار:

— باشا هو حضرتك هتسيب عمر في الوضع ده.

قال المأمور بهدوء:

— إحنا هنشوف تقرير الطب الشرعي ومعمل التحليل الجنائي، ونشوف يمكن الموضوع يتحل قبل ما يتعرض على النيابة.

شعر سمير من تصرفاته أن هناك خطبًا ما؛ فقال بترقب:

— شكل حضرتك قلقان يا فندم.

هتف المأمور بتوتر وهو يفرك أصابعه:

— أنا مش مطمن ياسمير، قتل راهف منصور مش هيعدي كدة مرور الكرام ربنا يستر.

هتف سمير باستنكار:

يعني هما ممكن يعملوا إيه ياباشا.
وضع حسن الهاتف على أذنيه قائلًا بتوتر بالغ:
مش عارف أنا هعمل اتصالاتي بالقوات المسلحة زيادة الدعم في جميع الكمائن والوحدات، خاصة في الأماكن الحساسة.
****

في البهو...
كان هاشم يجلس أمام التلفاز يشاهد الأحداث في الفترة الماضية؛ ليجد معظم القنوات التلفزيونية ووكلات الأنباء تتحدث عن الطفرة السلبية التي أصابت المحاصيل الزراعية في القرية، وشكوى وعناء أصحاب الأراضي الذين يتحملون الخسائر الفادحة التي سوف تلحق بهم مع التجار، والأهالي يستغيثون لشحوب وتلاشي القمح ونفاذ المخزون، والذي يعد الوجبة الأساسية التي لا يستغني عنه أي منزل، والتي تعد من أساسيات الحياة الاقتصادية؛ فقام بالاتصال على أحدهم؛ ليصل الصوت الرجولي الأجش:
إيه رأيك ياباشا مبسوط؟
أرجع رأسه إلى الأعلى، يضحك ضحكة مقززة تحمل في طياتها بعض الحقد:
برافو يا نائل، بحترم فيك أفكارك المكارة دي، الأداء ممتاز.
رد صوت خبيث ناعم:
أنت تؤمر ياجو.
هتف الجوكارد بتساؤل:
الخطوة اللي بعدها؟
رد نائل بإيجاز:
هقولك!
****

في أحد أشهر البرامج تتحدث المذيعة بدبلوماسية وهدوء:
مشاهدينا الأعزاء، النهاردة من خلال برنامجنا هنقدم لكم صورة مشرفة من رجال الأعمال المصريين التي أنجبت الدكتور زويل، والدكتور أحمد خالد توفيق، والدكتور مجدي يعقوب هي أيضًا أنجبت الدكتور هاشم منصور، أهلًا بحضرتك معانا يا فندم ضيفًا عزيزًا.
صفق الجمهور على هذة المقدمة....
قال هاشم مرحبًا وهو يضع يديه فوق كتفيه كرد التحية:
أهلا بك وبكل شباب مصر.

ليصفق الجمهور مرة أخرى بشدة وحرارة....
قالت المذيعة بابتسامة عريضة:
طبعًا في البداية هنستغل وجودك يا دكتور هاشم معانا عشان نعرف المفأجاة المدهشة اللي حضرتك هتقدمها لأهل قرية آل هاشم من خلال برنامجنا.
قال هاشم بجدية وثقة:
في الحقيقة أنا عندي حب الوطن والانتماء للبلد اللي اتربيت فيها أهم من أي شيء في الدنيا، مهما حاول الأوغاد يزرعوا بينا الفتن والضغائن؛ لذلك هدخل في الموضوع على طول، من فترة عرفت أن حصل ميكروب في الأراضي الزراعية بسبب تقلبات الجو، وللأسف قضى على معظم محاصيل الأرز وبعض المحاصيل الأخرى.
قالت المذيعة بعاطفة وتأثير:
صحيح يافندم، وده خلى يكون فيه فقر مدقع في الأرز، وأصبح الأهالي بتعاني من المشكلة دي.
قال هاشم بحماس وطني وشجاعة:
وأنا لن أرضى أبدًا إن بلدي تقع في مثل هذه الورطة وأسكت أبدًا، حضرتك عارفة إني بمتلك أنا وبعض الشركاء مشفى بأكملها؟
قالت المذيعة بفخر:
صحيح يا فندم مستشفى الغروب من أفضل المستشفيات في الوطن العربي من حيث الكفاءة والرعاية والخدمة.
رد هاشم بفخر وبعض الغطرسة:
وأنا بقى كلفت فريق خاص من الأطباء المتخصصين والباحثين الزراعيين في هذا المجال وعلى رأسهم دكتور نائل المشرف الرئيسي؛ ليعملوا على تكوين دواء يقوم بمعالجة هذا الداء، وبفضل الله أولًا، وهذا الشباب المتحمس استطاع إخراج دواء فعّال في فترة وجيزة للغاية.
هتفت المذيعة بسرور:
ده خبر جميل جدًا يا فندم.
رد هاشم والمفأجاة الأفضل والأكبر من كدة، إنه بسعر رمزي للغاية

للجميع ولأهل قريتي الدفعة الأولى مجانية، أي حد حابب العلاج ده يكون متواجد عند مصنع الغروب اللي بجانب المشفى.
هتفت المذيعة بتحية وتقدير:
بشكرك جدًا، وهذا الذي اعتدنا عليه من أعظم من أنجبت قرية آل هاشم حيث الانتماء والوفاء والحب للوطن، بشكرك مرة تانية على وجودك معانا.
بعد انتهاء اللقاء ....
كان يقهقه في السيارة بلذة وانتصار في الهاتف، وهو يقول بلؤم:
إيه رأيك عجبتك؟
تحدث نائل في الهاتف وهو يتناول كأس من النبيذ الأحمر:
جامد يا باشا تصدق الدمعة كانت هتفر من عيني من التأثير وانتابتني القشعريرة من الوطنية.
قال الجوكارد بزهو وانتصار:
أمال أنت فاكر إيه, ثواني يا نائل معايا اتصال أقفل دلوقت.
بعد نصف ساعة كان هاشم في حالة يرثى لها بعد معرفة الخبر المفجع بقتل أخيه الصغير مما جعل الانتقام والتوعد يتمكن منه.
في النيابة.....
في مكتب التحقيق كان الكاتب بجوار وكيل النيابة يكتب كل كلمة يتم تدوينها، حينما قال وكيل النيابة:

— إيه أقوالك في قتل راهف منصور.

هتف عمر بنبرة باهتة:

— معرفش حاجة عن الموضوع ده يا باشا.

رد الرجل هاتفًا باستفزاز:

— أمال رامي حجاج اعترف عليك بأمارة إيه؟

قال عمر باستنكار:

— أنا معرفش معلومات عن رامي حجاج ده، يادوب كان مجرد زميل دراسة، مش أكتر.

رد هاتفًا بسخرية ساخطًا:

- يعني اعترف عليك لله في لله كدة من غير ما يكون عارفك وعارفك كويس أوي وبينكم حاجة.

ارتشف عمر من فنجان القهوة التي قدمها له وكيل النيابة بحكم المعرفة القديمة بينهما:

- طبيعي ياباشا, إن يكون ليا أعداء في كان مكان، أنا اتهددت بالقتل بسبب مأمورية الفيوم، وكله على يد المأمور وأمين الشرطة واسألهم، هما عايشين يرزقوا.

ـ طب ومقابلتك للشبان في الكافيه، وقعدتك معاهم تفسيره إيه؟إحنا فرغنا الكاميرات اللي قدام المكان ووشك كان باين بوضوح وأنت داخل، إيه أقوالك؟

رد عمر مصدقا علي كلامه:

- أنا فعلًا كنت في كافيه ** منتظر خطيبتي، وشوفتهم هناك فسلمت عليهم من باب الذوق، وأنهم كانوا دفعتي، وبعدين لو حضرتك شوفت للآخر هتلاقي بعد دقايق من دخولي خرجت أنا وخطيبتي، يعني مش طبيعي هتبقى معايا خطيبتي وأقابل حد بالمنطق كدة! رغم كلامه المنطقي بعض الشيء، قال بإصرار عنيد:

- طب إيه سبب وجودك في نفس المكان اللي اتقتل فيه راهف منصور، فيه شهود قالوا إنهم شافوك أثناء وقوع الحادث؟ رد عمر بمنتهى الجدية والثقة:

- مبدئيًا كدة، أنا طلعت من بيتي في ميعاد النباطشية في نفس الطريق اللي بروح وأرجع فيه كل يوم، ونزلت دقيقتين أجيب علبة سجايرعشان مكنش فيه سجاير في العربية، وكملت طريقي عادي، مين بقى اللي شافني وقتها في الدقيقتين عشان يلحق يفكر ويلفقلي قضية قتل.

قال وكيل النيابة بشك:

- معقول كل ده صدف يا عمر بيه.

- رد عمر بثبات انفعالي رغم نبرته التي تلونها بعض الوقاحة:

- هو حضرتك عايزيني أعترف بالعافية بحاجة معملتهاش.
رد باستفزاز:

- هل لديك أقوال أخرى؟

- قال عمر بإيجاز:

- لا يافندم.

هتف وكيل النيابة:

- على العموم إحنا حاطين وزير الداخلية ومدير الأمن في الصورة، ولسة كمان شهادة المتهم.. يحبس المتهم عمر ماجد أربعة أيام على ذمة التحقيق، ووقفه عن العمل، ويراعى التجديد في الموعد القادم.

ثم قال وكيل النيابة بنبرة ودودة:

- بردو مش ناوي تعترف ياعمر؟

قال عمر بإصرار:

- أنا معنديش كلام أقوله أكتر من اللي قولته.

رفع حاجبيه بيأس، ثم زفر بعنف:

- براحتك يا عمر، بس صدقني هتخسر كتير أوي لو محاولتش تساعد نفسك وتعترف في الوقت المناسب.

*****

الفصل الرابع

المنتحر أبعد ما يكون عن الله، أقرب ما يكون للشيطان، يكفي أنه أنهى حياته بكبيرة من الكبائر المانعة من دخول الجنة، يظن أن الانتحار نهاية أحزانه والمشاكل التي يواجهها، لكن العكس تمامًا هذه بداية الهلاك والحزن الدائم، وعالم آخر مجهول مظلم....

أتساءل دائمًا، كيف يبدو الشعور في الأعلى، لو ذلك التصرف كان مبررًا, ربما نتيجة ضغوطات نفسية، أوعصبية، أوفسيولوچية, ربما لو لو كان يقرأ القرآن الكريم لوجد الكثير من قصص الأنبياء مروا بضعف لم نمر بنصفه وما ضعفوا وما استكانوا, لا يكلف الله نفسًا إلا وسعها، وهذا يعني أن الله يبتلي العبد بالذي يستطيع تحمله، الجميع يمر باختبارات لم نوضع فيها من قبل، ونعلم جيدًا أن الله سيجعل من كل ضيق مخرجًا؛ لأنه وضعنا في هذه الاختبارات وهو يعلم جيدًا مدى طاقة تحملنا إياها، وإننا نستطيع تجاوزها, مع مرور الوقت, لا حل سوى اليقين في الله عز وجل رب العباد يتعامل معنا برحمته ولطفه وكرمه وعدله؛ فالثقة في تدابيره لو علمناها حقًا علم اليقين لبكينا خجلًا من لطفه بنا، وعلمنا جيدًا أنه أحن علينا من أبوينا, ولكن ماذا يحدث لنا فقط نقوم بدمج الشر مع الخير، والحق مع الباطل حتى نستسلم لوساوس الشيطان والشهوات, لو يعلم الساخط على الحياة ما يتحملة مريض سرطان جرَّاء العلاج الكيماوي والألم الذي يتحمله, لكي يعيش فترة قليلة محدودة من الزمن حتى لا يخسر حياته، ومن حوله يتألمون لألمه، ما فكر لحظة في الانتحار.

*****

ذاك الرجل الطيب عذب اللسان هو الوحيد الذي يشعره أن هناك أملًا في الحياة مهما صادف من المصاعب، ورغم ما مر به من الآلام. قال يونس دون أن يستدير بنبرة تلونها الحنان والعتاب:

- غيبتك طولت المرة دي يا معاذ.

نظر معاذ نحو البعيد ضاحكًا:

- يعجبني فيك إحساسك يا عم يونس, عرفت منين إني هنا؟!

قال يونس بمشاكسة، وهو يضغط على صدر معاذ بالعصا التي بيده:

- أنا بشم ريحتك من على بعد، وبعدين إنت ناسي إن أنا اللي مربيك يا واد. ضحك معاذ بإريحيه, هذا المكان الذي يشعر بالاستمتاع به رغمًا الظلام القاتم المحيط به والمتربع داخله، زفر بقوة يطرد الهم خارجه، قائلًا بعذوبية:

- تصدق إنت الوحيد اللي بتقولي معاذ، كلهم بينادوا القناص لدرجة إني نسيت اسمي.

قال يونس بإصرار مشدد على كل حرف:

- لأن أنت دكتور معاذ مش القناص.

ابتسم معاذ بسخرية مقيتة؛ ففهم العجوز يونس تلك الابتسامة الباهتة التي تخفي الكثير من الآلام والأوجاع، يعلم جيدًا ما يدور داخله؛ فهتف قائلًا؛ لينهي عنه الصراعات الداخلة هامسًا: هسألك السؤال المعتاد بتاع كل مرة، اتصالحت مع نفسك ولا لسة؟؟!

همس معاذ بصوت متباعد عميق:

- هجاوبك السؤال المعتاد بتاع كل مرة:

- الناس يواجهون الموت مرة واحدة في العمر، أما أنا بواجهة كل يوم، الموت على الأبواب وأنا مرحب، منتظر.

كلمات مبعثرة، كطفل تائه، لا يستطيع وصف ما يدور داخله، هذا ما شعر به يونس حين همس بإشفاق:

- أنت عارف إيه الحل الوحيد اللي ممكن يخفف من آلامك؟

قال معاذ بانتباه فضولي:

- حل إيه؟

- التقرب من الله عز وجل، بس خطوة خطوة.

رد معاذ بهدوء هامس:

- تقصد الصلاة؟

قال يونس برزانة وهو يقترب منه:

- مش بس الصلاة، وحاجات كتير جدًا تخلي الواحد تبقى الحياة ملونة قدامه مش معتمة ومقفلة. زي ما أنا شايفك كدة.
دقق النظر نحو معاذ ليجد تعابير وجهه متبلدة بلهاء مستنكرة.

فقال يونس بتفهم شارحًا بتفاصيل أكثر:

- اليقين هو أن الدنيا تبقى ملخبطة معاك وحياتك صعبة، بس أنت واثق أنها هتتعدل مع أنك مش عارف إمتى أو إزاي بس متأكد إن ربنا مش هيسيبك، وأنه هيدبر أمرك بأحسن من اللي تتمناه، في اللي راح منك عشان عوض ربنا عظيم, ومش هتوصل لليقين والرضا اللي أنت فيه إلا عن طريق التقرب من الله عز وجل.
قال معاذ بسخرية:

- كلهم بيقولوا اعمل وانجح وكسر الدنيا وأكبر بس محدش بيقول إزاي؟
هتف يونس بحماس قائلًا:

- بس الراجل العجوز اللي قدامك ده هيقولك إزاي كل حاجة عايزين ننجزها في حياتنا، وننجح فيها محتاجة مراحل وخطوات، زي السلم تطلعه درجة درجة هياخد وقت, ولكن أفضل من إنك تاخد درجات السلم مرة واحدة تقع بيك البسطة،

وأن أقصد التقرب من الله خطوة خطوة هو أنك تصلي الخمس فروض حاضر، مع الوقت هتبدأ تتعود تصلي الفجر، شويه كمان تعمل ورد الاستغفار والصلاة على النبي، مع قراءة سورة البقرة، مع الوقت هتكون اتعودت على سنن الرسول، كل ده مستحيل ييجي مرة واحدة، ولما عملتهم مرة واحدة كده مش هتكمل أسبوع، وهتبطل غصب عنك، الأذكار والقرآن والصلاة وقتهم بسيط جدًا في يومنا بس بيعملوا فرق كبير وشاسع في حياتنا بيحل كل مشاكلنا، غير الراحة النفسية اللي بنستشعر بها طول الوقت، وإن شاء الله ربنا يكرمك ببنت الحلال اللي تكون السبب في تلون الحياة قدامك.

نظر معاذ نحو البعيد وهو يبتسم بسخرية مقيتة على حاله رغم صدق كل حرف هتف به ذاك العجوز الحنون، ولكنه ما زال يقف مكتوفَ الأيدي يشاهد مسرحية ساخرة بسوداوية.

****

على الجانب الآخر كانت تلهث بشدة، أغمضت غروب عينيها بقوة، تعض على شفتيها حتى أدمتها دون أن تشعر بالألم، فما بداخلها في تلك اللحظة كان ألمًا شديدًا لا يشبه أي ألم عرفته على الإطلاق، وضعت قبضتها الصغيرة على السور الحديدي العازل بين الكوبري، ونحو الأسفل حيث نهر النيل رفعت قدميها الاثنتين، إلى الجانب الآخر من السور، ثم أخذت نفسًا عميقًا، وشعرها يتطاير بقوة بفعل الطقس البارد، وعاصفة الهواء التي حلت مرة واحدة وكأنها ترجوها بأن تتوقف عن هذه الفعلة الشنيعة التي سترتكبها للتو، ولكن ليس لديها حل آخر سوى هذا، لقد جاءت إلى هذه الدنيا بالخطأ، وكان لا بدَّ أن تصلح هذا الخطأ منذ زمن، صحيح أنها تأخرت ولكن لا مانع, رفعت رأسها للسماء، ثم همست قائلة:

- أنا آسفة يارب، أنا برتكب خطأ شنيع في حقك؛ لأن مش من حقي أقرر أمتى أنهي حياتي، بس أنهي حياتي أفضل ما تنتهي وأنا على قيد

الحياة، ثم ارتجف جسدها فجأة فأغمضت عينيها، ثم عدت داخلها واحد اثنان ثلاثة، ودون تردد قفزت إلى الأسفل نحو الظلام.

كان معاذ متكئًاعلى جنبه هاتفًا بعبث مشاكس:

- طب إيه مش هناكل بقى السمكتين اللي من الصبح بنصطاد فيهم دول.

نظر إليه يونس من طرف عينيه بغطرسة، ثم هتف بفظاظة:

- السمكتين اللي مش عاجبينك دول أنت اللي هتشويهم.

ابتسم معاذ ليظهر طابع الحسن، ثم هتف بحماس:

- وأنا موافق، بس نلم الليلة دي الأول.

كاد يقوم معاذ من مكانه، ولكنه سمع صوتًا وكأن شيئًا ثقيلًا وقع في الماء للتو فجأة؛ ليصدر صوتًا عاليًا مخيفًا, مكونة على شكل دوائر فاستدار يونس ومعاذ معًا نحو المكان الذي أصدر هذا الصوت، قال معاذ بتوجس:

- أنت سمعت صوت؟!

قال يونس ببساطة رغم بعض شحنات التوتر والقلق الذي عصف بالجو فجأة:

- أيوة، ممكن يكون حد من العيال اللي على الكوبري رموا حاجة من فوق كعادتهم.

ظل معاذ مسلط عينيه نحو المكان الذي أصدر صوتًا غريبًا؛ ليرى عدة دوائر كثيفة عقب سقوطها، بدأت هذة الدوائر تختفي تدريجيًا، رغم أن الليل بدأ يسدل ستاره، لكن الأضواء المجاورة أظهرت هذه الدوائر بوضوح، قطب معاذ جبينه باندهاش نحو ذاك المكان؛ فقال بنبرة خافتة خطيرة:

- معقول يكون اللي في بالي.

ثم صرخ بصوت عالٍ مذعور:

- عم يونس بسرعة في اتجاه المكان.

حرك يونس اتجاه المركب ناحية المكان، وعندما وصل إليه وجد فقعات تظهر بوضوح في أقل من الثانية، كان معاذ قد خلع القميص الذي يرتديه، ثم قفز نحو المكان، بعد عدة دقائق شعر يونس أن الأمور ليست على ما يرام، كاد لينزع ثيابه هو الآخر، ولكن وجد معاذ يطفو نحو سطح الماء وبرفقة فتاة تبدو صغيرة للغاية، تلقف يونس الفتاة من يد معاذ؛ ليضع جسدها على سطح المركب، قفز معاذ سريعًا بجانبها؛ ليقوم بإجراء الإسعافات الأولية، وإجراء التنفس الصناعي، وهو يقول باندفاع وعجلة من أمره:

- بسرعة ياعم يونس على أقرب شاطئ، لازم البنت تروح المستشفى بأقصى سرعة.

قال يونس بذهول غريب:

- حاضر يابني!!

قام معاذ سريعًا بالاتصال على ياسين قائلًا بقلق:

- ياسين أنت في المستشفى تمام جهز سرير حالًا في الطوارئ وقابلني على باب الإسعاف.

بعد مررو بعض الوقت كانت الفتاة في الطوارئ، والأطباء ملتفون حولها؛ فقال ياسين: محتاجة إسعاف ويتركب لها أنبوبة تنفس.

ارتدى معاذ القفازات، وقال بقوة:

- لازم نركب أنبوبة تنفس صناعي؛ ليتم من خلالها تشفيط المية من الرئة، وضخ الأكسجين بقوة للرئة.

بعد العديد من الإجراءات الروتينية في غرفة خاصة بهما، أزاح ياسين الطاقية الطبية على رأسه، ثم كتف يديه أمام صدره؛ ليتطلع نحو معاذ الشارد في اتجاه الشرفة نحو البعيد، مط ياسين شفتيه بقلة حيلة، ثم قال بمزاح رقيق:

- واضح إن حسدتك وبصتلك في اليوم الإجازة اليتيم اللي حيلتك.

قال معاذ باستفزاز دون أن يستدير:

- ما أنت طول الوقت متعود تنق عليه، إيه الجديد..!؟

أقبل ياسين نحوه هاتفًا بانشراح:

- مش كدة، بس أنت عارف بغير عليك من أي حد تقعد معاه من غيري، وأنت واطي وعملتها، وكمان مش بحب أقضي وقت النبطشية من غيرك، بتبقي مملة مش لاقي حد يتنمر على خلق لله غيرك.

ابتسم معاذ وهو ينظر نحو الأسفل رافعًا أحد حاجبيه بتعجب ذاهل:

— تصدق بالله أنا لو خطيبتك ما هتكون خنيق بالشكل ده.

ابتعد ياسين عن الباب المستند عليه قائلًا بسخرية لاذعة مقلدًا صوت الفتيات:

— منا عارف يا سي السيد.

ثم قال عاد إليه فجأة، قائلًا بفضول فاضح:

— صحيح البنت اللي برة دي تعرفها منين؟

قال معاذ باقتضاب هامس:

— محاولة انتحار، أخبارها إيه دلوقتي..!؟

زم ياسين شفتيه وهو يقول بهدوء:

— رفعنا درجة حرارتها على مراحل، وقربنها للطبيعي، للأسف وضعها خطير.

رد معاذ موافقًا رأيه:

- طبيعي جسمها فضل فترة طويلة بدون أكسجين.

قال ياسين بصوت يبدو طبيعيًا متسائلًا:

- إحنا وضعنا البنت على جهاز التنفس الصناعي؛ لضخ الأكسجين للرئة في محاولة زيادة نسبة الأكسجين في الدم، وكمان عالجناها بالمضادات الحيوية بـ Antibioticلاحتمال الإلتهاب بسبب كمية كبيرة من المية على الرئتين، والباقي بيتوضح من الوقت، صحيح أنت بلغت البوليس؟

قال معاذ بحدة لم تكن مقصودة:

— لا، إياك لما أتكلم معاها الأول.

قال ياسين بارتياب وشك:

— شكل البنت دي وضعها مش تمام هتلاقيها بنت شمال ولا حاجة.

رد معاذ بصوت مبهم:

— هنشوف.

ثم اتجه نحو الخارج بسرعة، وكأنة تذكر شيئًا ليجد نورهان تركب أنبوبة تنفس لأحد المرضى؛ فنادى عليها بصوت صارم، اتجهت إليه على الفور؛ فقال بإيجاز:

- الحالة اللي في غرفة ٦١٢ عايزك تعملي لها فحص شامل، وأهم حاجة تعدي على قسم النساء، عايز ملفها كامل دلوقتي، أنا في قسم الأعصاب.

قالت نورهان بهدوء:

- حاضر يا دكتور.

*****

في السجن....

قال سمير بهدوء:

- تعالى يلا من هنا يا عمر.

رد عمر بسخرية مقيتة وهو:

- إيه هتديني إفراج؟

قال سمير بنفس النبرة:

- لا، هفسحك في دريم بارك يا خفيف، يلا ياخويا قدامي.

دخل الاثنان إلى معسكر التدريب نحو غرفة أحد الضباط.. قال عمر بلامبالاة وهو يشعل سيجارة أخذها من سمير:

- أنت عارف لو جات لجنة تفتيش شافوا المنظر ده الضابط اللي هنا هيروح في داهية.

هز سمير رأسه بتهكم:

- قلبك عليه ولا إيه؟

مط عمر شفتيه بعملية ونبرة غير مريحة:

- خالص بس لو مكانه مش هقبل بوضع يحصل زي ده طول ما أنا موجود.

تطلع إلى مكان حوله، ثم تابع مكملًا بملل خافت:

- وضع يودي في داهية!!
رد عابد الضابط المتواجد في القسم بقنوط:
- ده على أساس إني مكنتش هروح في داهية لما افتريت علينا.
قال سمير بتوتر:
- عابد باشا يا عمر الضابط الجديد.
تجاهل عمر جملة عن عمد، ولكن هذا لا يمنع أن يرد التحية قائلًا مرحبا به:
- أهلًا يا باشا.
نظر إليه عابد بنظرة غامضة، ثم قال بنبرة غير مريحة:
- أهلا بيك يا عمر بيه، أنت مش هتطول أساسًا، ولو فيه أي حاجة رجالتنا هتبلغنا.
همس عمر بنبرة خافتة باهتة:
- فيك الخير.
قال سمير بخفوت:
- هبعتلك عسكري بالأكل.
رد عمر بنبرة فاقدة للحياة:
- لا، لا مليش نفس لو أمكن فنجان قهوة وعلبتين سجاير.
كان أحدهم يتحدث مع الضابط فاستأذن عابد ثم تركهم ورحل دون كلمة، فقال عمر بامتنان:
- مش هنسالك الجميل اللي عملته معايا يا سمير.
- رد سمير بقنوط:
أنهو واحد فيهم يا عمر؟
قال عمر ساخرًا:
- كله.
همس سمير بحزن خفي:
- أنا عملت حاجة ضد مبادئ والقيم اللي اتربيت عليها، وخالفت القسم اللي قدام ربنا, يعني معملتش حاجة سهلة عشان تستاهل الشكر وبس.

همس عمر بترقب وحذر:
- يعني إيه؟
قال عمر باستنكار وفضول فاضح لعينيه:
- عايز أفهم ليه؟
رد عمر بفتور:
- عايز إيه يا سمير؟
قال سمير بنفاذ صبر:
- عايز أعرف بالضبط إيه علاقتك بقتل راهف منصور، والسلاح اللي اتقتل بيه كان بيعمل إيه عندك؟
زفر عمر بضيق وعنف محاولًا الهروب من الموضوع:
بعدين خلي كل حاجة في وقتها.
قال سمير بجنون:
- وقتها إمتى ده، لما أشوف حبل المشنقة بيلف حول رقبتك ياصاحبي وأنا واقف كدة مش عارف أعمل حاجة.
أخذ عمر نفسًا عميقًا من السيجار قائلًا بعصبية:
- متضغطش عليا أكتر من كدة يا سمير.
رد سمير بيأس:
- يعني إيه؟؟
همس عمر باقتصاب:
- يعني ياريت تسبني لوحدي.

بدا اليأس على صفحة سمير؛ فقال بلهجة فاترة:

- براحتك يا عمر، أنا هجيلك وقت تاني تكون فوقت شوية، بس قسمًا بالله لو طلع أنت اللي قتلته أنا مش هسيبك، وهتعامل معاك وقتها بالقانون.
رد عليه معاذ بفظاظة:

- اتعامل بالقانون براحتك يا باشا، بس قبل ما تتحمق كدة وتاخدك العزة بالإثم متنساش مين اللي اتقتل واتقتل بسبب إيه.

رد سمير بنفاذ صبر وهو يحرك ذراعيه بقلة حيلة:

- مش ناسي يا عمر، وإلا مكنتش سلمت أداة الجريمة اللي توديك في داهية، سلام.

قال عمر بتساؤل رغم نبرة مستفزة:

- عشان صاحبك، ولا عشان اللي اتقتل.

هتف دون أن يستدير:

- هتفرق.

أرجع عمر رأسة مغمضًا عينيه دون أن يرد؛ فتركه سمير وهو يهمس شاتمًا إياه عمدًا.

*****

بعد عدة أيام وانتهاء مراسم الدفن، كان يجلس هاشم في المكتب مساء كل ليلة في غرفة المكتب المظلمة ليبكي على أخيه، وفي نفس الوقت اجتمع أكابر أهل القرية بعد انتهاء واجب العزاء، حيث صرح كبيرهم، وقال: ولإنك ابن بار من أبناء دائرة آل هاشم فقد اتفق الجميع على ضرورة ترشحك لمجلس الشعب؛ لأنك خير لها وتستحق أن يكون مكانك تحت قبة المجلس الموقر، يبدو أن أصحاب القرية حينما أخذوا الدواء مجانا من مصنعه أتى بنتيجة إيجابية سريعة، دائمًا يكون نائل على صواب مهما كان الثمن؛ فجعله يكتسب حب أهل القرية من جديد ليس هذا فقط، والاتفاق على ترشحه هذا أمرعظيم؛ ليتحقق في هذه الأسابيع القليلة المعدودة، قطع نائل حبل أفكاره والذي كان يفكر به حين قال بمواساة: هتفضل ساكت كدة ياجو؟

رد هاشم بحرقة بعد فترة صمت تعدت لدقائق، ظن نائل أنه لم يرد:

- مش هبقى كويس ويهدى بالي غير لما أعرف مين الكلب اللي اتجرأ

يقتـل أخويـا.

قال نائل بنبرة مطمئنة:

- اطمـن اتقبـض عـلى كام شـاب كـدة مـن العيـال الـلي مشـتبه فيهـم.
قال هاشم باستفهام:

- تعرفهم؟

مـط نائـل شـفتيه باسـتنكار، ثـم جلـس عـلى الأريكـة واضعًـا سـاق فـوق الأخـرى:

- في الحقيقـة أول مـرة أسـمع أسـاميهم بـس هـما مـن القريـة، الغريبـة إن اسـم حبيبـك جـه في التحقيقـات..

رفع هاشم رأسه بسرعة هاتفًا بارتياب:

- مين؟!

قـال نائـل ببـطء يراقـب تعابـير وجهـه: النقيـب عمـر ماجـد بيقولـوا مشـتبه فيه .

ارتفـع حاجبـاه بصدمـة، وتحـرك جسـده باندفـاع رغـم عـدم تحركـه مـن الكـرسي؛ فقـال بشـيطانية ونـبرة غـير مريحـة:

- قولتلـك الـواد ده مـش عاجبنـي، وكـذا مـرة يدايـق رجالتـي ويرخـم عليهـم في الكمـين نخلـص منـه مـن الأول بـدل مـا هـو واجـع دماغنـا الـواد ده لازم يتقتل .

رد نائـل مهدئًـا إيـاه قائـلًا باتـزان: إهـدى يـا جـو؛ لأن لـو مـدان هيتحاكـم وياخـد جـزاءه..

صاح جو بصوت ساحق جهوري، وغضب أعمى:

- وأنا لسه هستنى القضاء, أنا هتصرف....

ثم غادر المكتب صافقًا للباب بعنف ورائه:

زفر نائل بيأس متناولًا كأسًا من النبيذ الذي كان أمام الجو.

****

دلف معاذ نحو الفتاة بعدما أرسلت له نورهان نداء استغاثة فورًا حين تفيق المريضة, فوجدها مستلقية على جانب الفراش تنظر نحو النافذة، وجهها عابس، وعيناها منتفختان من كثرة البكاء، من الواضح أن الأمر أكبر مما ينبغي حتى يكون سببًا مبررًا بما قامت به ليلة أمس.

قالت الممرضة التي كانت تتابع الحالة باهتمام: اتفضل يا دكتور تقرير الحالة, وأول ما فاقت, كانت بتحاول تخرج من هنا, ولما رفضنا حاولت تهرب وعطيناها مهدئ.

نقل معاذ عينيه من الممرضة التي كانت تتأكد من تثبيت إبرة المحلول في كفها الصغير.. مط شفتيه بتذمر غاضب، ثم أخذ يفحص في الملف هامسًا للممرضة دون أن يرفع عينيه: اتفضلي أنتِ..

قرأ معاذ بعض الورق التي أعطته الممرضة قبل قليل، ثم ابتسم بهدوء هامسًا:

- لو تتكرم علينا ست البنات وتكلمنا.

سمعت غروب صوت هادئ عذب للغاية خلفها؛ فقامت على الفور؛ لتجلس تنظر نحو يديها التي تفركها بتوتر خائف، رفع معاذ حاجبيه الاثنين في وقت واحد بإعجاب صريح هامسًا باللغة الإنجليزية:

- برنسس، وكأن القدر قد حضر وبدأت النجوم تتعاون معي.. فألاتعلمي أن جمالك يطفئ نور الشمس.

ثم استفاق من هيمانه، قائلًا مبددًا الصمت بينهما:

- ممكن أعرف أنت مين؟!

ظلت على وضعها وكأنه لم يتحدث، رغم أنها فهمت ما تلفظه للتو وشعر بحمرة وجنتها، رفع رأسه ليحك ذقنه بملل، ثم صاح بصوت جهوري إلى إحدى الممرضات، قائلًا وعينيه مسلطة نحو هذه الفتاة بارتياب:

- هاتي إبرة أدرينالين.

ثم اقترب منها فجأة؛ ليهجم عليها هجوم زائف؛ فتراجعت للخلف حتى كادت أن تصطدم بمعلق المحاليل، فهمس بعبث بالقرب منها:

- خلاص الإدرينالين، اشتغل لوحده.

انتهت كلماته بغمزة وقحة تماثل هيئته التي لا تنتمي أبدًا لمهنة جراح محترم ذي مركز مرموق، لولا وجود ذلك البالطو الأبيض الذي يرتديه لكان محلَ شكٍ بلا تردد.

قال معاذ بروتنيية وكأنه أحد حالاته في الظروف العادية، ولم يراعِ أنه من الحالات التي تحتاج إلى مساعدة خاصة جدًا وظروف استثنائية:

— ممكن أتعرف عليكي، أنت مين، وإيه ظروفك، وأهلك فين؟

ظلت صامتة لدقائق حتى ظن أنه لن ترد عليه، ولكن انتظر بصبر وحين همست، قالت بصوت حزين:

— مليش أهل...!

نظر بطرف عينيه، قائلًا بتساؤل: أنتِ اسمك إيه؟

رفعت عينيها؛ لتنظر نحوه قائلة بصوت هادئ:

— غروب..!

كرر معاذ الاسم وراءها ليتأكد من اسمها المميزالمألوف، يشعر أنه سمعه قبل ذلك قريبًا؛ فصوتها منخفض للغاية، بالكاد استطاع استنتاجه

مـن حركـة شـفتيه.

ثم تابع قائلًا بطريقة تشبه المحققين:

— إزاي حصلـت حادثـة الغـرق، والوقـوع مـن الارتفـاع ده، ولا أقـدر اسـتنتج أن ده انتحـار.

ردهـا كان الصمـت الغامـض الهـادئ، إلا فقـط مـن دمعـة خائنـة سـقطت مـن عينيهـا؛ فقامـت بمسـحها بهـدوء، شـعر معـاذ بالحنـق والقنـوط، صمتهـا غامـض يثـير مليـون شـك يتطـرق في ذهنـه في اللحظـة الواحـدة وهـو لا طاقـة لديـه للانتظـار حتـى تتفضـل عليـه وتتحـدث، عـدة دقائـق عـلى صمتهـا، جعـل معـاذ يتراجـع في الضغـط عليهـا، لا يريـد أن يزيد عليـه أكثرمما ينبغـي؛ فهـي تبـدو متعبـة للغايـة، ولا تتحمـل مـا يـدور في رأسـه؛ فقـال بضـع كلـمات للمريضـة المتواجـدة معهـا قبـل أن يرحـل، قـام معـاذ بتغـير ملابسـه متجهـا نحـو المـرآب المتواجـد بـه السـيارات؛ ليقـود سـيارته متجهًـا خـارج المشـفى، ولكـن منـذ اللحظـة الأولى مـن نزولـه الجـراج وهـو يشـعر بأحدهـم يتفقـد طريقـة يراقـب تحركاتـه؛ فتوقـف دقيقة ثـم اسـتدار سريعًا؛ ليجـد نفـس الفتـاة التـي أنقذهـا مـن الغـرق، والتـي كان عندهـا منـذ عـدة دقائـق، ضيـق عينيـه؛ ليتحقـق مـن هيئتهـا، قصـيرة القامـة ترتـدي بنطـالًا فضفاضًـا للغايـة، وقميصًـا ذكوريًـا فضفاضًـا، وترتـدي حذائهـا الريـاضي، الـذي كلـف أحـد العـمال ليشـتريه لهـا، وتحمـل شـيئًا يشـبه الحقيبـة تضـع بهـا أشـيائها، وشـعرها بلـون العقيـق الـذي يحجـب إضـاءة أعمـدة الإنـارة، مشـعث للغايـة، ولكـن يعطـي مظهـرًا جذابًـا للوهلـة الأولى، اقـترب إليهـا قائـلًا باسـتنكار: غـروب إنـتِ بتعمـلي إيـه هنـا وسـايبة سريـرك؟

أشارت غروب برأسها نحو المشفى، ثم همست برجاء:

— مش عايزة أفضل في المستشفى أكتر من كدة أنا خايفة!

قطب معاذ حاجبيه باندهاش:

— خايفة من إيه؟

اقتربت إليه قليلًا كأنها سوف تخبره سرًا خطيرًا؛ فقالت ببراءة:

— سمعتهم بيقولوا: إن المسئول عن حالتي هيبلغ البوليس، وإن اسمه معاذ، لازم أهرب منهم حالًا، قبل ما يوصل ليا، وأنت هتساعدني، زي ما كنت السبب في إنقاذي من الغرق.

شعر معاذ ببلاهه وكأن أحدهم سكب علي رأسه دلوًا من الجليد، منذ عدة دقائق كان يتحدث إلى ياسين على هذا الأمر، وأنه سوف يقوم بإبلاغ الشرطة عن هذا الحادث، فقال باستنكار: وأنتِ جايبة الثقة دي منين، أنا دكتور معاهم وممكن أبلغ عنك!

هزت غروب رأسها برفض ونفور قائلة بتوتر:

— مش ثقة، أنا مش بثق في حد أبدًا، بس محدش بيعاملني كويس غيرك في المستشفي دي.

تمزقت شباك العنكاب التي أحاطت بعقل معاذ لعدة ثوانٍ، هذه الفتاة أخطأت في الاختيار، واختارت الشخص الخطأ تمامًا، ابتسم داخله بشيطانية، كم هي صغيرة وساذجة؛ لتأتي له بقدميها في توقيت كهذا ماذا يفعل بها، ولِمَ أساسًا يقوم بمساعدتها، هذا يدل على أن الرحمة ما زالت موجودة في قلبه، لا يفعل ذلك إلا شخص ما زال بداخله رحمة، ترى كيف يتواجد داخله بعض العطف والشفقة وهو لم يستمدها من أحد قط، فقط الكراهية والحقد متربعان في قلبه وعقله وكل كيانه، ماذا لو ذاقت هذه الفتاة قليلًا مما رآه في حياته حتى يشعرأنه ليس فقط من الذين تعرضوا للظلم والقهر، نفض الأفكار الشيطانية عن رأسه رغمًا عنه، ثم همس مستغفرًا، قائلًا بصوت يبدو طبيعيًا رغم نبرة الغريب:

— أنتِ فين أهلك، عنوانك، أي حد نقدر نتواصل معاه عشان نشوف مشكلتك؟

ردت غروب بطفولة وحزن:

— أنا مليش أهل.

عقد حاجبيه بتوجس وارتياب، ثم قال باضطراب:

- للأسف أنتِ مسئولية، ومساعدتك ضد شغلي، أنا مضطر أكلم الأمن عشان ترجعي غرفتك لحد ما يتم اتخاذ الإجراءات اللازمة!! تطرق برأسها مجددًا، ماذا يمكن أن يحدث لها إذا عادت مجددًا، نفس المكان الذي كانت تقطنه، أخذت تتنفس بعنف، أفكارها مضطربة وقلبها ينتفض، صفحات الماضي تعرض أمامها وكأنها شريط يدور في خيالها ولم يجد نقطة حتى يستقر بها، أظلمت عيناها وتغيرت تعابير وجهها بخوف وارتعشت شفتاها بارتجاف وقلق وكأنها على استعداد للانفجار في البكاء الآن، فقالت بتوسل باكٍ:

- من فضلك أوقف جنبي، أنا وحيدة ومش عايزة اتبهدل في الأقسام، ولا أرجع المكان اللي كنت فيه، أنت أنقذتني من الموت مرة اللي كانت الوسيلة الوحيدة للنجاة بالنسبة ليا، ولتاني مرة بطلب منك تنقذني من الموت بس المرة دي وأنا على قيد الحياة، أرجوك..!!

هتفت النبرة الأخيرة بصوت متوسل باكٍ، والدموع تتساقط من عينيها بغزارة.

كان معاذ يراقب تعابير وجهها تدريجيًا، منتظرًا عاصفة بكاء، ورغمًا عنه تعاطف مع حالتها المثيرة للإشفاق، وداخله بعض الفضول والحيرة حول ظروف تلك الصغيرة، نظر للأعلى نحو نافذة الغرفة بتردد، والتي كان من المفترض أن تتواجد بها الآن، منتهى التهور أن سمح لها بالذهاب معه وإلى أين؟ وبعد ذلك، ما المفترض أن يحدث؟ بها شيء غريب يجعل أي أحد ينجذب إليها، كمظهر فهي أنثى جذابة الملامح ترضي غرور أي رجل، نفض معاذ رأسه بيأس وغضب، أفكار شيطانية ترواده من جديد لثاني مرة في نفس التوقيت، تبًا لأفكاره السوداوية التي تحيط به من كل جانب، يسأل نفسه: متى التخلص من هذا

الوحـش الـكاسر السـاكن كيانـه بسـيطرة مخيفـة..!!

استدار بعيدًا عنها؛ ليخرج هاتفه للاتصال بالأمن، وينفذ صوت العقل والمنطق؛ ليقوم بأخذها لمصلحتها، وحتى لا يتأذى في العمل، دقيقة دقيقتان ثم قام بالضغط على زر الاتصال بتوتر وهو يعلم جيدًا أنه لو نظر للخلف مرة واحدة سيقوم بإغلاق الهاتف، ضاربا العقل والمنطق عرض الحائط ، ولم يستطع الصمود أكثر من ذلك، استدار ليجدها تنظر إليه بنظرة غريق يود النجاة، ولكن بصمت وعزة نفس؛ لأن الخطوة التي تليها ستعرضها للإذلال، قام بغلق الهاتف فور سماعه أحدهم يقوم بالرد عليها؛ ليقتربا منها هامسًا بهدوء، مسلط عينيه نحو عينيها الكبيرتين، الحمراوتين من كثرة البكاء: خلاص كفاية بكا، أنا موافق بس بشرط ..

هزت غروب رأسها بتساؤل؛ فتابع قائلًا بصرامة وتحدٍ حتى تعترض:

— لازم أعرف كل ظروفك بالكامل، عشان أعرف هتصرف معاكي إزاي...!

أومأت بطاعة ووداعة؛ فهمس بتساؤل غريب:

— أنتِ إزاي قدرتي تهربي منهم...!!

قالت غروب ببعض الراحة والانتصار؛ لتحقيق هدفها وهي تمسح وجنتيها بطرف قميص ذراعيها:

— من السلالم الخلفية.

ذهل معاذ من هروبها، فلو كانت تعرف أماكن المشفى لم تنجح بهذا الاحتراف؛ فقال بإعجاب من جرائتها وشجاعتها؛ لتخطي موقف كهذا:

- أنت مجنونة، بس جريئة.

فتح معاذ باب السيارة لتدخل، ثم انطلق خارج المشفى مفكرًا ما

سـيحدث بعـد ذلـك....!!!

توقفت السيارة أمام البناية التي يقطن بها، ثم قال بإيجاز:

- إنزلي..

ثـم نـزل معـاذ مـن السـيارة؛ ليجـد الهاتـف يـرن فقـام بالـرد؛ ليـأتي صـوت مجنـون صـارخ عـلى الجانـب الآخـر:

- الحالـة الـلي أنـت مسـؤول عنهـا يـا معـاذ هربـت، والدنيـا مقلوبـة عليهـا هنـا، لازم تيجـي فـورًا.

توقـف معـاذ بالسـيارة، ثـم توقـف أمـام بابهـا متجاهـلًا غـروب التـي كانـت تنظـر إليهـا بترقـب حـذر؛ ليزفـر معـاذ بقنـوط وسـخط، المشـاكل سـتبدأ مـن التـو، نظـر إلى الأعـلى وهـو يشـد خصـلات شـعره بانزعـاج وتفكـير مـن هـذه الورطـة التـي وضـع نفسـه بهـا بمنتهـى الرضـا، مـاذا لـو علـم الجميـع أن الطبيـب المسـؤول عـن الحالـة هـو ذات الطبيـب الـذي سـاعد المريضـة عـلى الهـروب، أغلـق الهاتـف مـع ياسـين، واسـتدار ليصطـدم بمقعدهـا فارغًـا، ولا يتواجـد أحـد في المـكان، للحظـة شـعر بالغضـب الحانـق والغبـاء عـلى اسـتغلال طفلـة سـاذجة، مسـاعدة رجـل في مثـل عمـره ضرب الأرض شـاتمًا، ثـم صرخ في البـواب الـذي كان يجلـس أمـام العـمارة قائـلًا بجنـون:

- عـم صـبري كان فيـه بنـت هنـا دلوقـت، متعرفـش ممكـن تكـون مشـيت مـن أنهـي اتجـاه؟!

أشار الرجل قائلًا باستغراب: من الاتجاه ده يا دكتور معاذ.

أشـار نحـو الشـارع الخلفـي للسـيارة؛ فقـام بـإدارة السـيارة نحـو الاتجـاه؛ ليبحـث عنهـا بجنون..ظـل ينظـر في كل الاتجاهـات علـه يعـثر عليهـا؛ ليجـد فتـاة تعـدو في الجانـب وكأنهـا تهـرب مـن أحدهـم، زفـر براحـة أخـيرًا حـين تحقـق مـن هيئتهـا، أغمـض عينيـه بتوعـد وغضـب؛ فسـيقوم بعقابهـا بأقصى الطـرق التـي لا يمكـن أن تتخيلهـا يومًـا، ولكـن قبـل ذلـك عليـه مراقبتهـا

ليعلم إلى أين تريد أن تصل، سيعمل جاهدًا للوصول إلى اكتشاف سر غموض هذه الفتاة، وما هي الكارثة التي افتعلتها وجعلتها تهرب من العالم بهذا الإصرار الغريب ظل يتابعها بفضول، متحكم بسرعة السيارة حسب حركتها، ولكنها توقفت فجأة حين وقف أمامها ثلاث شباب محاولين إمساكها؛ فصرخت بهم بقوة؛ ليتركها ولكن دون جدوى، تطاول عليه أحدهم محاولًا إمساكها؛ ليجذبها نحو باب السيارة الخاص بهم، ولكنها كانت تقاوم بشدة محاولة الاستغاثة بأي أحد عابر الطريق، ولكن ما من مغيث، والشابان يضحكان بتسلية واستمتاع وكأن المشهد أصبح شيئًا كوميديًا، زفر معاذ بسخط ويأس، ثم نظر في ساعديه؛ ليتفقد الساعة ليجدها تعدت منتصف الليل بساعتين، في طريق عام به إضاءة، ولكن عدد المارة ليس بالكثير، ماذا يتوقع إذًا، هل ينتظر عدة دقائق متلذذًا بالعذاب الذي وضعت نفسها بملء إرداتها فيه لعلها تعلم عواقب الخطأ الذي ارتكبته معه، أم ينزل من السيارة؛ لينقذها لينهي هذا العذاب التي تشعر به الآن، شعر بالدماء تتصاعد إلى رأسه؛ فنزل من السيارة على الفور؛ فقال أحدهم بتذمر ساخر: ومين الشبح اللي طلع لنا ده..

صرخت غروب مستنجدة به..!!

كاد ليعتدي أحد الشباب على معاذ، ولكن أخرج معاذ سلاحًا من جانبه مصوبًا إليهم؛ فقام الثلاثة بالهروب نحو السيارة؛ فوضعه في جانبه من جديد، باصقًا في المكان الذي كانوا به، ثم سلط عينيه نحو غروب بشيطانية، اقترب إليها ثم جذبها من ذراعيها بقوة إلى سيارته، غيرعابئ برعبها الذي يفضحه تعابير وجهها المذعور، وقد كانت مستسلمة لا تتحدث، فقط تستجيب لكل حركة يقوم بها، لا تستطيع معارضته، بينما شعر معاذ بيدها التي تشبه لوح الجليد، وجسدها الذي يرتجف خوفًا وهلعًا من هول ما رأت منذ دقائق.

عيناها الواسعتان تنظران إليه بحذر وترقب مندهشة لِمَ لا ينفجر

بهـا حتـى الآن، ولكـن دهشـتها تضاعفـت حـين رأتـه هـادئ الملامـح، ودون كلام فوجئـت بيـده تمتـد تجاهها؛ فتراجعـت مذعـورة تلتصـق بالبـاب مـن خلفهـا وهـي تـرى يـده تمتـد نحـو جسـدها، كانـت لا تـزال متأثـرة بمـا تعرضـت لـه منـذ دقائـق، إلا أنهـا رأت يـده تجـذب حـزام الأمـان فـوق كتفهـا بعنـف دون أن يلمسـها؛ ليثبتـه عـلى الجانـب الآخـر مـن خصرهـا، ثـم قـام بتشـغيل السـيارة، وانطلـق دون أن ينظـر إليهـا. قـام معـاذ بقيـادة السـيارة نحـو الطريـق المظلـم، بينـما سـاد الصمـت بينهـما لفـترة طويلـة، وكانـت هـي تنظـر إلى جانـب وجهـه، غـير قـادرة عـلى إزاحـة عينيهـا عـن ملامحـه المظلمـة، والتـي تراهـا فقـط كلـما مـر عليهـا ضـوء مـن أعمـدة الإضـاءة المتواليـة.

بعـد بضـع دقائـق توقـف معـاذ أمـام المشـفى، ثـم قـال بهـدوء دون أن ينظـر إليهـا:

— إنزلي!

ابتلعت غصة مؤلمة في حلقها، ثم قالت غروب بذعر:

— أنـا مـش عايـزة أرجـع تـاني، أنـت جبتنـي هنـا ليـه، ممكـن نمـشي مـن هنـا بـس مـن فضلـك.

رد معاذ بجمود دون أن ينظر لها:

— أنـا معنديـش اسـتعداد تكـوني معايـا لحظـة واحـدة، كفايـة لحـد هنـا...

اتسـعت عيناهـا بقلـق وعـدم راحـة أضعافًـا، حينهـا انتفـض قلبهـا الصغـير برعـب وهـي تتراجـع قليـلًا ناظـرة إلى جانـب وجـه معـاذ، قائلـة بخـوف:

— أنا خايفة منك...

قال معاذ باندهاش صادم غير مدرك الوضع:

— خايفة مني أنا...!؟

طأطأت رأسها إلى الأسفل دون كلمة, مما جعل رأسه يفكر بالأمر بشكل مختلف تمامًا, بالعقل والمنطق ما الدافع الذي يجلعها تثق في شاب غريب لا تعلم عنه شيء سوى إنقاذها فقط والاهتمام بها في المشفى؛ فهزَّ رأسه بتفهم، الآن قد يبدو الوضع بالنسبة له أكثر من طبيعي رغم غرابة الموقف الذي يمرعليها، لكن بالنسبة له أصبح معقدًا للغاية؛ لذلك كان هادئًا معها حين قال بهدوء لا يليق به، انطلق بالسيارة، وهو يفكر كيف يطئمنها حتى يدبر لها مكانًا ويتخلص من تلك المصيبة التي وقعت فوق رأسه، والسبب الأكثر منهما أهمية، هو أن يعرف ما هو لغز هذه الفتاة؟

توقفه السيارة أمام البناية، ثم قالت غروب فجأة بعبس:

- أنا مش عارفة اللي بعمله ده صح.

قال معاذ بدهشة مستنكرة:

- اللي هو إيه؟؟

ردت بنفس النبرة القلقة:

- اللي إحنا فيه دلوقتِ.

ابتسم قائلًا بلطافة وكأنه يخاطب طفلة صغيرة:

- لا متقلقيش، اللي أنت بتعمليه الصواب، خليكي بس واثقة فيا.
قالت بغيظ وكبرياء:

- وأنت مين عشان أثق فيك؟؟؟

صاح معاذ بنفاذ صبر:

- سواء وثقتي فيا أو لا أنا مش مهتم.

ثـم نظـر لهـا مـن أعـلى رأسـها حتـى أسـفل قدميهـا باسـتهانة، هاتفًـا بغطرسـة وغـرور:

- أساسًا أنتِ مش النوع اللي بفضله.

ثم أعطاها مفتاح الشقة التي ستقطن بها، قائلًا بإيجاز:

- الشـقة في الـدور السـادس، هتلاقـي كل حاجـة ممكـن تحتاجيهـا ورقمـي معـاكِ، ابقـي كلمينـي لـو احتاجتـي حاجـة، ولـو حاولـت تهـربي تـاني هيكون أفضـل ليـا، عـلى الأقـل يكـون ضمـيري مرتـاح، وبالمناسـبة أنـا دكتورمعـاذ الـلي أنـتِ خايفـة يعرفـك ويبلـغ عنـك، اتفضـلي انـزلي مـن غـير سـلام. لم تكـن أغلقـت البـاب خلفهـا ليقـود السـيارة بعنـف، رحـل أمـام عينيهـا؛ فغـرت فمهـا بذهـول وإحبـاط، الأحمـق جـرح كبريائهـا وأهانهـا بكل بسـاطة ورحـل هكـذا، ولكـن لا بـأس؛ فهـي التـي تحتاجـه الآن!!

****

الفصل الخامس

الغضب الأسود القاتم المنتشر داخلك الذي يقتل الحزن من ذكرى أناس أحببتهم ذات مرة ما هو إلا سم يجري في دمك، يوم ما سوف تتمنى أن لم تلتقِ بهم، أو تجمع بينكما صدفة من البداية. تتمنى ألا يكون لهم وجود من الأساس حتى تتجنب ذاك الألم القاتل الذي ينحر في جسدك دون رحمة؛ فالغضب الممزوج بالحزن الذي بداخلك يعطيك قوة كبيرة إذا تركته سوف يدمرك بلا شك, هناك صراع داخلي بالنفس، أصوات غريبة لا تستطيع أن تميزها، ضجة بداخلك تخبرك أنك لست على ما يرام.

*****

يقف كلما تتاح له الفرصة أمام هذا المكان منذ سنين يتطلع إليه بحرقة, أمام ذاك المنزل الذي تربى به وعاش حياته الطفولية البريئة التي كانت تخلو من الآلام والكذب، ومصاعب الحياة والوحدة والفراق، أما الآن فقد تحول إلى مسخ حتى هو لا يستطيع أن يصف نفسه، شخص غريب لا يمتلك الطاقه للتعرف على نفسه، رغمًا عنه سقطت دمعة خائنة؛ فمسحها بقبضته سريعًا قبل أن تلحق دموع أخرى، تود التساقط ليرتاح صاحبها مما يشعر به الآن، ثم تحولت عيناه من ذكرى وحنين وشوق خائن تسرب لأحبابه رغمًا عنه إلى سواد معتم، إذا خرج من صدره سيحرق العالم بأسره مما يشعر به من الانتقام والحقد الذي يتولد كل يوم تجاه أحدهم؛ فهذا المعاذ مثل الوحش الكاسر لديه تلك الرائحة التي تأبى أن تغادر أنفه، ويريد المزيد من سفك الدماء، يتذكر جيدًا يومًا ما كان هناك معركة محتدة بينهما، ونائل يقبض على ساعد معاذ الممسك بالسلاح ويضربه في الأرض إلى أن أوقعه من يده أخيرًا، كان كلٌّ منهم يلهث ليقتل الآخر، وساد السكون إلى أن ابتعد موكب الجوكارد، حينها نهض نائل وأنهضه بالقوة إلى أن تلقى نائل لكمة قوية؛ فقام نائل يرد عليه، ولكن معاذ تلقى اللكمة على معصمه، حاول معاذ مجددًا لكمه فتلقي نائل اللكمة على معصمه

قبـل أن يلكـم معـاذ بـكل قوتـه؛ ليسـقط عـلى الأرض، قفـز معـاذ وحـاول ضرب نائـل إلا أن نائـل عرقلـه بقدمـه ولكمـه وأوقعـه للمـرة الثانيـة، قائـلًا وهـو يلهـث بعنـف:

— خلصت اللي عندك؟!

وحـين ظـل معـاذ مكانـه يلهـث بقـوه ناظـرًا إلى نائـل بعينـين، بينـما الـدم يندفـع مـن جانـب شـفتيه بغـزارة، انحنـى نائـل ليجـره مـن قميصـه المهترئ، حامـلًا السـلاح بغضـب، قائـلًا بصـوت باتـر:

— سلاح غير مرخص كنت عايز تقتل الباشا ليه ياض..!؟

قـال ذلـك نائـل رغـم معرفتـه جيـدًا بالأمـر....!! ظـل معـاذ صامتًـا دون رد، فقـام نائـل بشـد الزنـاد، ثـم أعطـاه إيـاه قائـلًا:

— خـذ ياعـم القنـاص، اضرب اضغـط عـلى الزنـاد وورينـي شـجاعتك!!!

ظـل معـاذ يرمـق هـذا المختـل بدهشـة مـن رد فعلـه دون التفـوه بكلمـة، ابتسـم بسـخرية لاذعـة، قائـلًا:

— مقدرتش خليني أنا اللي اقتلك..!

عندها قفز معاذ قائلًا بشراسة رغم الألم الساكن عينيه:

— أنـا مـش عايـز اقتلـك أنـت، أنـا هـدفي واحـد وبعدهـا هختفـي مـن عالمكم.

رد نائل بوحشية:

— بـس الرجولـة أنـك تاخـد حقـك مـش بحمـل السـلاح، ياولـد عنـدك موهبـة، وشـكلك مدخلتـش في دائـرة أنـت مـش قدهـا؛ لأنـك متعرفـش إيـه هـو المـوت.

قال معاذ بشراسة رغم نبرته المهتزة:

— ومـين غـيري يعرفـه يـا بيـه، المـوت بيضحـكلي كل يـوم!!!

نظر لة نائل بتفحص، ثم هتف بنبرة ذات معنى:

— طـب وإيـه رأيـك لـو خليـت الحيـاة تضحكلـك مـش المـوت.

رد معاذ بارتياب حذر:
- المطلوب ..!
همس نائل بهدوء مسيطر:
- تنفذ كل اللي هقولك عليه اتخذ القرار حالًا؟؟
فاق معاذ من شروده بعد تلك السنوات التي مرت وكأنه قطار يسير بطريقة سريعة، أفكار متلاطمة وذهن مشوش للغاية، بينما هو بعيد يحاول اللحاق به، ولكن دون فائدة ككل مرة يفشل للوصول إليه، لقد ساعده نائل كثيرًا، لا ينكر داخله لولاه لربما انتهى إلى نهاية سوداء لا قرار لها، ولكنه يعود مبررًا أنه دفع الثمن غاليًا، كل عام يمر بداخله مرار غير قابل للتدواي، ربما حياته القادمة ستكون جزءًا مجزءًا من الماضي غير قابلة للمحو أو التعديل، كان يتنفس بصوت عالٍ، قبل أن يرفع عينيه ببطء؛ لينظر نحو البعيد، لماذا دائمًا حياته تتحول لحظاتها من اللذة إلى مرار كالعلقم !!!

أسند ظهره فوق مقدمة السيارة ينظر إلى الأعلى؛ ليغرق في ذكريات ليست بعيدة عن ذاكرته وضع يديه فوق فكه القوي الذي يبدو وكأنه نُحِتَ خصيصًا للألم، وسامته الخشنة التي تمس القلب قبل العينين، أصبح في أضعف حالاته مثيرًا للإشفاق، يتخلى عن قناع البرود يليه قناعه الساخر، يليه قناعه الباهت المبستم رغمًا عنه بحكم عمله؛ ليظهر ملامح وجهه المتعبة الحزينة المثيرة للإشفاق الأقرب للوجع القلب، لم يستطع نسيان ما حدث، حينما كان في سن السابعة عشر من عمره هذا المكان، تلك القرية ساحرة الجمال، لم تجلب له سوى الشقاء في كل مرة يضع قدميه فيها، ولن يستطع قص هذا الحادث من ذاكراته، قطع تلك اللحظات التي يعيشها كل يوم وحيدًا، ذاك الاتصال المزعج من صديقه الذي تعرف عليه قريبًا؛ ففتح الخط هامسًا:

— حبيبي يا دكترة.

جاء صوت ياسين المرح من الجهه الأخرى:

— أنت فين كدة ياراجل مجتش ليه، محتاجينك في المستشفى ضروري عشان نشوف أم الحالة اللي هربت دي.

قطب معاذ جبينه باندهاش وسخط لماذا اكتشف أمرها بهذه السرعة، قال ببرود جليدي: طيب ياعم أنت مش كلمتني مرة، أتمنى بس تكون مبسوط بالورطة اللي أنا فيها وشمتان عشان خلصت النبطيشة بدري و سبقتك.

سمع قهقة من الجهة الأخرى قائلًا بخفة: عيب عليك ياسطا، طبعًا شمتان مش أنت هتشيل الليلة لوحدك في الحالة دي حد يقدر يستغنى عنك...!!

التوى فم معاذ بما يشبه ابتسامة، ثم قال بصوت مقتضب متذمر:

— طب لم الليلة؛ لأن الحالة دي تخصني، وأنا هكون عندك مسافة الطريق، أنا عارف هو يوم باين من أوله..

قال ياسين بصوت مجنون متهلف:

— بس ما تتأخرش عشان هعرفك على حد هتحبه أوي.

تنهد معاذ بمزيج من الارتياب والملل، هامسًا باقتضاب:

— متأكد إنها حالة هربانة، بس مش هروح ألبس في عملية.

قال ياسين بنبرة صادقة:

— أيوة أقسم لك، المستشفى مقلوبة عشان البنت اللي جبتها وهربت، دكتور نائل مناوب النهاردة متقلقش!

قال معاذ بإيجاز متذكرًا الوضع الجديد الذي وضع نفسه به: مش هتفرق، أنا كمان هناوب النهاردة،

ثم أغلق الخط ووضع جانبه على المقعد.

لو بحث داخل هذه الحياة البائسة سيجد أنه الجانب الجيد المرح الذي يرسم البسمة على وجهه في هذه الحياة، ذاك الشاب الذي صادف

التعـرف عليـه يومًـا بموقـف غريـب، رجـع بذاكرتـه للـماضي يتذكـر مـن فـترة ليسـت طويلـة. كان مرتديًـا سـماعات الأذن، يهـز رأسـه يمينًـا ويسـارًا متزامنًـا مـع الموسـيقى الصاخبـة التـي يسـتمع ويسـتمتع بهـا بهـذا الطريـق الصحـرواي المظلـم الطويـل الممـل، ولكنـه هـدأ السرعـة مـن عـلى بعـد ثلاثمئـة مـتر وهـو يـرى أن أحدهـم يحـاول الاسـتغاثة بـه وكأنـه غـارق في بحر مظلـم لا قـرار لـه، شـعر معـاذ بـأن الأمـر لا يسـيرعلى مـا يـرام؛ فقـام بوضـع يديـه في جانبـه يتحسـس السـلاح الموضـوع في بنطالـه؛ فالطريـق غـير آمـن إطلاقًـا في هـذا التوقيـت بعـد منتصـف الليـل بثـلاث سـاعات، وتحديـدًا في هـذا الوقـت، ولكـن هنـاك رغبـة ملحـة وفضـول يدفعـه لمعرفـة مـن هـذا الشـاب، رغـم معرفتـه جيـدًا بـأن هـذا توقيـت قطّـاع الطـرق والقتلـة، هـدأ السرعـة تدريجيًـا حتـى توقـف تمامًـا، ثـم نـزل مـن السـيارة ببـطء حـذر، ونظـر حولـه رغـمًا عنـه، قائـلًا باقتضـاب مدهـش:

— أنت مين وبتعمل إيه هنا..!

قال ياسين بصوت متباعد مجهد:

— أنا جاي حصل ظروف خلتنا ننزل هنا..

رمقـه معـاذ مـن أعـلى إلى أسـفل بتفحـص مرتقـب، ثـم همـس بإيجـاز متجاهـلًا اللغـه التـي يتحـدث بهـا، فيبـدو أنهـا كان يقطـن في الجنـوب:

— طب أركب وهوصلك .!

تنهد ياسين بارتياح:

— اللـه يكرمـك يـا باشـا، كلـك ذوق بـس لامؤاخـذة إيـدك معايـا في الشـنط اللـه يكرمـك.

اسـتطال معـاذ عـلى قدميـه؛ لـيرى كـمًا كبـيرًا مـن الحقائـب في الجهـة الثانيـة مـن السـيارة المحشـوة أغراضًـا متعـددة متنوعـة؛ فرفـع حاجبـه رغـمًا عنـه، والتـوى فمـه بتهكـم؛ فالسـيارة سـوف تعـج اليـوم بأشـياء لا يرغـب إدخالهـا

أبـدًا، ولكـن ليكمـل الأمـر الـذي بـدأه، أخـرج قدمـه الثانيـة مـن السـيارة، وقـام بفتـح صنـدوق السـيارة الخلفـي، وقـام الاثنـان بوضـع الحقائـب في الخلـف بعـد دقائـق، قـال ياسـين بامتنـان:

— شـكرًا يـا أسـتاذ، كـتر خـيرك نـاس كتـير مـرت عليـه، ومحـدش وقـف ليـا خالص.

التفت إليه معاذ رغمًا باندهاش، ثم همس باستفهام:

— أنت كنت وقفت كتير بقى.

قال ياسين بصوت مرهق متعب:

— بقالى أكتر من ثلاث ساعات.

ثم تابع بفضول رغمًا عنه:

— مش نتعرف بيك ياباشا.

قال معاذ ببرود مقتضب جامد، ونبرة غير مرحبة على الإطلاق:

— معاذ.

شـعر ياسـين بلهجـة معـاذ الفاتـرة الجليديـة، ولكنـه تجاهـل ذلـك، قائـلًا بمـودة:

— عاشت الأسامي، واسمحلي أقولك يا معاذ من غير ألقاب.

قال معاذ باستفهام:

— وأنت بقا جاي هنا تعمل إيه؟

قال ياسين بتفاؤل ونبرة حماسية:

— أنا بشتغل جراح، وجالي عرض في مستشفى الغروب ...!!

رفع معاذ أحد حاجبيه بانتباه مستنكر مهتم، ثم تبادل السلام باليد، قائلًا بصوت أجش:

— أنا كمان جراح، وفي نفس المستشفى.

قال يايسن بنبرة ودودة:

— زميل يعني، تشرفنا.!!

ثم أصبحا في وقت قياسي جدًا أصدقاء مقربين يسود بينهما الوداد والحب .... بالرغم أن معاذ كان يتجنبه كثيرًا، ولا يرد على معظم اتصالاته باعتباره متطفل سمج، فلا أحد بهذه السهولة يدخل حياة معاذ؛ فهو شخصية هادئة غامضة جدًا، ومع مرور الوقت أصبحا قريبين بحكم العمل بينهما.

لم يستطع أن يأخذ هذه الخطوة حين مرعلى البناية التي يقطن بها, يطمئن على تواجدها في الشقة من خلال النافذة المضيئة، وخيالها الظاهر المار من خلف الستائر الشفافة، ما زال يندهش من ذاته حتى يتجرأ يأخذ خطوة كهذه، وتسيطرعليه فتاة تحت مسمى الإشفاق والتعاطف، أدار السيارة زافرًا بإرهاق يدعي راجيًا داخله أن يكون ما يفعله الصواب حتى لا يندم، ولا تكون خطوة كهذة بمثابة مصيبة تقع فوق رأسه في الأيام القادمة.

الفصل السادس

دخلت القسم وهي تتطلع حولها برهبة لكونها أول مرة تدخل في مكان كهذا، همست أهلة بتوتر قلق:

- سلام عليكم.

رد العسكري:

- وعليكم السلام.

قالت أهلة وهي تشير نحو الباب بأدب وهدوء:

- ممكن أدخل للضابط اللي هنا؟

كانت تتنفس بقوة وكأنها قادمة من سباق مضنٍ، فلم تستطع أن تنتظر لحظة حين أخبرتها والدة عمر وهي تبكي ما حدث لأبنها.

جاءت على الفور، فرد العسكري الذي يقف في مدخل القسم: خدي نفسك الأول.

قالت أهلة مكررة بقلق:

- أرجوك محتاجة أشوفه ضروري!

رد العسكري بأدب: لو أنت عايزة حاجة قوليها، لكن في الوقت الحالي ممنوع الدخول دي أوامر الباشا!!

همست أهلة بإحباط مترجٍ:

- طيب ممكن تحاول معاه!

رد العسكري هاتفًا بقلة حيلة:

- حاضر.

ثم اتجه نحو المكتب،عاد بعد بضع دقائق، قائلًا بأسف كاذب:

- زي ما قولت لحضرتك ممنوع..

لم تستطع كتم غضبها المشتعل المكبوت داخلها؛ فقالت بنفاذ صبر:

- يعني إيه ممنوع الدخول، من فضلك قول للباشا بتاعك إن الموضوع ضروري.

تعمدت رفع صوتها كمحاولة للوصول لغايتها، بينما على الجانب الآخر داخل المكتب،

قال عابد وهو يسحب نفسًا من سيجارة:
- أخبارك إيه في الشغل طمني؟
رد سمير بمشاكسة:
- برأيك.
قال عابد بتساؤل مستفهمًا، وهو يدعس السيجار في المرمد:
- مش عارف تجديد الثقة ولا إيه؟
ضحك سمير عاليًا، وهو يقول بنعومة زائفة:
- الإدارة العامة للهشتكة.
ضيق عابد عينيه بارتياب مستنكر:
- تقصد تقول الإدارة العامة للحراسة.
رد سمير بإصرار:
- لأ هشتكة.
ضحك عابد رغمًا عنه، ثم أردف قائلًا باستياء:
- ليه محسسني إنك اشتغلت في مباحث الآداب.
رفع سمير أحد حاجبيه بلؤم:
- والله حاجة طرية ومهشتكة..
رد عابد بشك:
- بصراحة مش بعيد أشوفك مرة ملفوف في ملايه.
ضحك سمير مشجعًا:
- مش بعيدة.
قال عابد بمزاح رقيق:
- على وضعك بقا كدة، صحيح عرفت إن عادل بيه هو اللي هيحقق في قضيه عمر ماجد.
عبس وجه سمير لأجل صديقه، وداخله يلعن الظروف والعند اللذين وصلا إليه؛ فهتف سمير باقتضاب:
- أيوة عرفت راجل حقاني جدًا، وده اللي مخليني مطمن إنه هيروح النيابة ويتعمل إخلاء سبيله؛ لأن مفيش دليل ضده..
- ضيق عينيه قليلًا، ثم قال وكأنه يقص سرًا:

- شكلك مشوفتش تفريغ الكاميرا اللي قدام الكافيه اللي اتقابل مع القتيل بيوم، ولا الكاميرا اللي كشفت ظهوره بوضوح في نفس المنطقة اللي اتقتل فيها راهف منصور، كل ده يوضح إن ليه طرف خيط في الجريمة.

امتعض سمير، ثم قال بصوت عميق راسخ:

- ممكن وأعتقد الجاي شغل نيابة يعني لو وربنا يسهل..!!

أرهف السمع نحو صوت بالخارج، قال عابد باستنكار:

- إيه الصوت اللي برة ده ثواني راجع لك.

ثم وقف عابد أمام الباب؛ ليجد شابة تقف مع العسكري؛ فقال بانزعاج متجاهلًا إياها:

- فيه إيه يا بني.

هتف العسكري بأدب: يا فندم بقولها ممنوع الدخول زي ما أمرت وهي مصممة تدخل بردو.

أشار عابد للعسكري بالمغادرة، ثم أردف بملل فاتر:

- روح أنت، وأنتِ يا أستاذة صوتك ده ميعلاش هنا، حضرتك مش في سويقة، عايزة إيه.

توتر أهلة انعكس على جسدها المرتجف؛ فهمست أهلة بتهته:

- أنا كنت جاية للنقيب عمر هو عندكم هنا.

نظر لها من أعلى إلى أسفل بتفحص واستنكار، هاتفًا بنبرة متهمة:

- وأنت تقربيله إيه؟

قالت أهلة باقتضاب:

- أنا خطيبته.

أخذ سمير ينفث دخانه، وبيده بعض الورق، ولكن ترك ما بيديه عندما لفت انتابهه صوت أنثوي واسم عمر ذكر في نصف الجدال؛ فخرج ليجد ماذا يحدث؛ فقال بصوت هادئ مرحب:

- آنسة أهلة.

رد عابد بدهشة:

- أنت تعرفها.

قال بهدوء راقٍ مرحب:
أ- يوة الآنسة أهلة خطيبة عمر بيه.
أومأ عابد رأسه، قائلًا بإيجاز:
- طب اتفضلي تشربي إيه!!!
قالت أهلة بتهذيب راجٍ:
- بشكر حضرتك، وأنا آسفة على الإزعاج اللي عملته ده، كان بدافع الصدمة، وخوفي على عمر.
هتف عابد بإيجاز:
- ولا يهمك، اتفضلي معايا.
ثم قال بصوت عالٍ بعض الشيء:
- ياعسكري خد الآنسة عند غرفة الضابط اللي في معسكر التدريب، غرفة عمر بيه.
- أوامرك يا فندم..اتفضلي يا آنسة.
تعلقت عيناها بعين سمير بامتنان: شكرًا.
فأشار إليها بهدوء، دلفت أهلة نحو الغرفة مجهزة بالكامل، لكن ليست ذو مظهر لائق، اقتربت أهلة نحو عمر الذي كان جالسًا فوق الأريكة الوحيدة المتواجدة في الغرفة، قائلة بلهفة واشتياق ممتزج بالهلع والخوف: عمر..
وقف عمر بصدمة هامسًا دون صوت: أهلة.
ثم تابع بصوت خشن أجش قلق:
- أنت هنا ليه؟ فيه حد حصله حاجة؟
هزت رأسها بتوتر، ولمعت عيناها حزنًا هامسة:
- أنا بخير, أنا قلقت عليك، إيه اللي حصل عشان يقبضوا عليك؟
قال عمر بنبرة مبهمة ذات معنى:
- أبدًا قضية كدة, شدة وحتزول؟!
قالت أهلة باكية:
- إن شاء الله هتعدي أنا متأكدة إنك برئ.
قال عمر بهدوء كئيب:

- إمشي دلوقتي يا أهلة وخدي بالك من نفسك، وإبقي اتواصلي مع والدتي؛ لأنها بتحبك ومتجيش هنا تاني.
ردت أهلة بفزع وضياع:
- لا مستحيل, أنا هكون معاك ومش هسيبك لحظة.
قال بصوت مصقول كحد السيف أفزعها:
- مش هينفع نكون لبعض.
تلك النبرة الجافة الخالية من الرحمة والحياة تعرفها جيدًا، لقد مرت بذلك مرارًا، وها هو الأمر يتكرر أمامها سيناريو يعاد، وهذه المرة الرفض يأتي منه هو لا هي ككل مرة.
طأطأت رأسها للأسفل، وقالت بثبات رغم اهتزاز صوتها: ليه يا عمر تقول كلام زي ده، لا الوقت ولا المكان مناسب.
قال بعد وقت طويل احترق أعصابها: بالعكس هو ده أنسب وقت، أنا مش هقدر أكمل حياتي معاكي، أنا آسف، ثم خلع الخاتم الفضي (الدبلة) الموضع في يديه اليمنى، ووضعها أمامها على الطاولة، ثم استدار موليًا ظهره دون كلمة واحدة...!
ظهر التوتر على جسدها بعنف، وشل عقلها تمامًا، وكأن الأمور تنساب من بين يديها، عضت على شفتها السفلى بغضب حارق؛ فقالت بهدوء مسيطر رغم اهتزاز صوتها: واضح فعلًا إن الوقت مش مناسب، لازم تفكر كويس وتقرر قبل ما تاخد خطوة مهمة زي دي، أنا هسيبك دلوقت ونتكلم في وقت تاني، كادت أن ترحل، لكنه قال بصوت كالنار والجليد دون أن يستدير:
- عندي مشاكل كفيلة إنه مش تخلي بشر عادي ممكن يستحملني يا أهلة، منهم الكارثة اللي أنا فيها دي.
قالت بقوة رغم الضياع التي يتضاعف داخلها:
- كلنا عندنا مشاكل, بس بأيدنا نسهل الأمور ونستحمل بعض.
استدار إليها عمر، قائلًا باستهزاء:
- أنت مشاكلك إيه؟ أنت هتبقى أكبر مشاكلك ارتباطك بواحد زيي.
ردت أهلة بحسم:

- وأنت هتكون أكبر مشاكلك لو خسرتني للنهاية، سيبك من الكبرياء اللي أنت فيه، عينك دايمًا صاحبتي، وبتقول عكس تصرفاتك اللي ملهاش مبرر.

قال عمر بعصبية ونبرة مدانة: أنتِ شايفاني كدة، تصرفاتي ملهاش مبرر.

ردت أهلة قائلة بقوة قاصفة:

- لا مشاكلك اللي بسببها تبعدني عنك هي اللي ملهاش مبرر.

همس بحنق مشتعل:

- مش قادرة تاخدي قرار صح في حياتك؟

ردت أهلة بنفس نبرته:

- وأنت كمان مش بتاخد قرارات صح.

همس عمر بعمق آثار رجفة في أطرافها:

- والله ممكن بس على الأقل باخدها!!

وكأن بين عينيهما حوارًا ناريًا صاعقًا لا يصل صوته إليهما، ثم رحلت في صمت، ولكن عيناه تحكي الكثير، زفر عمر بعنف، يشعر أنه يغرق داخل رمال متحركة لا يمكن التخلص منها.

*****

كانت لا تستطيع التحدث فقط، وجهها شاحب للغاية كالأموات، لم تذق طعم النوم منذ فترة، جلست على الأريكة المجاورة بلامبالاة؛ فقالت صفية بقلق:

- مالك يا أهلة!!!

لم تستطع أهلة الصمت أكثر من ذلك؛ فانفجرت باكية بعنف؛ فاحتضنتها صفية ظلت تحتضنها وهي ترجف بين يديها في عنف؛ فقالت صفية بإشفاق على هذا الثنائي الكئيب: لو فاكرة إنه مش بيتألم زيك تبقي غلطانة.

قالت أهلة بانفعال:

- طب ليه بيعمل ليه كدة!!!

قالت صفية بألم:

- الظروف اللي اتعرض لها وبالأخص الظروف اللي بيمر بيها حاليًا

صعبـة!!
هتفت أهلة وهي تبكي بشدة:
- عمر يعتبر رمي الدبلة في وشي يا طنط وسابني لما رحت أزوره.
قالت صفية بحزن على ابنها الوحيد:
- هـو مـش حابـب يظلمـك معـاه، مسـتقبله مجهـول لـو فكـر غـير كـدة يبقـى أنـاني، كـدة بيظلمـك.
هتفت أهلة بحدة غير مقصودة:
- منتهـى الأنانيـة الـلي بيعملـه ده, حتـى أنـتِ يـا طنـط بتتكلمـى زيـه، والظـروف والأعـذار مينفعـش يتقـال بينـا مـش في القامـوس أساسًـا الـكلام ده لأي حـد يقولهـا، لمـا يحـب يخلـع بشـياكة.
قالت صفية بحنان بالغ:
- يخلـع بـس إيـه يـا بنتـي، الموضـوع أكبر مـن كـدة، الصبر شـوية يـا بنتـي وكل حاجـة هتتعـدل، قومـي اغسـلي وشـك وتعـالي نطلـع البرنـدة نـشرب الشـاي ونحـكي شـوية.

****

- يلا يا عمر عربية الترحيلات برة عشان هتطلع على النيابة..
كان هـذا أحـد الضبـاط المسـؤول عـن هـذه المأموريـة بعـد إعـادة التحقيقـات، قـال وكيـل النيابـة: هـل لديـك أقـوال أخـرى؟
قال عمر باقتضاب:
- لا.
رد وكيل النيابة قائلًا بهدوء:
- اكتـب يـا بنـي إخـلاء سـبيل المتهـم عمـر، ثـم اكتـب اسـمه بالكامـل، بضـمان محـل إقامتـه، تقـدر تتفضـل دلوقتـي.
كاد أن يغـادر عمـر المـكان، ولكـن وكيـل النيابـة همـس قائـلًا بنـبرة ودودة، متأمـلًا ذقـن عمـر وشـعره الـذي اسـتطال مؤخـرًا:
- عايزيـن نقعـد سـوا شـوية، هـرن عليـك نتقابـل اتفقنـا، ابتسـم عمـر بـبرود مصطنـع، ثـم هـز رأسـه موافقًـا، وغـادر المـكان.

****

- كنت عايزة أعمل مع حضرتك حوار بسبب قضيتك اللي قلبت السوشيال ميديا،
التفت عمر نحو فتاة فائقة الجمال بكل ما تعنيه الكلمة؛ فتحركت يديه يعدل من خصلات شعره التي استطالت فترة تواجده في السجن، ثم قال بصوت رقيق:
- حضرتك كنت متابعة أخباري؟
قالت الفتاة بتلقائية:
- لحظة بلحظة يافندم على السوشيال.
اتسعت ابتسامته الجذابة المهلكة، ثم رفع أصابعه؛ ليزيح خصلات شعره بعفوية هامسًا بصوت هادئ: يا بختك.
رغم نظرة عينيها المبهورة بهذه الوسامة الملفتة للنظر بعض الشيء، إلا أنها همست باتزان:
- ليه؟
قال بصوت ذي معنى:
- أصل إحنا مكنش عندنا في السجن سوشيال....!!!
ضحكت الفتاة بصوت عالٍ... بينما على الجانب الآخر كان سمير يبحث عن عمر؛ لينتهي من الإجراءات الروتينية المعتادة، ولكن تميز غيظا حين وجد الهيمان العاطفي المحيط به هو وتلك الشقراء؛ فاستشاط غاضبًا، ثم أمسك ذراعيه؛ ليلتفت إليه قائلًا بغضب حانق: أروح أقول لخطبيتك دلوقتي وأفركشها؟!
انزعج عمر، ثم التفت خلفه؛ ليهشم أنف هادم اللذات هذا، فقال عمر بغيظ:
- إيه الفصلان ده ياعم.
قال سمير بحنق:
- يا بني اتقِ لله وقت فرحك قرب وبتعاكس في خلق الله،
ثم أخذه نحو البعيد دون أن يستأذن المغادرة.

*****

وقف معاذ في أحد غرف المشفى يتفحص نتيجة التحليل؛

ليشير إلى عدة ملاحظات، مخاطبًا نورهان، ثم قال بروتينية:
- تمام هنعمل العملية، جهزي غرفة العمليات النهاردة.
ردت نورهان بحماس : حاضر يا دكتور.
قالت أخت الفتاة بنبرة مقلقة رغم حدة صوتها:
- خير يا دكتور، أختي هتكون كويسة؟
رغم أنها تبدو فتاة جيدة المظهر، لكنها تخفي جمالها، مرتدية قناع الخشب؛ ليصبح شكلها أقرب للصبي..
رد معاذ بعذوبية:
- بإذن الله هتكون كويسة، عايزك تدعيلها، والدتك تكون متواجدة عشان تمضي على الإقرار، يخص العملية.
قالت الفتاة بترفع، محاولة اصطناع القوة:
- لما أعرف العملية عبارة عن إية بالضبط، أنا مش جاهلة، ومن حقي أفهم إيه اللي هيحصل لأختي.
ابتسم معاذ رغمًا عنه، ثم هتف ببساطة:
- حاضر، بصي خلاصة العملية عبارة عن نقل نخاع العظم، وده بيصنع كرات الدم وله وظائف مناعية، وفي بعض الأمراض بيتدمر، وبيحتاج نقل نخاع من شخص آخر، والعملية اللي هنعملها اسمها enob noitatnalpsnart worram ....!.
رغم أنها لم تفهم أي شيء مما قاله، ولكنها تخلت عن صلابتها، قائلة بقلق:
- والعملية دي خطيرة؟
رد معاذ بنبرة مطمئنة:
- لأ، بإذن الله عايزك تدعيلها بس، وإن شاء الله تكون بخير.
ثم انحنى نحو الصغيرة، قائلًا:
- كريستين صديقتي، صح كريستينا.
همست الصغيرة بطفولة:
- أنت شكلك حلو، أصغر من أنك تكون دكتور.
رد معاذ بانفعال عاطفي:

- وأنت جميلة أصغر من أنك تكوني مريضة.
قالت نورهان باندهاش بعدما خرجا من الغرفة:
- مش غريب يا دكتور لحد قبل ساعة كنت رافض العملية دي؟.!!!
رد معاذ قائلًا بلطافة:
- في العمليات الصعبة بيكون واجبنا نتخذ قرار مهم، ونترك الخط الفاصل بين الحياة والموت، المهم إن في الحياة الحقيقية مش مجبرين نتعامل بنفس المبدأ، لازم ناخد القرار ببال هادي، وعقل صافي تمام.
رفعت حاجبيها بابتسامة، ثم رمقته بإعجاب صريح، هامسة:
- أنت هتكون أب كويس وطيب جدًا.
هتف معاذ بمشاكسة:
- لو هتكوني أنت الأم ليه لا، كمان نبدأ نخطط من الليلة لو حابة.
زفرت نورهان بعنف: أووووف، أووووف، أنت ليه عايزني أكرهك أكتر من ما أنا بكرهك أساسًا، من ساعة الفخ اللي وقعتني فيه»تقصد أول مرة التقت به».
رد معاذ بجمود:
- الكره عندي أفضل من الحب على الأقل مش مزيف.
هتفت نورهان بمنطقية تتحداه:
- بس في الآخر كره.
قال معاذ بإيجاز حتى ينهي هذا الحديث الممل:
- الكره عاطفة زي الحب، عشان كدة بثق فيه.

******

عندما انتهى معاذ من العمل، اتجه نحو البناية التي يقطن بها، ثم صعد إلى الطابق الخاص به، وهو داخله يفكر كيف حالها الآن؟ أيمكن أن تكون هربت مرة أخرى، فتح باب الشقة، ثم توقف يتنحنح بخشونة كإشارة لتواجده في المكان، ولكن وجد الشقة هادئة تمامًا خالية من أي أحد، قال باستنكار هادئ، وكأنه يحدث ذاته:غروب؟؟؟؟ تفحص الشقة بأكملها؛ ليجدها فارغة، جلس معاذ إلى أقرب أريكة وداخله يشعر بإحباط ووجوم، يفكر كيف يمكن العثور عليها، رفع

رأسه للأعلى كان يجب أن يعتني بها أكثر، كاد ليذهب نحو الخارج، مفكرًا ماذا يفعل؛ ليصطدم مما يراه، دقق النظر أكثر ليجد حذائيها الرياضيين ظاهرين من خلف المنضدة، وهي مختفية تجلس أرضًا، وتقوم بتناول الطعام الملقى بجانب الأريكة، فغر معاذ شفتيه بصدمة، قائلًا بذهول:

- غروب أنتِ بتعملي إيه؟

ردت غروب ببراءة:

- باكل جعانة.

نظر إلى الأعلى بيأس، ثم أخذ نفسًا عميقًا؛ ليقول بهدوء:

- غروب ده أكل القطة، قومي هجبلك أكل يصلح لكِ كإنسانة.

ابتلعت ما بقي في فمها، ثم نفضت يداها وكأنها شبعت؛ لتقول بطفولة:

- الأكل ده طعمه حلو.

ابتسم رغمًا عنه لمظهرها الطفولي الرائع، وشعرها الأشعث الذي يثير جنونه رغما عنه، وتابع ضاحكًا بخفة:

- طب قومي، نشوف أكل طعمه حلو.

ثم تابع قائلًا بارتياب:

- أنا كنت بنادي عليكِ.

قالت غروب ببساطة:

- كنت هطلع أكلمك لما أخلص أكل.

رفع معاذ رأسه للأعلى بصبر، ثم دلف إلى المطبخ؛ ليقوم بإحضار الطعام، ثم وضعها فوق الطاولة، قائلًا:

- اتفضلي، أنا كنت جاي أطمن عليك وراجع تاني.

قامت غروب من مكانها بفزع، قائلة بارتجاف:

أ- نا عايزة أخرج من هنا..

جلس معاذ فوق الأريكة، قائلًا برفض تام:

- مش هينفع تيجي معايا يا غروب، أنتِ مش هيعجبك أجواء المستشفى.

هتفت بطفولة أثارت تعاطف معاذ رغما عنه:
- ومش عاجبني أجواء الشقة وهكون لوحدي..
وضع معاذ ذراعيه الاثنين فوق ظهر الأريكة؛ ليأخذ نفسًا بقلة حيلة, ناظرًا نحوها أنها تبدو كطفلة صغير للغاية وجميلة، يشعر بالغرابة من نفسه لهدوئه في التعامل معها وكأنها طفلته، وفي نفس الوقت قلق من أدخلها المشفى، بعد أن هدأت الأمور وزال التوتر بحكم وضعه، ولكن حطم تلك القاعدة، ضاربًا المنطق عرض الحائط، حينما قال بحيرة مذهولًا من تصرفاته:
- موافق.
صفقت بجذل قائلة بارتياح:
- يلا بينا.
وعندما توقفت السيارة أمام المشفى استدار إليها معاذ بكامل جسده، قائلًا بجدية وتحذير ورجاء خفي:
- بصي بقا أنا عندي حالة مهمة هروح أبص عليها وأرجعلك قبل ما يشوفنا نائل وياسين عشان عايزين نهرب منهم، أنتِ خليكي في العربية متتحركيش لحد ما أرجع علطول تمام.
أومأت برأسها موافقة كطفلة وديعة مربعة يديها بأدب، رغم عدم ارتياح معاذ ولكن ليس لديه حل آخر..
كان نائل وياسين يتحدثا أمام بوابة الا ستقبال، فقال نائل بإيجاز:
- خد بالك من الحالة، تخصني جدًا .
هتف ياسين بتهذيب: تحت أمرك يا دكتور.
نظر نائل نحو البعيد؛ ليجد فتاة تدور بالمكان بشكل رائع يشبه راقصات الباليه، والباب الخلفي للسيارة مفتوح على مصراعيه، زمجر باستنكار، ثم هتف بخشونة:
- مش دي عربية معاذ مين البنت دي؟
تعرف ياسين على هوية الفتاة فور رؤيته وجهها، ولكنه قال كاذبًا:
- مش عارف.
اقترب نائل إليها، ثم قال بنبرة ساحرة:

- أهلين يا آنسة، أنت مين، وبتعملي إيه في عربية معاذ؟
لم تكف غروب عن الحركة، فقالت وهي تدور وتتحرك بحرية:
مش هقولك عشان قالي عايز يخلص حالة مهمة، ونهرب من نائل وياسين.
همس نائل بامتعاض كأنه رأى فأرًا ميتًا.
- نائل كدة بدون ألقاب هو قالك كدة.
أومأت وهي في قمة السعادة دون أن تتعرف على هوية الرجلين.
وضع ياسين كفًا فوق الآخر بقلة حيلة، قائلًا باستسلام خافت:
- أنت كارثة، فعلًا زي ما قال معاذ.

*****

في أحد الأيام استطاع معاذ إيجاد سكن خالٍ قريبًا منه؛ لتقطن به غروب، وهو في نفس البناية في الطابق الأعلى؛ ليتفق معه قائلًا:
- اسمعي أنا حاجزلك مكان تسكني فيه لحد ما تشتغلي وتبقي تسددي اللي عليكِ.
قالت غروب باندفاع غريب وكبرياء:
- مستحيل أقبل حاجة زي دي.
نظر معاذ إلى الأعلى بانزعاج مفكرًا، ثم قال بملل:
- عندك حل تاني.
قالت ببعض الألم ونبرة صوتها تلونها الاعتذار:
- أنا حاسة إني مسببة إزعاج.
قال معاذ بجراءة ملفتة، رغم سخريته المقيتة:
- أكيد بس هعمل إيه، أنت بنتنا ولازم نقف جنبك.
نظرت إليه باستعلاء وترفع هاتفة:
- وأنا مش عايزة منك مساعدة.
نظر إليها من أعلى إلى أسفل بسخرية، ثم تجاوزها متجاهلًا كلماتها مما جعلها تشعر بالغيظ أكثر، مرت الكثير من الأيام الماضية وهو يتذكر خروجه كل يوم مع هذه الفتاة وكأنها حبيبته، فقد تقربا من بعضهما أكثر من اللازم؛ لدرجة أنه يشعر بالوحدة حينما يبتعد عنها

قليـلًا.

******

دلـف معـاذ نحـو المكتـب؛ ليجـد نورهـان تقـوم بإعـداد بعـض الملفـات التـي تخـص المـرضى؛ فابتسـم قائلًا:

- ممكن أساعدك في الملفات.

ردت نورهان بسرور مرحب:

- ياريت.

هتف معاذ بلؤم:

- بس فيه مقابل !!؟

تأففت نورهان بقنوط، ثم قالت بيأس:

- كنت عارفة إنك مش هتعمل حاجة لله، عايز إيه.

انحنى نحو أذنيها هامسًا ببضع كلمات، ردت نورهان بتبرم:

- كان قلبي حاسس أمته؟

ابتسم معاذ بعبث مشاكس:

- النهاردة بالليل قولتي إيه؟!

قالت نورهان بقلة حيلة: موافقة

****

على متن الجبل الذي يعد ارتفاعه يكشف المدينة بأكملها.

قالت غروب بنبرة عابثة:

- متأكد أن مفيش حد هيتصل يقول إن فيه حالة زي كل مرة؟

رفـع معـاذ رأسـه عاليًـا ضاحـكًا بقـوة، فابتسـمت غـروب رغـمًا عنهـا، مبهورة بضحكـة الرجولـة الخشـنة، وملامـح وجهـه التـي صغـرت في السـن عـن أول مـرة رأتـه، ثـم نظـرت أمامهـا عـلى الفـور حتـى لا يلاحـظ تعابـير وجههـا، وعندمـا خفـف مـن ضحكـه، قـال بلطافـة ورقـة بالغـة: دكتـورة نورهـان هتاخـد مـكاني الشـفت ده، لـو حـد سـأل عليـا هتغطـي عليـا عشـان أكـون معـاكي وقـت أطـول.

أخفضت وجهها خجلًا، وأصبح وجهها يشبه حبة الطماطم.

قطع معاذ هذا الصمت الممل حين قال بصوت هادئ ناعم:

صحيح حلوة أوي السلسلة الغريبة دي.
نظرت غروب نحو السلسلة التي تشبه بطاقة الجنود للتعرف على هويتهم، ثم قامت غروب بفتحها؛ لتستخرج منها صورتها أثناء طفولتها، أخذها معاذ؛ ليتطلع إليها بعاطفة جياشة، عندما وجدته استغرق أكثر من الوقت اللازم، مدققًا فيها، ابتسمت بطفولة قائلة بتساؤل:
- حلوة صورتي؟
همس معاذ بانفعال عاطفي:
- بس الأصل أحلى.
ثم قلبها الجانب الآخر؛ ليجد تاريخ ميلادها فقال بتفكير:
- أنت كبيرة بقا وبالنسبة لتاريخك؟
أومأت برأسها مبتسمة بخجل:
- أها حتى اتولدت في نفس قرية والدتي آل هاشم، بس اللي أعرفه أنهم كانوا رافضين وجودي تمامًا، وبعدها أصبح دخول والدتي مرفوض في القرية، عشان اتولدت هو منطقي ده رغم إني أسمع القرية فيها بنات كتير.
انتهت كلماتها ببعض الحقد وهي تتلاعب بحفنة من التراب بواسطة عصا،
بينما معاذ بمكان آخر يفكر في كلمات عفوية، حتى نسي أن يغلق فمه من فرط الذهول الذي يشعر به، طال الصمت عدة لحظات، وعندما وجد صوته، قال بخشونة مصطنعة: ممكن نمشي، عندي حالة في المستشفى، ولازم أكون هناك.
اندهشت غروب من تعابير وجهه التي تغيرت فجأة، وحده نبراته الجدية؛ فقالت بإحباط خفي: تمام.

****

كان هناك رنين متواصل، وعندما زفر قام بفتح الهاتف؛ ليأتيه الرد ناقمًا هاتفًا بتبرم: أنت فين يا بني، أتاخرت وأنا جعان.
قال سمير بهدوء:
- بجيب الأكل وجاي في الطريق.

رد عمر قائلًا باقتضاب:
- طيب بسرعة عصافير بطن بتستغيث.
- مسافة الطريق يا باشا.
صعد سمير نحو الأعلى وهو يحمل الطعام، ثم قام بضغط الزر على الجرس؛ لتخرج إلية امرأة وبجانبها أطفال يصرخون، وكأنهم ينتظرون أحد؛ فقال سمير بصوت معتذر آسفٍ:
- بعتذر منك، واضح إني أخطأت في العنوان.
فقالت السيدة بخفوت:
- ولا يهمك..
كاد لينصرف، ولكن صرخ الطفل المسكين بأنه جائع ويشير نحو الحقائب التي يحملها سمير، ولكن لم يتردد لحظة، وهو يعود ليعطي الحقيبة التي تحتوي على الطعام للمرأة، مما جعل المرأة ترفض بشدة وعزة، رفع سمير يديه يمشط بها شعره بتوتر قبل أن يقول مبتسمًا بحرج:
- لا عادي يافندم، الأكل دي زيادة.
وقبل أن تتحدث مرة أخرى ناول الأكياس إلى الأطفال، ثم انصرف نحو الطابق الأعلى؛ ليقوم برنين الجرس، قائلًا بتأمل:
- يارب يطلع الدور ده.
ولم يكن يطرق الباب مرة ثانية؛ ليجد عمر، فتح الباب على الفور متفحصًا ما بيديه، قائلًا بتلذذ:
- فين الأكل...
تجاوزه سمير؛ ليجلس على أقرب أريكة، ووضع ساقًا فوق الآخر قائلًا بتذمر:
- أنت قولت إن شقتك في الدور الرابع، وطلعت الخامس طب إزاي؟
قطب عمر جبينه، قائلًا باستنكار:
- أنت اتلغبطت في الشقق.
ابتسم سمير قائلًا ببساطة وهو يتطلع حولها:
- حاجة زي كدة، بس الشقة بتاعتك حلوة، ربنا يباركلك في عش الزوجية.

شرد عمر نحو البعيد؛ فأول شيء يتطرق في ذهنه كانت هي إن كانت لا تبارح ذهنه من الأساس كما يود أن تشاركه كل شيء في حياته، وليست هذه الشقة فقط، فاق عمر من شروده مستوعبًا الأمر؛ ليقول متذكرًا:

- الأكل فين يا سمير.

أومأ سمير رأسه، وهو يحك أذنيه هامسًا:

- هو بصراحة كان من نصيب صاحبه، بس إحنا ممكن نطلب دليفري.

ضحك عمر ضحكة مستنكرة خشنة قبل أن يقول بجمود:

- نصيب إيه ياروح خالتك، أنا جعان، دليفري إيه في الوقت ده.

قال سمير مغيرًا الموضوع بتذمر:

- أكيد فية دليفري، وبعدين أنت عايز تحسسني إن الشقة دي مفيهاش أكل خالص.

رمقه عمر بنظرة نارية غاضبة، ثم اتجه نحو المطبخ؛ ليخرج علبة جبنة وخبز مظهرهما لا يصلح لكائن حي، فقال عمر بسخط:

- دة اللي عندي ..أعمل إيه.

اخذ سمير قطعة من الخبز، قائلًا بقناعة:

- ربنا هيكرم، شوية كدة وننزل مطعم.

قال عمر مشجعًا باستنكار وقلة حيلة:

- ياريت، بس أنت صحيح اتأخرت ليه؟.

جلس سمير نحو المقعد المتواجد أمام طاولة الرخام الخاصة بالمطبخ مستندًا:

- كان فيه حادثة في مستشفى الغروب، وكنت بحقق في القضية..

عبس وجهه عمر بتلقائية، ثم قال بحذر:

- ومين النبطشي اللي كان هناك؟

قال سمير ببساطة غافلا عن ملامح عمر الفضولية: مشفتش غير دكتور معاذ، ودكتور ياسين كان لسة خارج.

رد عمر بانزعاج وهو يلعب بالكأس الذي أمامه:

- مش عارف يا سمير مش برتاح للبني آدم اللي اسمه معاذ د ليه.

قال سمير بدهشة:

- ليه ده شكله هادي وفي حاله.
صاح عمر قائلًا بسخط:
- ما هو المشكلة الهدوء ده، أنا مش بحب الناس الغامضة اللي مليانة ألغاز.
صمت عدة دقائق، ثم قال بارتياب:
- عايز منك خدمة.
كان سمير يفحص بعض الأوراق الموضوعة فوق الرخام، واضعًا ساقه فوق الأخرى، قائلًا بتكاسل:
- أطلب ؟؟!
هتف عمر بتبرم:
- عايزك تعمل تحريات عن دكتور معاذ ده, بيقولوا عليه قناص مش عارف قناص إزاي وهو دكتور، أنا عايزك تعرفلي تحركاته أول بأول.!
ضحك سمير بخفة، ثم همس بخبث:
- شاغلك أوي الولد ده يا عمر.
قال معاذ بغيظ:
- أسمع الكلام وأنت ساكت.
قال سمير ببساطة:
- ولو أن أصغر أمين شرطة يقدر يعملها، بس حاضر عيوني الاتنين، ولو إني عارف أن الواد ده مش غرضك، وأن فيه حد تاني كدة، انهى كلماته بغمزة ونبرة ذات معنى...
رفع عمر عينيه بتحذير، قائلًا بنبرة خطيرة للغاية:
- الموضوع يكون سر بينا، طالما عارف وملاحظ السبب لحد ما أرجع الداخلية.
قال سمير بشقاوة:
- أوامرك يا باشا. .
سمع سمير جرس الباب؛ فقال عمر باستفهام:
- أنت مستني حد؟
قال سمير ببلاهه: مش عارف دي شقتك أنت، قوم افتح.

فتح عمر الباب؛ ليجد رجلًا عجوزًا يحمل صينية مغطاة بالورق الحافظ للطعام يصدر منها رائحة شهية للغاية؛ فقال عمر باستنكار:

- خير يا فندم؟

قال العجوز بسرور:

- فرح ابننا البكر وده فرحة ليلة الزفاف.

أخذ عمر الصينية من يديه بذهول لثقل وزنها، ثم قال بهدوء:

- مبارك.

انصرف الرجل وخلفه أكثر من صبي يحملوا نفس الطعام، أغلق عمر الباب بأحد قدميه ولعابه يسيل إلى داخل هذه الصينية:

- سمير تعالى يا ابن الفقرية شكلنا هناكل النهاردة، وضع عمر الصينية فوق الرخام، ويكشف الورق من فوق الطعام ليجد «كبسة»؛ فقال سمير بتعجب:

- مش بقولك ربنا بيكرم.

*****

- عالم قاسي القوة بيفترس الضعيف.

همس بها معاذ بتعب هذه الجملة على مرتفع الصخور؛ فقالت غروب باندهاش:

- يعني إيه؟!

تجاهل معاذ هامسًا:

- ده مكاني السري، أفضل منظر في المدينة.

تطلعت غروب حولها بذهول:

- يالروعته!

نظر معاذ نحو البعيد، قائلًا:

- بصي على المنظر ده، تكور النجوم في مكان واحد.

قالت غروب بحزن ويأس:

- نفسي أجرب شعور الوصول للقمة، للأعلى مشيرة نحو النجوم، أفضل من هنا بكتير، أفضل من القاع اللي إحنا أساسًا فيه.

قال معاذ بتعاطف:

- حـاولي تخرجـي مـن الدائـرة وتكـوني معـارف، تسـتعدي أنـك تعمـل أي حاجـة في سـبيل أحلامـك، صمـت معـاذ عـدة ثـوانٍ، ثـم هتـف قائـلًا:
- ركزي على أحلامك...
تسألت غروب بهدوء:
- وأنت عندك أحلام؟
قال معاذ بنبرة مقتضبة:
- معنديش أحلام.
فقالت بجرأة بعض الشيء:
- كلمني عن حياتك.
قال معاذ بسخرية مقيتة، وهو ينظر نحو البعيد:
- مش هحب أتكلم؛ لأن مفيهاش حاجة ممكن أفتخر بيها.
شعرت بالأسى؛ فقالت غروب: لاقيت السلام الداخلي.
نظر إليها في عمق عينيها، قائلًا بصوت عذب رقيق هادئ:
- لاقيتك أنتِ.
قالت بكبرياء طفولي للغاية:
- بس أنت قولت إني مش النوع اللي بتفضله.
تحسس معاذ مؤخرة رأسه، قائلًا بمزاح رقيق:
- أوقات الواحد لما يبقى جعان بيبقي مش عارف هو بيقول ايه..
أخفضت غروب وجهها بخجل، ثم رافقه صمت تام.....

******

في أحد الأيام...
كانـت أهلـة تقـضي اليـوم مـع صفيـة «والـدة عمـر» كـما اعتـادت منـذ الصغـر، عـلى رغـم مـن عـدم وجـود علاقـة قويـة بـين العائلتـين إلا في إطـار العلاقـة الرسـمية، ولكـن أهلـة تعلقـت بهـا لشـدة حنانهـا الـذي لم تنجـح بـه والـدة أهلـة، كانـت تتحـرك بحريـة داخـل الشـقة، وبعـد الانتهـاء مـن عمـل الطعـام قامـت أهلـة بالتوجـه نحـو المرحـاض؛ لتغسـل وجههـا، ثم اتجـة نحو الـرواق؛ لتعـدل مـن مظهرهـا أمـام المـرآة، كادت لتدخـل الشرفـة الخاصـة بالمنـزل، ولكـن أوقفهـا جـرس البـاب, اتجهـت لتفتـح البـاب؛ فاصطدمـت

عندما رأت عمر المستند جانب الباب، لم تره منذ اللقاء الكارثي بينهما لرفضه الدائم الالتقاء بها, أصبح نحيلًا للغاية، واستطال ذقنه والإرهاق بادٍ على معالم وجهه, من الواضح أنه لم يأكل سوى ما يكفيه للتحدث والسير على قدمه، وكأنه يتعمد إيذاء نفسه بشتى الطرق.

قالت أهله بنبرة يلونها بعض الحنين:

- عمر.

تشبث ذراعها بإطار الباب، ثم قالت مبررة وجودها بكبرياء:

- أنا مش جاية عشانك على فكرة, طنط وحشتني وقولت أطمن عليها، وأنت أساسًا مش بتيجي هنا خالص؛ لأني هنا علطول.

أنهت الجملة الأخيرة بصوت مرتبك متوتر كمراهقة تنتظر حبيبها منذ الكثير، ابتسمت عيناه رغم تعابير وجهه الجامدة التي لا تنم على شيء، وهو يراها واضعة يد نحو جانب الباب، واليد الأخرى نحو مقبض الباب، بحيث لا يستطيع أحد المرور، بينما ارتفع حاجبيه بتعاطف، ثم همس بنبرة خاصة معتادة بينهما:

- وأنا مسألتكيش أنتِ هنا ليه، مكانك وتشرفي في أي وقت.

قالت بنبرة حزينة هادئة متحدية:

- ما أنا عارفة شكرًا.

هذه المرة ابتسم حتى ظهر طابع الحسن، ثم همس بعمق، آثار رجفة في أطرافها:

- طب إيه مش هدخل؟!

فاقت أهلة من الهيمان الذي يحيطها عندما تلتقي به، وعيناها تطلع بوسامة وجهه الخشن الحزين بعض الشيء مؤخرًا، ثم قالت بتوتر حاولت إخفاءه رغم إحمرار وجهها:

- اتفضل طنط عملت الأكل, تحب تاكل, شكلك تعبان، ومكلتش

رد عليها عمر باقتضاب:

- لا، شكرًا.

ثم تركها متجهًا نحو غرفته، ظلت واقفة لا تتحدث بثمة كلمة فقط، ترتجف شفتاها بعنف فاضح، تحاول جاهدة التمسك حتى لا تنهار،

وتصبح مثيرة للشفقة، وهي لا تود هكذا خاصة أمامه عمر، شعرت بيد حانية ممتدة على ذراعيها برفق ولين، قائلة بمواساة وإشفاق:
- تعالى يلا يا أهلة الشاي برد!
عقلها يأمرها بمغادرة المكان على الفور، وقلبها اللعين الذي ترضخ له كل مرة، يأمرها بالانتظار بجانب حبيبها رغم تعقيد علاقتهما الميئوس منها، في أقل من دقيقة قد قررت واتجهت نحو الشرفة، كان عمر يغير ملابسه, ثم سمع الباب يدق؛ فقال بهدوء:
- ادخلي يا ماما.
قالت صفية بعتاب:
- إيه اللي أنت عملته ده, كانت فيه مقابلة أفضل من كدة تقابل بيها أهلة.
شعر عمر بالارتباك وهو يلتقط أي شيء يقع في يديه:
- يعني أعمل إيه، أنا مش حابب أقعد برة عشان مسببلهاش إحراج.
قالت صفية بخبث:
- يا سلام بذمتك الكلام ده من قلبك.
هتف عمر ببرود مضطرب:
- أها.
تنهدت صفية بقلة حيلة قائلة:
- للأسف عينك دايمًا واقفة ضدك، أنت هتموت من جواك, كفاية التوتر اللي أنت فيه دلوقت.
ثم تابعت بحسم:
- مستنياك برة، يلا أوام، ثم أغلقت الغرفة دون أن تعطي له الفرصة للتحدث،
ارتشفت أهلة من الفنجان، بينما هي شاردة الذهن باهتة الملامح حزينة للغاية؛ فقطعت صمتها الحزين صفية حين قالت برقة:
- بقيتي أحسن دلوقتي؟
همست أهلة بنبرة باهتة:
- يعني الحمد لله.

جلست صفية بجانبها هاتفة بفضول:
- قولي بقا إيه كان مزعلك كدة.
قالت أهلة وهي ترتشف من كوب شاي بسخط ناقم:
- وإيه اللي يفرح يا طنط , فيه عريس متقدم والبيت كله مصمم عليه.
كاد عمر أن يطرق على الزجاج كإشارة للدخول، ولكن جسده تسمر وتصلبت عضلاته, فقبض على يديه بشدة؛ فبرزت عروق قبضته بشدة, كبت غضبه الحارق الذي يشبه البركان سيندلع بعد دقائق مهدد بانفجار عنيف.
فقالت صفية باستنكار:
- وأنتِ عملتي إيه!؟
- ما تردي.
جاء صوت عنيف ساخر مهووس من الخلف:
- مبارك.
الانتفاضة القلبية المعهودة التي تحدث لها لحظة وجوده تجعلها غير مستقرة نفسيًا أبدًا، تحقد عليه بسبب كل ذلك الحب اللعين الذي يحمله قلبها له، صمتت أهلة تتنفس بسرعة وعنف، وعندما وجدت الصمت عم المكان، فجأة رفعت عينيها نحوه بفضول لتصطدم بنظرة عينيه المخيفة، تشبه السواد كجناح غراب في الظلام, تبدو عنيفة منذرة بالشر تلونها شراسة وانحراف فطري كما تحب, ثمة شبح خافت خيم على هذه الابتسامة التي تعرفها جيدًا فعكرها، بينما هو مستاء من برودها؛ فقال عمر بغيرة فاضحة:
- لسة على فركشة خطوبتنا أيام يا هانم، وجايه تعرفي أمي أنك هتتجوزي, لو حابه توصلي الرسالة؛ فهي وصلت خلاص.
قالت صفية مدافعة بتفهم:
- لا يا حبيبي أنت فاهم غلط.
قاطعها عمر قائلًا بحزم: بعتذر منك يا أمي، بس مش حابب تدخلي في حاجة تخصها، زي ما أنا بالضبط مش حابب أدخل في حاجه

متخصنيش.
أرسلت له أهلة نظرات تفيض الكره والرفض، بينما هو يبادلها النظر باستياء, كاد ليرحل قبل أن يرتكب جريمة قتل؛ فوقفت أهلة بعنف قائلة بشراسة وحدة:
- استنى. هنا.
عندما وجدت صفية الأمر كذلك انسحبت نحو الداخل بهدوء، بينما وقفت أهلة أمامه مباشرة؛ فظهر فرق الطول بينهما بوضوح، ترمقه بعينين تفيض بالكره والحقد؛ فقالت بسخرية:
- لو فاكر إني هصدق دور الضحية اللي أنت داخل عليا بيه ده، لا فوق يا عمر بيه, أنت اللي سبتني في عز محنتك، وكأني كنت فترة بالنسبة لك, اخترت الطريق الأسهل, اللي يريحك مني بس بشياكة عشان محدش يلوم عليك.
هز رأسه بسخرية مقيتة باردة جعلها تشعر بالجنون.. أكثر فلم تستطع السيطرة على ضعفها اللعين حين شعرت بغيمة، استقرت في عينيها، فجأة تخاف أن تمطر ويفضح أمرها، فقط عدة دقائق، حتى رحل من أمامها، ثم انفجرت باكية، ولكن دون جدوى. مسحت الدموع الساخنة التي تلسع وجنتها بعنف، ورغم القسم التي عجزت أن تفي به» ألا تسقط دمعة واحدة أبدًا»؛ فأكملت: أنت اتخليت عني, وأنت عارف كويس إن محدش في قلبي غير واحد بس، من المستحيل أن يحل أحد مكانه، بس هو في منتهى الغباء وهيندم, وأنا مش مسامحاه أبدًا.
التقطت حقيبتها وهمت بالخروج، ولكنه أوقفها عمر حين أمسك ذراعيها، قائلًا بصوت متباعد: أنا عملت كدة مكنتش أقدر أسبب لك جرح, أو أكون بتخيله عنك, بالعكس ده منتهى الأنانية إن أربطك معايا، وأنا لسة مش عارف مستقبلي عامل إزاي, حتى لو وافقتي والدك وأهلك مستحيل يوافقوا بواحد مسجون مش عارف هيخرج أمتى.
أزاحت ذراعيها بعيدًا عن مرمى يديه، قائلة بحدة:
- كنت، دلوقتي طلعت براءة، إيه عذرك؟
قال عمر ببعض المنطق والعقل علها تستوعب الأمر:

- أنا واحد مرفود من شغله، مش عارف هيشتغل إيه, هعمل إيه؟ الحياة معايا أبشع مما تتخيلي، أنت فاكراني حجر، وأنا مش حاسس و شايف دموعك اللي مبتبطلش تنزل, كل ده فكراه سهل عليا, أنا مش بنام يا أهلة, وبفكر في حياتي اللي متغلبطة هعمل فيها إيه؟

قالت أهلة بعتاب راجٍ:

- كان ممكن تشاركني مشكالك, بدل ما كنت تبني حواجز بينا وتبعدني عن مساحتك الخاصة اللي عودتني دايما أكون موجودة فيها، بناءً على إيه تاخد القرار ده.

قال عمر بنبرة خاصة تعرفها جيدًا:

- اللي بيحب حد بجد, بيبقي مش عايزه يتألم ولا يحصله مشاكل كتير بسبب الطرف التاني, القرار اللي خدته كان بناءً على أنك متكرهنيش أبدًا بسبب ظروف هتترفض إنها هتكون مترتبة على الأحداث اللي حصلت ليا، واللي هتكوني مطالبة تستحمليها بعد كدة.

قالت أهلة بقوة رغم ارتجاف صوتها:

- ومين قالك إني مش هستحمل؟!

مط عمر شفتيه ببساطة، قائلًا بجدية:

- مجرد الطلب، فرض وقرارك هيكون بدافع حبنا.

نظرت أهلة نحو عينيه بترقب، ثم همست باستنكار:

- وده يضايقك في إيه؟

قال عمر برد صادم صارم:

- فيه إني خايف تندمي, أنا مش عايز أحس في يوم من الأيام أنك وصلت للنقطة دي ساعتها هكره نفسي بجد؛ لأني مكنتش قد اللي فيه, وكل اللي فكرت فيه إني أرضي نفسي وبس.

قالت أهلة بشجاعة رغم انتفاضة قلبها مع كل حرف يهمس به, تبًا له مبررات نفسها تجعل أي فتاة تتمسك بة أكثر, وماذا عن حالها، إذًا كلماته العذبة والعفوية تقتلها ببطء إذا سمحت لنفسها مجرد التفكير في الابتعاد عنه يومًا ما مهما حدث.

ردت أهلة بانفعال عاطفي:

- لا متقلقش مش هندم, إحنا مع بعض من وإحنا أطفال، ومش متخيلة حد تاني غيرك في حياتي, هتكون نهايتي ترضى لي بكدة.
ابتسم رغمًا عنه قائلًا:
- لا.
همست بصعوبة وتشنج قلق:
- طب قلت إيه؟
قال عمر بسرور وسعادة لن يتذوقها منذ فترة طويلة للغاية: موافق طبعًا وأنتِ مسئولة عن قرارك ..!!
في أقل من جزء من الثانية قد أخرجت الدبلتين من الحقيبة، ثم جذبت يديه اليمنى؛ لتضع بها خاتم الخطبة، قائلة بمشاكسة:
- إياك تفكر تخلعها تاني، فاهم.
ابتسم لها عمر بحب رغم القلق الذي يعصف به من الداخل، بما سيترتب عليه الأحداث القادمة، ثم ناولته الخاتم الخاص بها، قائلة بطفولة:
- خد لبسهالي، وبعد أن قام بوضع الخاتم في أصابعه الرفيعة، قال بحذر:
- متأكدة إنك مش هتندمي على قرارك؟
تجاهلت أهلة سؤاله عن عمد، هامسة بعجلة: هتجي تقابل بابا إمتى؟
ضحك عمر بقوة هاتفًا: يا بنتي اتقلي شوية.
قالت بحدة زائفة:
- مفيش تقل انجز..
صمت عمر عدة ثوانٍ يفكر في شيء ما، ثم قال بنبرة مستفزة:
- سيبيني أفكر وأصلي استخارة..
خرجت صفية سريعًا وهي ترى أهلة تقذف الوسائد عليه بوجه أحمر غاضب، بينما عمر يضحك ببهجة اشتاقت لها صفية منذ زمن.

****

في اليوم التالي...

- وأنت عامل إيه يا بني؟
هتف به فوزي والد أهلة وهو يضع صينية تحتوي على فنجان قهوة على الطاولة المجاورة إلى عمر، فقال عمر بارتباك واضح منعكس على حركة جسده الغير المتزنة:
- لحد دلوقت كويس من آخر مرة سألتني فيها يا عمي.
ضحك فوزي قائلًا:
- دايمًا يا بني بخير.
رد عمر بخفوت وتوتر:
- ربنا يخليك يا عمي.
ثم تابع قائلًا دون مقدمات: أنا طلعت براءة.
قال فوزي بنبرة عملية: عظيم ألف مبروك، بس إحنا إيه علاقتنا.
ابتلع عمر ريقه بثقل وهو يستشعر صعوبة الموقف؛ فتنحنح بارتباك قائلًا:
- في الحقيقة أنا حابب أفتح الموضوع القديم خطوبتي أنا وأهلة.
قال فوزي باندهاش كونه يتجرأ فتح موضع ابنته في وضع كهذا:
- وأنت بشتغل إيه دلوقت؟
ازداد الأمر تعقدًا أكثر مما ينبغي؛ فقال عمر بصوت أجش:
- مجرد ما بعض الإجراءات تخلص هرجع للشغل تاني.
أخذ فوزي رشفة من فنجان القهوة مفترضًا:
- وقدر مرجعتش الشغل؟
عبس عمر هامسًا بضيق:
- وإحنا نفترض الأسوأ ليه ياعمي.
قال فوزي باتزان؛ لينهي هذا الموضوع:
- شوف يا أستاذ عمر، أنا هجبلك من الآخر وعلى بلاطة كدة, إحنا معندناش بنات للجواز، لما البنت رجعتلك دهبك، اتكلم عليها ابن الحلال وخطبها، ومفيش عرف ولا دين بيقول إنك تتكلم على بنتي وهي مخطوبة، وأنت أكيد عارف إن الجواز ده قسمة ونصيب.
شعر عمر وكأنه تلقى صفعة على وجهه؛ فقال بخشونة وحدة لم تكن

مقصودة:
- بس اللي أعرفه غير كدة مجرد كلام...و
قال فوزي مقاطعًا مصححًا:
- لا خطوبة، وأنت عرفت، وأنا اللي بقولك بنفسي، ونصيحة مني لك, شيل الخطوة دي من راسك، لما تتجاوز المرحلة اللي أنت فيها.
شعور حارق، نفس غير متزنة، يود أن يقوم بقتل أحدهم الآن علّه يهدأ، اصطنع عمر ابتسامة باهتة لا يوجد بها حياة، ثم ابتسم بضياع دون مرح، قائلًا:
- لعله خير بعد إذنك، ثم انصرف دون ثمة كلمة.

******

وقفت أهلة أمام التلفاز؛ لتحجب الرؤية عن فوزي، قائلة بصرامة:
- ممكن أعرف ليه حضرتك رفضت عمر.
نظر بطرف عينيه، قائلًا بنبرة غير مريحة:
- لازم تعرفي إني عملت كدة لمصلحتك.
فقالت أهلة بنفس النبرة:
- أيوة يا بابا، بس حضرتك لازم تتأكد أن عمر كان بريئًا من الكلام ده، وأكبر دليل على كدة براءته.
قال فوزي بنبرة تحمل في طايتها التهديد:
- ميهمنيش برئ أو لا، اللي أعرفه دلوقتي إنك لازم تسيبي البني آدم ده.
خففت أهلة من حدة نبرتها حين همست بهدوء:
- ليه يا بابا هو عمل إيه عشان أسيبه؟؟
قال فوزي ببرود، وهو يتناول رشفة من الفنجان:
- معملش حاجة، بس مش ناوي أربط بنتي بواحد كان مسجون وملهوش مستقبل.
قالت أهلة بتلقائية:
- حتى لو.. كان قاطعها فوزي مكملًا كلماته بحزم:
- حتي لو برئ أنا مش هجوزك واحد سوابق، أنت مقامك ومقام عائلتك أكبر من أنك حتى تفكري بموضوع زي ده.

ردت أهلة بهدوء مسيطر:
- يعني حضرتك كنت فرحان بيه، وموافق جدًا عشان ضابط في الداخلية، وأول محنة يمر بيها بتطلب مني أسيبه.
قال فوزي بصوت قاتم:
- أيوة وكلام يتنفذ بدون نقاش.
قالت أهلة بتهذيب:
- وأنا مش هنفذ اللي طلبته.
رد فوزي بغضب أعمى:
- أنت بتتحداني يا بنت.
أسبلت أهلة جفنها نحو الأرض، ثم أردفت بحسم:
- العفو حضرتك، بس أنت بتطلب مني شيء صعب أقدر أعمله.
ترك فوزي المكان قائلًا جهوري غاضب: لا، هتنفذي قراري غصب عنك، يا لميس عقلي بنتك، وعرفيها إني محدش هيخاف على مصلحتها قدي.
في أقل من دقيقة اتخذت أهلة قرارًا هي تدرك جيدًا عواقبه، ولم تعط للظروف فرصة؛ لتجعلها تندم على خطوة كهذا.

****

دلف عمر إلى الداخل، ثم أغلق الباب بعنف، ثم قام برمى مفتاح السيارة فوق الطاولة بعنف أمام صفية التي كانت تقرأ في المصحف؛ فاستعاذت بالله، ثم أغلقت القرآن ووضعت على الترابيزة؛ لتجد عمر ينفث السيجارة الذي أشعلها بعنف دون أن يعبأ بالسحابة التي تحيط وجهه، فقالت صفية بقلق:
- إهدأ يا عمر إيه اللي حصل لكل ده.
قال عمر بعصبية ساخطًا:
- زي ما توقعت أبوها رفضني، كنت مستني من راجل بيعاملني كأني سوابق ورد سجون إيه.
أمسك خصلات شعره بقوة، كاد أن يقتلعها من جذورها، وصفية عاجزة من هذه الحالة المجنونة التي تشبه الإعصار الهائج والغضب الهائل الذي سيحرق المكان بأكمله؛ فقالت بحزن وإشفاق على ابنها الوحيد:

- اهدأ يا ابني متقلقش، كل حاجة هتبقى بخير وأفضل.
صاح عمر بغضب أعمى أسود:
- لا يـا أمـي مفيـش حاجـة، بخـير كان لازم وقتهـا أصمـم عـلى موقفـي وأبعـد، أبوهـا بيقـولي متفكـرش في الخطـوة دي دلوقـت فاكـرني همـوت عـلى الجـواز.
قالت صفية بحنان؛ لتهدئة خوفًا عليه من تلك العصبية المخيفة:
- إهـدى شـوية يـا عمـر، أنـت لسـة صغـير، والعمـر قدامـك، وربنـا هيرزقـك، ولازم تتأكـد إن البنـت بتحبـك وعملـت كـدة عشـان تكونـوا لبعـض، أوعـى تحـط عليهـا اللـوم أبـدًا، ومحـدش يـا بنـي بيختـار أهلـه، هـدأ عمـر بعـض الـشيء، وقـال بصـبر:
- عنـدك حـق يـا أمـي نصيبـي ومكنـش لازم أطلـب أكـتر مـن كـدة، خاصـة إن فعـلًا محـدش بيختـار أهلـه، وضعـت يديهـا فـوق شـعره، تربـت عليهـا بهـدوء، ثـم قالـت بيقـين:
- هتدبر وربنا هيحلها من عنده إن شاء الله، تحب أحضر لك الأكل.
همس عمر بهسيس كئيب: شكرًا يا أمي، مليش نفس.
كاد ليغـادر، ولكـن سـمع جـرس البـاب؛ فقـام يفتـح البـاب؛ ليجـد أهلـة تقـف مرتديـة حقيبـة خلـف ظهرهـا وأخـرى بيدهـا؛ فقـال بذهـول:
- أهلة عايزة إيه؟
قالت أهلة بسخط متجاوزها:
بدل ما تقولي: اتفضلي.
قال عمر بجنون:
- تتفضلي فين، إي جو الجنون ده، وإيه الشنطة دي.
تجاهلـت أهلـة كلـمات عمـر المذهـول، ثـم اقتربـت نحـو صفيـة؛ لتحضنهـا قائلـة بحـزن طفـولي: شـوفتي يـا طنـط الـلي حصـلي.
كاد ليقوم عمر، ولكنها وقفت أمامه؛ قائلة بمنتهى الجد والشجاعة:
- لو كنت فعلًا عايز تتجوزني تجيب المأذون حالًا وتعزم والدي.
*****

الفصل السابع

ليلة الزفاف..

في هـذا اليـوم التاريخـي الـذي انتظـر الكثـير مـن المصاعـب لـكي يصـل إليـه مـع حـب طفولتـه، يقـف أمـام المـرآة مرتديًـا حلـة الـزي الشرطـي، يتناقـض اللـون مـع بشرتـه الخمريـة، حامـلًا بيديـه باقـة ورد حمـراء تطابـق لـون الميكـب المزيـن وجـه أهلـة زوجتـه الجميلـة، اقـترب نحوهـا؛ ليتأمـل فسـتان الزفـاف الأبيـض الـذي يحتضـن جسـدها الصغـير وطرحـة الزفـاف الممتـدة إلى آخـر الغرفـة، والتـاج الـذي يعلـو رأسـها، وكأنهـا ملكـة متوجـة، تقـف بـكل بهـاء وكبريـاء، رفعـت أهلـة وجههـا المبتسـم بـإشراق، وعيناهـا تلمعـان بإعجـاب صـارخ، لم تسـتطع إخفـاءه حـين رأت عمـر يرتـدي المـيري حـين كان يوعدهـا في طفولتهـما؛ لينفـذ هـذا الوعيـد أخـيرًا، اقـترب منهـا ليقبـل جبينهـا بهـدوء منحنـي لأذنيهـا، قائـلًا بصـوت أجـش: مبـارك أهلـة.

أخـذت منـه باقـة الـورد، وقـد تـوردت وجنتهـا قليـلًا، تأبطـت ذراعـه؛ ليبـدأ الزفـاف وتـدق الطبـول، ابتسـمت بزهـو وهـي تـرى الـورد متناثـرًا بـكل مـكان؛ فاقتربـت إليـه قائلـة بمشاكسـة:

- بالـك يـا عمـر، أنـت لبسـت المـيري يـوم فرحنـا زي مـا كنـا بنحلـم، تخيـل لـو اتقبـض عليـك دلوقتـي بتهمـة انتحـال ضابـط شرطـه هيبقـى شـكلك مسـخرة، ثـم انفجـرت ضاحكـة عندمـا تخيلـت ما يمكـن أن يحـدث.

عبس وجه عمر فجأة قائلًا بغيظ:

- بتضحـكي كـدة ليـه يابـت، عـلى أسـاس إنهـم فاضيـين، وبعديـن هـما مـش هيعملـوا كـدة، أنـا في الآخـر ابـن الداخليـة، وواحـد منهـم قـولي بـس يـارب يعـدي اليـوم ده عـلى خـير.

قالت بمشاكسة حذرة:

- يارب.. بس أنت متأكد.

هتف عمر بمنتهى الجدية والثقة:

- مستحيل يا بنتي، ده آخر مكان ممكن يمر عليه دلوقتي.

شـعرت أهلـة ببعـض الطمأنينـة، تاركـة القلـق والهـوس الـذي ينتابهـا كلـما

فكرت بالأمر، وبدأ بالاندماج نحو الطبول والناس، ولكن ابتسامة شفتيه ماتت حين وجدت توقف أحد السيارات الخاصة بالشرطة, وانتشار العساكر في أرجاء المكان، امتعض وجه عمر قائلًا بيأس: زي ما قولتلك كدة، ده آخر مكان مستحيل يكون فيه هنا, واتحقق المستحيل.

ثم ترك ذراعيها، قائلًا بقلق:

- خير يافندم؟

قال الضابط بصرامة:

- اتفضل معانا الباشا عايزك.

التف نحو أهلة عمدًا، قائلًا باستنكار مبهم ونبرة ذات معنى: دلوقتي يافندم.

رد الضابط بصوت لا يقبل الجدل: حالًا.

اقترب إليها عمر مودعًا، هامسًا في أذنيها بمشاكسة: تهمة جديدة انتحال الضابط حصلت زي ما قولتي يا فقر، ابقي شقري عليا بقا، وهاتيلي عيش وحلاوة.

ذهب أمام عينيها المصدومتين، وتعلقت عيناه بالناس من حولها، وقد بدت الهمهمات ترتفع بين شامت ومشفق ومصدوم، أغمضت عينيها بخزي، تتمنى أن يكون هذا كابوس، سأفيق منه بعد قليل ، وهي تفكر جيدًا ما يدور الآن داخل أسرتها، وبالأخص والدها الذي تحدته في زواجها من عمر، ولكن أمسكت ذراعيها يد حنونة؛ لتهرب سريعًا بعيدًاعن الأحاديث التي ستصبح حتمًا أحاديث المدينة، وهي يد صفية والدة عمر.

****

أمام مكتب اللواء...

أخذ نفسًا عميقًا، ثم دلف داخل المكتب، داعيًا الله ألا يخذله أبدًا في يوم كهذا،

قال العسكري: تمام يا فندم عمر ماجد،

أشار عمر بتحية عسكرية....

تفحصة القائد من أعلى رأسه حتى أخمص قدميه باستحقار، ثم قال

بتسلط عنيف:
- منتهى الاستهتار، ضابط برتبة نقيب ومرفود من شغلك منتهى التسيب والاستهتار يا فندي، أغلب عائلتك اللي خدمت معاهم كانت أسماؤهم بيرعب الفيران، ويدخلها في جحورها من المغرب مش زي حضرتك أنا شخصيًا، مش مقتنع برجوعك للداخلية مش عارف أنت ضابط بأمارة إيه؟!
أشار عمر مبررًا: يافندم..
هدر القائد بغضب:
- أخرس خالص، ولا كلمة أنت مثال للتسيب والإهمال وعدم الضبط والربط، ضابط في الداخلية المفروض يكون قدوة ومثال للعزة والشرف والنزاهة، مش للفوضى والعشوائية، ملفك يشفعلك إنك ترجع تاني.
ثم خاطب ذلك الرجل الذي يجلس جانب المكتب، يشهد اللحظة الكارثية منذ البداية.
- يا محمود باشا البيه ده يرجع للداخلية النهاردة، وأبعده عن أي مكان قريب من أهله، وديه سينا ولا رفح ولا أي مصيبة، الواد يتعامل أسوأ من معاملة الـ٥٤يوم مستجدين، ومن النهاردة مش معنى فرحك النهاردة فده هيشفعلك.
أشار إليه محمود بتحية دلالته؛ لتنفذ أوامره، ثم أشار بيده بإهمال:
- اتفضل.
قال عمر بإيجاز:
- شكرًا يافندم.
بينما سمير يقف أمام باب المكتب، يكتم ضحكته بقوة حتى لا ينفجر ويفتعل فضيحة، متلذذًا بتهزيق وإهانة عمر من قائدهم، وداخله يهمس: « اضرب اضرب يمكن يرد شوية اللي بيعملة فيا»، ولكنه توقف كالتمثال الصلب حين خرج عمر من الغرفة برفقة ضابط أعلى رتبة منهما؛ ليأمرهما ببعض الأمور الخاصة بأوراق عمر؛ استعدادًا للرجوع إلى عملة مرة أخرى، عاد عمر إلى شقته بعد أن انتهى الزفاف، وكل شيء عاد لوضعه من جديد، بينما كانت أهلة ترقي فوق الفراش،

وهـي مـا زالـت ترتـدي فسـتان الزفـاف التـي حلمـت بهـا لسـنوات والدمـوع تتسـاقط فـوق الوسـادة، لم تجرالأمـور كـما خططـت، وقلـب خائـف حزيـن عـلى زوجهـا الحبيـب، هـل يـا تـرى حـدث شيء جديـد يسـتدعي لإحضـاره في يـوم كهـذا شـعرت بالقلـق أكـثر، لربمـا عـاد فتـح القضيـة مـن جديـد، وسـيتم حبـس داخـل السـجن، لم تسـتطع أن تتحمـل، فقامـت بفتـح مقبـض البـاب بقـوة؛ لتصطـدم بعمـر يفتـح البـاب؛ فتشـبثت بـه أهلـة بقـوة باكيـة:

- عمر فيه إيه؟ كانوا عايزين منك إيه؟

قـام عمـر بجذبهـا نحـو يتمنـى العيـش في هـذا المـكان مـا بقـي مـن حياتـه؛ فقـال بحنـان بالـغ:

- إهـدي، إهـدي، مفيـش حاجـة وحشـة مـن الـلي بتـدور في بالـك حصلـت بالعكـس.

رفعت أهلة رأسها بترقب، ثم قالت بفضول:

- بالعكس يعني إيه ؟

قال عمر ببطء للغاية متفحصًا تعابير وجهها:

- أنا رجعت تاني للشرطة.

صرخـت أهلـة بفرحـة عارمـة، فلـم تسـتطع أن تهـدأ، وهـي تـدور وتـدور في الغرفـة هـذا محـال، تحلـم دون شـك، هـل مـن المعقـول أن يكـون اللـه اسـتجاب لدعائهـا بهـذه السرعـة؛ فقالـت أهلـة بـسرور:

- معقول أنت بتهزر صح.

هـز عمـر رأسـه مؤكـدًا الخـبر؛ فصرخـت بقـوة: مبـارك مبـارك، يـا أحـلى خـبر في عمـري، ولكـن هـدأت مـن فرحتهـا حـين وجـدت وجـه عمـر عابـس غـير مـسرور؛ فقالـت باسـتنكار:

- مالك ياعمر؟

قال عمر بصوت جامد:

- أنا عندي مأمورية النهاردة احتمال تطول.

فغرت أهلة فاها بصدمة هامسة مكررة:

- النهاردة.

رد عمر بصوت آسف حزين:

- بعد ساعة من دلوقتي يعني يادوب ألحق أجهز نفسي, أنا آسف يا أهلة كان نفسي أخليكي أسعد واحدة في اليوم ده، لكن الفرح خلص قبل ما يبدأ..

ردت أهلة مشجعة؛ رغم إحباطها الظاهر بوضوح: سعادتنا اكتملت لما رجعت للحاجة اللي بتحبها..، قال عمر بعبث يستفزها:

- اثبتي على موقفك ده؛ لأن الكلام الكتير من أهلك والناس هيكتر.

فهمت أهلة ما يرمي إليه: «أي يقصد أهلها»، ولكن ردت أهلة بلامبالاة:

- مش بيهمني كلام حد، أنت أهلي وناسي.

قبَّل عمر جبينها بقوة، ثم قال بصوت ممتن وهو يجهز نفسه: وأنتِ أغلى حد في حياتي.

انتهت أهلة من تجهيز الحقيبة الخاصة بالسفر، ثم تابعته وهو يربط حذاءه بعجلة؛ فقالت بتردد:

- أنت هترجع أمتى؟

قال عمر بحيرة:

- مش عارف هطلع على مكتب المأمور, وأشوف بعد كدة إيه اللي هيحصل.

قالت أهلة بإصرار:

- طب هتروح فين؟

رد عمر بهدوء: أنت عارفة إننا ممنوع نتكلم في أمور الشغل.

قالت بقلة حيلة: أنا آسفة، بس أنت عارف إني بقلق عليك.

رد عمر قائلًا بصوت عميق كالبحر لا قرار له: سيبها على الله.

قالت أهلة بشجن: هتكلمني، ثم قبَّلها على جبينها ببطء، قائلًا بخفوت: أكيد لا اله إلا الله.

تأوهت بصمت حزين، وابتسمت بحزن فاضح: محمد رسول الله.

****

لم يستطع إمساك حاله أكثر مما جعله يسرع نحو غرفة رئيس الأطباء دون ذرة عقل، طرق الباب عدة طرقات؛ ليأذن له نائل بالدخول، دلف

معـاذ ثـم أغلـق البـاب خلفـه، تطلـع نائـل إلى هيئـة معـاذ الغـير متزنـة بعـض الـشيء ووجهـه العابـس؛ فقـال نائـل بتسـاؤل:
- معاذ أنت كويس..؟!
هدأ معاذ من حاله قليلًا، ثم همس بنبرة حازمة حذرة:
- كنت عايز أتكلم معاك في موضوع مش بشوف النوم بسببه...!
وقـف نائـل أمـام المكتـب يتطلـع إلى معـاذ بترقـب، ثـم هـز رأسـه بتسـاؤل وهـو يلاحـظ نظراتـه التـي تشـبه الصقـر، مسـلطًا نحـو نهايـة الـرواق؛ فقـال معـاذ بصـوت خطـير للغايـة مجيبًـا التسـاؤلات التـي طرحتهـا في رأس نائـل بخصـوص مـا وراء الـرواق غرفـة الظـلام .
في الحقيقـة لم يندهـش نائـل مـن وراء هـذا القلـق الـذي أراق معـاذ لفـترة، وقـد لاحـظ ذلـك، ولكـن الـذي جعلـه يندهـش إلى أي حـد تمـادى معـاذ، وسـنوات عمـره أكسـبته الجـرأة حتـى الوقاحـة؛ ليسـأل عـلى شيء هكـذا دون تـردد دون مقـدم، بـل وبطريقـة تسـاؤل محقـق واثـق.

*****

في نهايـة الـرواق شـعور غريـب يـرواد معـاذ وهـو يذهـب نحـو المجهـول الـذي طالمـا ود أن ينكشـف حتـى يشـبع الفضـول الجائـع داخلـه، قـام نائـل بإخـراج بطاقـة تشـبه الـكاردت، وضعهـا عـلى الشاشـة التـي بجانـب البـاب؛ ليعطـي لونًـا أخـضر دلالـة عـلى اسـتجابة فتحـه، دلفـا الاثنـان نحـو الممـر الطويـل الممـل بعـض الـشيء، بـل محـرق للأعصـاب بطريقـة مخيفـة مؤلمـة وموتـرة، حتـى الآن تجـاوزا أربعـة أبـواب، هـل يتواجـد هنـاك المزيـد، قـام بفـرد أصابعـه؛ ليضـع بصمـة يديـه؛ ففتـح البـاب الالكـتروني تلقائيًـا، تطلـع معـاذ حولـه بذهـول تـام، تركـه نائـل يأخـذ عـدة دقائـق؛ ليتفحـص كل شيء بدقـة، ويسـتوعب الصدمـة المتمثلـة عـلى ملامحـه بشـكل فاضـح، أسـند نائـل يديـه عـلى الرخامـة البـاردة، ثـم قـال نائـل بمـرح غـير حقيقـي:
- مقولتليش إيه رأيك؟!
التفـت معـاذ ليتطلـع نحـو المـكان، كمظهـر عـام فهـو عبـارة عـن رخامـة تشـبة الطاولـة في منتصـف غرفـة متوسـطة الحجـم، ليسـت بالوسـع الشاسـع الـذي تخيلـه معـاذ، ومليئـة بجميـع أنـواع المركبـات الكميائيـة

تشبه المعامل المتواجدة بكلية الصيدلة، معمل يشبه معامل التحليل الكميائي وميكروسكوب على الطاولة، وخمس ثلاجات داخلهم أشياء معلبة بالألوان مختلفة، اقترب قليلًا ليتفحص ما بداخل هذا البرطمان الزجاجي؛ ليجد داخله دوائر تشبه الفقعات التي يلعبون بها الصغار، حيثُ يقومون بوضعها في الماء حتى تنتفخ؛ لتصبح كورًا صغيرة، يلعبون بها، استداره أخيرًا معاذ إلى نائل؛ ليقول باستنكار ذاهل:

- إيه ده؟!

قال نائل باقتضاب وهو يضع يديه الاثنتين خلف ظهره:

- فيروسات.

ثم سأله بترقب فضولي:

- توقعت، هتلاقي إيه هنا..!!

قال معاذ بنوع من الارتياح النفسي:

- عايز الحقيقة؟؟!

قال نائل بمزاح ساخر:

- الحقيقة مملة.

قال معاذ بصوت أجش:

- ومع ذلك مطلوبة، بصراحة افتكرت الغموض الغريب اللي ورا كل الإجراءات الغير طبيعية، نوع من أنواع تجارة الأعضاء.

وضع نائل يديه الاثنتين في جيب بنطالة بغرور، ثم قال باستهانة وتهكم واضحين في صوته: أنت قديم أوي يا معاذ، الحاجات دي أصبحت تقليدية، إحنا هنا مستشفى محترمة بتسمح بأخذ الأعضاء بعد التأكد من موافقة أصحاب الجثة.

قال معاذ بنبرة عملية بعض الشيء:

- كلام جميل يا أستاذي، بس الأكيد إن المكان ده مش قانوني.

قال نائل بازدراء: ديمًا عاجبني فيك صراحتك، أسلوبك الدبش اللي يخلي بيحاورك ينفر منك، ويكون رافض إنه يتكلم معاك لو عنده النية لكدة.

ابتسم معاذ دون مرح حقيقي، ثم همس بعنف ساخر مهووس:

- المهم أنه مش منفر ليك دكتوري.
قال نائل بغموض:
- لا مش منفر يا معاذ، ندخل في الموضوع علطول، الغرفة الصغيرة دي بتحتوي على سلاح فتاك، أقوى أسلحة الدمار الشامل على الإطلاق، يعتبر السلاح اللي استطاع التربع على عرش الأسلحة العالمية سواء كان نووي أو كيميائي.
قال معاذ بنبرة مقلقة: سلاح إيه؟
رد نائل بهدوء مخيف مسيطر خطير كفحيح أفعى: السلاح البيولوجي.

***

في سيارة الشرطة المتوجهة نحو إحدى المحافظات، قال أحد الضباط بمشاكسة لأحدهم وهو ينظر إلى عمر الذي يضع يده على خده بإحباط، ناظرًا نحو النافذة باستياء يراقب الطريق في صمت: خسارة، الناس اللي معانا مع أنه المفروض تكون في مكان مع حد تاني خالص...
رد الآخر بتأثير زائف:
- أها والله الليلة راحت على الفاضي كدة.
قال أحدهم بعبث:
- علي الطلاق لو كانت ليلتي مكنتش سايبها ياجدع.
كل ذلك وعمر يتابع في صمت دون تعليق؛ فقال أحدهم بمشاكسة:
- صحيح يا عريس إيه اللي فارق معاك ومزعلك أوي كدة، العروسة ولا المصاريف اللي باظت على القاعة....!!
قال عمر بسخرية باهتة:
- أنت بتقول فيها يا ظريف المصاريف طبعًا.
كان رد سمير الذي يضحك بصمت منذ البداية هاتفًا:
- أصيل يا بو رحاب أنا كدة اطمنت.
ابتسم إليه سمير بغمزة وقحة يعرفها عمر جيدًا, أدار عمر رأسه بيأس صامت حتى لا يفتح لهم المجال التحدث في أمور تعنية خاصة في أمر كهذا؛ ليكملوا باقي الطريق في صمت.

****

قال معاذ بنبرة مقلقة: سلاح إيه؟؟؟!
رد نائل بهدوء مخيف مسيطر خطير كفحيح أفعي: السلاح البيولوجي.

الفصل الثامن

ربما لو أحدهم سكب دلوًا من الثلج فوق رأسه في ليلة شتاء قارص، أو ربما في منطقة جليدية درجة حرارتها تحت الصفر لكان أهون عليه من الصدمة التي تلقاها وسقطت فوق رأسه كالمصيبة التي أتت دون موعد، داخلها يصرخ ليته ما كان علم، ولم يشبع الفضول الجائع داخله منذ سنوات ابتلع معاذ ريقه بصعوبة، ثم تنحنح بخشونة، قائلًا بهدوء مسيطر :

- ممكن توضيح أكتر؟

لاحظ نائل مراحل تعابير وجه معاذ؛ فقال بإيجاز؛ لينهي هذا الصراع المتمثل أمامه:

- طبعًا أنت عارف البكتريا أو الفيرس عندها قدرة عالية على التكاثر والانتشار، وخطورتها بتزداد مع الوقت وده شيء مفيد جدًا لمصلحتنا.

ثم أخذ أنبوبة بها سائل باللون الأحمر يقوم بتقلبها ببطء مستفز أمام أعين معاذ التي تشتعل بالمزيد من الجنون الناري الغافل عنة نائل، وهو يتكلم بكل أريحية متابعًا بثقة:

- يعني إحنا ممكن نقدر نصنع ترسانة كاملة من الأسلحة في زمن قصير بالاستعانة بكمية صغيرة من خلايا البكتريا.

قال معاذ بنبرة باهتة:

- طبيعي؛ لأن خلايا البكتريا بتنقسم كل عشرين دقيقة، يعني كفيل تحقق مليار نسخة جديدة خلال عشر ساعات، يعني تقدر تحقق جيش ضخم من البكتريا في أسابيع.

أومأ نائل رأسه مشجعًا إياه متابعًا:

- بالضبط.

قال معاذ بتساؤل:

- وأنت بتستخدم أي أنواع من البكتريا؟

ذكر دكتور نائل عدة أسماء لفيروسات (لا داعي لذكر أسمائها).

قال نائل وهو يحك ذقنه بالامبالاة:

- بكتريا قديمة، الفيروسات المستخدمة في العصر الحديث بتسبب برد اضطراب في الجهاز التنفسي EEV بيسبب اضطراب في الجهاز العصبي. يعني مثلًاxarhtna ١ /٠٠٠٠٠٠١ من الجرام من البكتريا يقدر يقتل الإنسان لمجرد الاستنشاق، أهم حاجة عشان تدخل السكة دي بقلب جامد، دارس المشروع تمام من مسببات المرض طريقة زرعها تكاثرها ونقلها لأي كائن حي، وأكيد المضاد لها عشان تقدر تعالج الحالة اللي بدأت عليها.

- وسائل العدوى إزاي؟

مط نائل شفتيه بتفكير، قائلًا ببساطة:

- على سبيل المثال الفيروسات اللي ذكرتها نقلها بيكون عن طريق العرق ـ ملمس الجسد التلامس عامة ـ الجنس، ملهوش مناعة ميختلفش عن VIH «الإيدز»؛ لذلك لا بدّ أن الجثة تدفن بطريقة معينة.

صمت نائل عدة ثوانٍ، ثم قال بهدوء قاتم:

- إيه رأيك في السلاح غير المعقد ده؟

قال معاذ بصوت غامض:

- وليه اختارت الطريق ده؟

قال نائل بصوت مبهم حاد:

- اسمع يا معاذ، كل حرب بتبدأ بهدوء، والقائد عليه اختيار الطريق اللي هيسلك فيه القتال يا إما بالموت الأحمر، أو الموت الأصفر.

هتف معاذ بحيرة مستفهم:

- موت أحمر وموت أصفر إيه مش فاهم؟

- الموت الأحمر بالدم، الموت الأصفر بيولوجي الشهير منها الطاعون، سلاح بدون رصاص أو بارود بعيدة كل البعد عن المدافع والمفرقعات، القذيفة في السلاح عبارة عن مجموعة من البكتريا والسلاح اللي بيطلق القذيفة عبارة عن أنبوبة اختبار البكتريا، عندها قدرة بكتريا تفوق كل التوقعات والتخمينات، والقدرة دي أخذتها من أقوى أسلحة الشامل.

تجمعت الخيوط المفقودة لدى رأس معاذ، والذي يشغل ذهنه منذ دخوله هذة الحجرة المقيتة؛ فقال بنبرة متهمة، وشك مريب، رغم

عـدم تأكـده:
- ثـواني الكارثـة الـلي حصلـت في القريـة مـن هـلاك المحاصيـل الزراعيـة، الوبـاء ده حقيقـي ولا مفتعـل.
رد نائل بإيجاز:
- قولتلك قبل كدة هسبلك الجواب.
وبالطبـع لم يحتـج معـاذ الكثـير مـن الوقـت، أو الجهـد حتـى يسـتنتج الأمـر.. ألتـوى فـك نائـل بسـخرية؛ فتابـع معـاذ، قائـلًا بذهـول:
- معقول؟
عندمـا رأى نائـل الجنـون الواضـح بعـين معـاذ صمـت، منتظـرًا أن تظهـر نوبـة مـن غضـب معـاذ الغير متوقـع فـذاك الهـدوء الـذي يتميـز بـه معـاذ، الآن يعـرف بهـدوء مـا قبـل العاصفـة التـي توشـك عـلى الانـدلاع بعـدة لحظـات، ولكنـه صـدم توقعـه حـين ارتفعـت يـد معـاذ؛ لتصفـق ببـطء، و بـكل هـدوء وتهكـم :
- يا ولاد الأبالسة، أنت إبليس المفروض يقوم يسقف لك.
ثـم حـك ذقنـه، قائـلًا بصـوت كالبـئر عميـق يحمـل في طياتـه الكثـير مـن الحقـد والانتقـام:
- دي بلدكم إزاي أنتوا كدة، وإزاي طاوعكم قلوبكم تفكر حتى في كده؟
كـز نائـل عـلى أسـنانه بقـوة، مغمضًـا عينيـه، حينـما شـعر بنـبرة معـاذ، ثـم قـال بشراسـة مـن بـين أسـنانه رغـم هـدوء نـبرة، وكأنـه يتحـدث عـن الطقـس:
- أنـت عـارف يـا معـاذ عمـرك مـا كنـت يـوم مثـال للنزاهـة، فاكـر العمليـات الشـمال الـلي كنـت بتعملهـا وأنـت مجـرد طالـب ولا نسـيت، مـين الـلي علمـك تمسـك المـشرط، وتبقـى أشـطر زمايلـك ويطلوبـك في المؤتمـرات الدوليـة، وبالاسـم في العمليـات المهمـة وأنـت لسـة في السـن ده، بـلاش تتجاهـل الـلي خـلاك في المركـز الـلي في سـنك يحلمـوا يوصـل ليـه.
شـعر معـاذ بالإهانـة والمعايـرة في نبرتـه وعينيـه مسـلطة عليـه باحتقـار واشـمئزاز، هتـف معـاذ بقـرف وكبريـاء:
- إن كنـت وصلـت لـلي أنـا فيـه فـده بمهـارتي وكفـاءتي بعـد فضـل ربنـا، أنـا

اللي كنت ديمًا بسعى عشان أوصل، والعمليات الشمال بفضلك عرفتها لما قولتلي عشان تقدر تصرف على نفسك في الكلية، على الرغم إني كنت مبسوط في شغلي العادي.

رد نائل بتهكم واحتقار:

- أممم أنك تغسل المواعين في المطاعم يا دكتور لحد نص الليل ده شغل.

ابتسم هاتفًا بنبرة مستفزة:

- على الأقل بالحلال، يعني دخولي للشغل الوسخ، والسكة الشمال كانت بفضلك.

رد نائل بنفس النبرة:

- يعني مكنتش يوم مثال للنزاهة والشرف يبقى متفقين.

لاحظ معاذ النبرة العدائية التي يتفوه بها؛ فاستدار ليأخذ نفسًا، واضعًا يديه في جنبه، واليد الأخرى تكاد تقتلع جذور شعره، ثم أستدار فجأة ليهمس بحرقة داخله، بينما صوته الواثق يهمس:

- هو ممكن أشوف الفيروسات اللي هنا، ثم أشار نحو أحد الثلاجات.

رد نائل مرحبًا، وهو يشير نحو الخزانة التي تحتوي على الأطقم الواقية، قائلًا:

- طبعًا، بس لازم تشد أعصابك عشان نقدر نتابع كلامنا، عامل إيه دلوقتي؟!

رد معاذ باستفزاز ونبرة مميتة:

- تمام، طالما لسة ماوصلناش لنهاية العالم.

وضع نائل شريحة بحجم الإصبع الصغيرة تحت عدسة المجهر؛ لينحني معاذ يتفحصها، بينما تابعة نائل ببرود متجاهلًا غضب معاذ المشتعل كالبركان الذي سينفجر بأي وقت، حين قال بنبرة خطيرة كصوت شيطان أعمى:

- طيارة عادية مرت في الجو زي أي طيارة معدية أطلقت قذيفة مدفعية عند الهدف المراد بملايين من الأوعية الجرثومية.

بدأ معاذ يهذي بكلام غير مفهوم على الإطلاق؛ ليهتف بحيرة وتوهان:

- يعني الباشا صاحب المبادئ والأخلاقيات والوطنية والروحانيات و... وكان هو ورا الليلة السودا دي، والناس هبلة بتصدق وتطلع تهتف: عاش الجوكارد، والأمهات تدعيله للجميل اللي عمله في أهل القرية، والإعلان والصحف وترند السوشيل ميديا.

ثم تابع بتقزز:

- أنتوا تفرقوا إيه عن الإرهاب، ولا حاجة بس ينطبق عليكم المثل تقتلوا القتيل وتمشوا في جنازة.

قال نائل ببرود، وكأنه يتحدث عن الطقس:

- لا أنت كبرت الموضوع، أنت فاكرها قنبلة ذرية هنكلف عليها ملايين الدولارت، وفريق من العلماء، غير المواد الخام والعناصر الكيمائية، وبناء مصانع، ومحطات نووية، وتصريح دولي من الهيئات المختصة، وسنوات من البحث والتجارب، إحنا اخترنا الطريق الأسهل والأنسب بتحديد الكائن الدقيق اللي هتستخدمه كعنصر الذخيرة للسلاح سواء كان بكتريا أو فيروسات أو سموم، بتجهز الوعاء اللي بيكون بمواصفات خاصة عشان تقدر تحافظ على نشاطها لحين لحظة إطلاقها، والمهم أنه مش أي حد يقدر يستخدمه يعني محتاج فريق من العلماء، مش مجرد فريق طبي عادي، متخيل كرة أرضية مساحتها أكتر من ٥٥٠ مليون كليومتر، يعني لما يبقى يهددها فيروس حجمه ١٥٠ نانومتر، يقوم بتهديد كوكب كامل، فلازم يكون عندنا قدرة كبيرة فى التحكم فيه.

قال معاذ بنبرة مميتة ووجه عابس:

- ما أطلقش عليها قنبلة الفقراء من فراغ .

في الحقيقة ذاك السلاح البيولوجي من أخطر الأسلحة التي من من الممكن أن تبيد شعوب بأكملها.

****

كان شبه متكئًا على المقعد الموضوع في الكمين، مغمضًا عينيه باسترخاء، وملامح هادئة؛ فقال سمير بصوت خافت:

- عمر،عمر؟

شعر عمر بيد تضرب على كتفيه بحركة رتيبة؛ ففتح عينيه ببطء،

قائـلًا:
- فيه حاجة؟
اقترب إليه سمير؛ ليجلس القرفصاء أمام الكرسي الجالس عليه عمر:
- قوم سافر لعروستك، أنا اتأكدت إن مفيش تفتيش.
وضـع عمـر يديـه في رأسـه، ثـم تفقـد السـاعة؛ ليجدهـا الثانيـة بعـد منتصف الليـل؛ فقـال بصـوت ناعس:
- تاني يا سمير، قولت لا مينفعش أسيبك أساسًا النابطشيه دي بتاعتي.
ثم قام يعدل من نفسه محاولًا أن يستفيق، قائلًا بصوت ناعس:
- أنت إيه اللي مقعدك هنا المفروض كنت تمشي من صلاة العشا.
ابتسم سمير ببطء ثم قال بهدوء مرح:
- لا ياعم، أنا قاعد مكانك النهاردة وهي فرصة.
ثم اقترب قائلًا بخبث:
- ولا أنت مش عايز تشرفنا النهاردة؟
ضحـك عمـر رافعًـا رأسـه؛ ليضحـك ضحكـة خشـنة تماثـل ملامـح وجهـه الجذابـة، ثـم قـال بعنـف سـاخر: ولاااا، احـترم نفسـك؟
كاد أن يعنفه، ولكن قال سمير بمرح:
- يـا باشـا، حقـك علينـا، يـلا اتـكل عـلى اللـه، ولـو فيـه حاجـة هـرن عليـك، يـلا يـا حبيبـي.
اسـتجاب لـه عمـر بعـد إلحـاح طويـل مـن سـمير بعـد أن أخـذ عمـر أحـد السـيارات، ذهـب نحـو بيتـه، كان سـمير يتمـشى ذهابًـا وإيابًـا، محـاولًا تضييع الوقـت في التفكـير أو الذهـاب، وفجـأة وجـد سـيارة مدرعـة تتحـرك ببـطء، وكأنهـا تهـدئ السرعـة في اتجـاه الطريـق الآخـر المعاكـس، ثـم توقفـت لمـدة دقيقـة عـلى الخـط المـوازي للكمـين، وفي أقـل مـن عـدة ثـوانٍ كان ثلاثـة رجـال ملثمـين أطلقـوا الرصـاص في اتجـاه الكمـين، تغربـل الكمـين في أقـل بضـع دقائـق، اختبـأ سـمير خلـف السـيارة؛ ليقـوم بإطـلاق النـار في اتجـاه السـيارة؛ ليسـتطيع تصويـب الرصـاص في الاتجـاه الـذي بجانـب السـائق؛ لتصطـدم برأسـه مبـاشرة، حـاول أن يـضرب في اتجـاه ضرب النـار، ولكـن دون جـدوى سـقط العسـاكر وسـمير حـين اخـترق الرصـاص السـيارة التـي يقـف

خلفها مخترقة السترة الواقية المكتوب خلفها police.

***

- كم دقيقة يا باشا، وهيوصلك أحلى خبر ممكن تسمعه.

ضحك جو بصوت صاخب مقزز، وهو يتجرع من الكأس، قائلًا باستفزاز:

- في الانتظار يا نائل.

رن الهاتف الخاص بالمنزل بجانبه؛ فقال نائل مشيرًا نحو الهاتف:

- شكل الخبر الحلو وصل ياباشا.

أشار الجوكارد نحو الهاتف أن يتحدث في الهاتف؛ فقال نائل:

- أيوة بابني، إيه الأخبار؟

جاء الرد، فقال نائل بنبرة انتصار:

- تمام أوي.

ثم أغلق الهاتف، قائلًا بلذة منتصرة:

- حصل يا زي ما أمرت

ابتسم جو محركًا رأسه ببطء، قائلًا بنبرة غامضة:

- عظيم عظيم.

دلف حامد إلى المكتب، قائلًا بترحيب:

- أهلًا بالبشوات.

إذن له الجوكارد بالدخول، قائلًا:

- تعال يا حامد كنت فين؟

قال حامد بصوت يبدو طبيعيًا بعض الشيء:

- لسة جاي من على الطريق السريع، المكان هناك مقلوب عشان

الضابـط والعسـاكر الـلي اتقتلـوا في الكمـين.

تصنـع نائـل والجـوكارد بعـض الحـزن المصطنـع الـذي ظهـر عـلى ملامـح وجههـما الهـادئ؛ فقـال نائـل بنـبرة تبـدو وكأنـه متأثـر:

- متعرفيش مين الضابط اللي ربنا كاتبله الشهادة النهاردة؟

قال حامد بعفوية وهو يأكل المسليات التي أمامه:

- اسمه النقيب سمير.

انتصـب ظهـر الجـوكارد ناظـرًا نحـو نائـل بنظـرة مخيفـة صادمـة تشـبه الصقـر في حـدة، بينـما قـال نائـل بصدمـة، محـاولًا إخفـاء ذهـول وجهـه:

- بس إحنا سمعنا اللي اتقتل النقيب عمر.

قال حامد ببساطة، غافلًا عن حالة التوتر التي عصفت بالمكان فجأة:

- لا مهو النقيب عمر مكنش موجود في الكمين وقت الهجوم.

شـعر الجـوكارد أن الغضـب يجتاحـه مـن كل مـكان، وربمـا لـو انتظـر عـدة دقائـق؛ فسيشـتعل المـكان بأكملـه بسـبب نـيران الغضـب الـذي يجتـاح كيانـه؛ فغـادر المـكان بغضـب حـارق ملحـوظ.

*****

وقـف معـاذ مكتفًـا ذراعيـه جانـب ياسـين اللذيـن يرمقـان جثـة الضابـط مـن وراء العـازل الزجاجـي، وصاحبـه يبـكي بجانبـه، بينـما زوجتـه تقـف بجانبـه بذهـول وإشـفاق، قـال معـاذ ببعـض العاطفـة:

- زعلان على موت الضابط ؟

رد ياسين بألم مشوش:

- مـش عـارف مشـاعري متخبطـة جوايـا، حاسـس إني زعلـت عليـه، أنـا

اتعاملت معاه في المستشفى أكتر من مرة.

قال معاذ بشرود:

- مع كل حالة بتموت بيموت شيء جوانا.

همس ياسين باستنكار: مع الجراحين.

رفع أحد حاجبيه، قائلًا بفتور:

- أو المجرمين.

رد ياسين بامتعاض:

- أفضل حاجة دلوقت الابتعاد.

رد معاذ مصححًا:

- أو الاختباء.

ثم أكمل بشرود:

- ياريتنا ما كبرنا.

على الجانب الآخر من هذا المكان المفزع مقبرة الأحزان مفرقة الأحباب، داخل المشرحة وقف عمر أمام الطابق الذي يحتوي على جثة سمير، واضعًا قبضته على رأسه بألم، ثم قال بصوت مرتجف كصوت شيطان أعمى:

- أوعدك ياصاحبي لاخدلك حقك، وانتقملك أشد انتقام من اللي خدوك من أهلك وطفلك اللي حرموني من أقرب الناس لقلبي.

ثم انحنى يقبل جبهته بقوة، بينما عيناه بدت كحريق مستعر أسود اللون، ظل مسلط عينيه ينظر نحوه، بينما تحرك خطوتين إلى الوراء بظهره دون أن يستدير؛ ليجلس على الأرض الباردة بجسد متهالك مرهق،

واضعًا سلاحه بجانبه، وعيناه مسلطة نحو صاحبه، ظل بهذا الوضع أكثر من نصف ساعة، لم يحرك ساكنًا، فقط عيناه التي تفصح الكثير عن الألم الذي يتعايشه، وما أسوأ من الكتمان والوجع الذي يستنزف ما بداخلك، ويمزقك قطعًا قطعًا رغمًا عنك، تلك الدموع اللعينة التي تأبى التحرر من عينين متجمدتين كالجليد تحرق ما بداخله ببطء قاتل، شعر بأحدهم يتحسس ذراعيه بمواساة؛ فالتفت بعينين تشبه اللهيب من شدة احمرارها؛ ليجد أهلة تنظر إليه بألم مقهور؛ فنظر نحو مكان صديقه؛ ليقول بصوت متباعد حزين للغاية:

- طول عمري وأنا بتخيل إني ممكن أفقد أعز وأقرب الناس ليا، حاولت أنفي الفكرة من عقلي ألف مرة، شوفي.

ثم أشار برأسه نحو الجثة...

- سمير صديق عمري الموت سرقه مني ومن أحبابه فجأة، بس مكنتش لازم تنتهي كده، من غير سلام، الحياة مش عادلة،عشان هيكون الختام المنتظر بالسرعة دي ، طب أنا المفروض أزعل ولا أفرح له، أزعل على فراقه ولا أفرح لاستشهاده، كان أنقى من يعيش في وسط عالم كله ظلم، أنا اتأكدت دلوقتي إني فقدت نفسي، وللأبد.

همست أهلة بقهر ودموعها تتساقط على وجنتيها بصمت ألمّ على زوجها:

- متضغطش على نفسك يا عمر أكتر من كده، وتحاول تظهر إنك قوي الحزن المؤجل صعب، حرَّر الدموع اللي في عينيك يمكن تخفف الألم عليك شوية، وكفاية ظلم لنفسك لحد كدة.

همس بصوت بوهن ومتباعد، بدأ مجهدًا للغاية:

- ياريت، أنا مش بهتم بقضية الموت, الموت جزء من الحياة، ويمكن يكون الجزء الواقعي الوحيد، ياريت لو كان بياخد الإنسان دفعة وحدة لازم يخطفنا وحدة وحدة ببطء.

ثم صمت عدة لحظات متابعًا بصوت مستغيث مقهور: فرااااق، ولحد ما يخدنا الموت الأكبر يلملم الأجزاء المحطمة الهشة المتبقية مننا، المفروض نقاوم ونستحمل.

همست أهلة بإصرار وهي تشدد من قبتضها على كتفه:

- بيمضي حتى لو مكسورين، كله بيمضي زي ما تجاوزنا مصاعب أسوأ من كدة، الحياة مش مثال للعدل هي أبعد من كدة بكتير، يلا يا عمر قاوم أوقف قدام العواصف الشديدة، ومتبقاش بالضعف ده، متعودتش أشوفك كدة، يلا نخرج من هنا.

رغم أن عيناه التي تلمع بحزن عميق مثبتة نحو مكان واحد فقط، وكأنها ترسل إليه نظرات الوداع، شعرت به يستجيب إليها؛ فقام من مكانه؛ ليتجة نحو الخارج؛ ليجد أهل سمير وتحديدا زوجته التي تحمل طفلها، توقف عدة دقائق وكأن جميع أجهزة الجسد توقفه، وأبت إشارات العقل أن تعطي أوامر بعدم التحرك، ولكن كان إصرار أهلة بأن يتحرك جعله يستجيب إليها في الآخر.

في اليوم التالي اتجه عمر نحو المشفى الذي كان يتواجد بها رفيق دربه، ثم توقف أمام الفتاة التي كانت متواجدة في الاستقبال؛ فقال بنبرة ميتة، فاقدة للحياة:

- من فضلك ممكن توصليني بالدكتور اللي كان ماسك حالة الشهيد سمير اللي استشهد إمبارح.

قالت الفتاة بدبلوماسية:

- الدكتور ياسين في الطابق الخامس قسم الجراحة.

حيث إن ياسين يعمل بالمستشفى العام صباحًا، ومستشفى الغروب مساءً.. ذهب عمر نحو الأسانسير، ثم تساءل عن الطبيب الذي يدعى ياسين؛ ليصل إليه أخيرًا قائلًا بصوت حازم:

- من فضلك ممكن أطلع على تقرير النقيب سمير.

أشار ياسين بيده، هامسًا بهدوء:

- اتفضل معايا.

اتجه الاثنان نحو المكتب سويًا؛ ليشرح له التقرير، قائلًا:

- يظهر تقرير التشريح وجود جرح طعني نافذ أعلى البطن من الناحية اليمنى أدى إلى إصابة بنسيج الكبد، وقطع بأوعية الكبد، مما أدى إلى نزيف حاد بتجويف البطن؛ تسبب في حدوث هبوط حاد بالدورة الدموية أدى إلى الوفاة, يعني مش مجرد رصاصة أصابت جانب ذراعه فقط, كان ممكن استخرجها، بعتذر منك البقاء لله.

لم يرد عليه عمر والأغرب من ذلك بدت ملامحه غامضة غير مقروءة على الإطلاق، وحين تحرر من صمته المخيف بصوت مؤذٍ بدرجة عنيفة رغم بساطة كلماتها:

- هو دكتور نائل فين؟

رد عليه ياسين بتعجب غير متوقع سؤال كهذا:

- في مؤتمر بألمانيا بيناقش حالة جراحية.

فقال عمر بنبرة باترة كحد السيف:

- ودكتور معاذ؟

هذه المرة لم يشعر بارتياح وهو يتفهم نظراته التي تفيض بالكره والحقد؛ فقال بحذر شديد:

- لسة خارج حالًا.

أومأ عمر رأسه بخفة، ثم تركه ورحل دون كلمة، بينما وقف ياسين ينظر نحو الأثر الذي خرج منه واضعًا يديه في البالطو بعجب، بينما

داخلـه يقسـم أن الأمـر ليـس مجـرد فقـط ضابـط يحقـق في قضيـة، وإنمـا أصبـح الانتقـام الرائحـة النَّفاثـة التـي تشـع بشـكل مخيـف خطـير في المـكان الـذي يتواجـد بـه ذاك الكائـن الـذي تفضحـه عينـاه، المعلـن بتهديـد مخيـف وكأنـه عـلى وشـك قتـل أحدهـما الآن.

الفصل التاسع

هنـاك صراع داخـلي بالنفـس، أصـوات غريبـة لا تسـتطيع تميزهـا ضجـة بداخلـك، تخـبرك أنـك لسـت عـلى مـا يـرام، ورأس يـدور بأمـواج عاصفـة هوجـاء، لا ترحـم مـن يقـف أمامهـا، بـل يسـتحيل أن يحـاول المـرء التطـرق بإحـدى هـذه المناطـق بمحـض إرادتـه؛ فهـو طريـق يسـحب يسـحب إلى أن يسـقط المـرء غريقًـا داخلـه، ولا سـبيل مـن النجـاة نحـو بـر الأمـان، إلا عندمـا ينكـسر داخلـه شـيئًا، إن لم يتحطـم مـن الأسـاس بأكملـه داخـل تلـك هـذه الدائـرة اللعينـة..

- الله الله، إيه الشياكة دي يا قناص على فين كدة؟

كان هذا صوت ياسين العابث....

فعـدل معـاذ عـدة خصـلات مـن شـعره الـذي اسـتطال بعـض الشـيئ عـلى جبينـه، حتـى لامسـت لياقـة القميـص؛ فقـال معـاذ وهـو ينظـر نحـو شاشـة الهاتـف المحمـول؛ متخذهـا كمـرآة، وهـو يعـدل مـن نفسـه باهتـمام وتأنـق، هامسًـا برضـا:

- هعجبها صح؟

هلل ياسين قائلًا بمشاكسة:

- أها البرنسس، أوعدنا الحب يارب.

نظر إليه معاذ بطرف عينيه بحنق، ثم قال بضيق:

- طب وسع كدة شوية عشان أنت مأخرنا متبقاش سمج.

كاد ليذهـب، ولكـن أوقفـه نـداء نورهـان التـي كانـت تعـدو لتصـل إليـه وهـي تلهـث بشـدة؛ فقـال معـاذ بهـدوء وهـو يشـير بيـده؛ لتأخـذ نفسـها:

- خد نفس وإهدى.

فقالت نورهان بصعوبة وهي تتفحص دون خجل:

- إيه الشياكة يا دكتور ليكون مؤتمر؟

عبس معاذ، ثم قال بانزعاج، وهو يخاطب ياسين:

- هو كنت معفن ولا إيه يا جدعان أنا طول عمري أنيق.

ثم تابع قائلًا بعجلة: خير يا نورهان أنت مأخراني ؟

أفاقت سريعًا من الهيمان الذي يتلبسها فور حضوره المهيمن، والذي له لذة خاصة بقربه، حاولت التحكم بنفسها ونظرات عينيها التي ترمقه بإعجاب صريح، لاحظه ياسين بسهولة وبعض الإشفاق الخفي علي هذة الكائنة متفجرة الجمال والأنوثة ،قالت نورهان برجاء خفي : ممكن أدخل عمليات النهاردة، سمعت أن عملية اللي حضرتك هتعملها مهمة جدا ونادر حدوثها؟

وضع معاذ يديه في جيب بنطاله، وقال بنبرة عملية: صحيح فيه عملية، هسألك وإن جاوبتي أكيد هتدخلي.

أومأت نورهان بحماس مقلق؛ فضيق معاذ عينيه وكأنه يختبر طفلة صغيرة في أمر خطير؛ فقال بجدية:

- الحالة في غرفة ٦٥٥ اللي خرجت من العمليات بعد الظهر حصلها ارتفاع في درجة الحرارة بعد 24ساعة من العملية تفتكري إيه السبب؟

قامت نورهان؛ لتخرج الهاتف من جيب بنطالها؛ فأمسكه سريعًا هاتفًا باستفهام: أنتِ بتعملي إيه إحنا مش في اختبار أوبن بوك، ولا بنبيع طماطم، الإجابة عايزها من عقلك يا دكتورة؟

هتفت نورهان ببراءة وتلقائية:

- لا حضرتك فهمت غلط، أنا هشوف بس معطيات المريض اللي في التقرير.

- لا ما تشوفيش، أنا عايز إجابة سؤالي.

عضت نورهان على شفتيها كطفلة خائفة من شيء ما، ثم قالت:

- تجمع صديدي داخل الجرح، عدوى ميكروبية، التهاب شعب هوائية، التهابات بالحلق.

- ونعرف السبب إزاي؟

- هنعمل أشعة على الصدر، والتحاليل الروتينية.

- وهنستخدم أي أسلوب في العلاج ؟

- مضاد حيوي واسع المجال لحد ما نوصل لسبب ارتفاع درجة الحرارة.

- براءة نجحتي في الاختبار تستاهلي تدخلي النهاردة.

هتفت نورهان بفرح عارم:

- شكرًا شكرًا.

ابتسم إليها بعفوية، بدت جاذبة للغاية أهلكتها، بينما هو تجاوزها مغادرًا إلى الجانب المضئ في حياته ككل يوم، وقد أصبحت عادته مؤخرًا.

****

بعد عدة أسابيع...

ليلة الحفل....

في طريقهم نحو المؤتمر، توقف معاذ في إحدى الاستراحات، كان يجري عدة اتصالات؛ فوجدها تجلس في السيارة بملل؛ فاقترب إليها، ثم أسند ذراعيه على زجاج السيارة، يفكر كيف يخرجها من حالة الملل التي تشعر بها؛ فقال وهو يشير نحو المكان برأسه:

- غروب فيه سوبر ماركت، انزلي هاتي حاجة.

ردت غروب بتلقائية، وهي تنظر للخلف نحو الأشياء التي جلبها معاذ:

- بس أنا مش عايزة حاجة، معانا حاجات كتير.

ابتسم لها بلطافة، ثم قال بعطف:

- أنتِ مش كنتي عايزة تتسوقي يلا، فرصة وجاتلك استغليها.

نظرات عينيه المشجعة، جعلتها في أقل من الثانية تنزل من السيارة بكل سرور؛ لتتجه نحو المتجر الضخم بعدما أعطاها نقودًا، لم يغفل عينيه من عليها، يقف من بعيد؛ ليشاهد كيف ستتصرف وهي وحيدة؛ ليكتشف مدى اعتمادها على نفسها، وكيفية التعامل مع الآخرين، علها تتخلص من رهبة التعامل مع البشر، بعد وقت ليس بقصير انتهى من المكالمات والإجراءات التي استدعت النزول من السيارة، وتنفيذ المزيد من إجراءات تخص الحفل، شعر بالقلق عليها عند غيابها الغير متوقع، دلف سريعًا نحو الداخل؛ ليجدها تقف أمام الحسابات، والعربة التي تحمل المشتريات، مكدسة وممتلئة لآخرها، ابتسم معاذ عندما وجدها تقف بكل ثقة منتظرة حتى تأخذ دورها، ثم انتقلت عيناه تلقائيًا نحو الأشياء التي قامت بشرائها؛ لتختفي ابتسامته المزينة ثغره؛ لصدمة غير متوقعة؛ لتتحول تدريجيًا إلى ذهول، حين قال ببحة غريبة:

- غروب، أنتِ جبتي إيه؟

اتسعت ابتسامتها بقوة وهي تهز رأسها بطفولة، ويديها متعلقة بمقدمة عربة المشتريات، ثم قالت بكل فخر:

- إيه رأيك؟

وضع يديه على وجهه محاولًا استعياب ما يحدث أمامه، ثم قال بعد فترة بيأس حين رأى العربة مكدسة بجميع أنواع الألعاب النارية الخاصة بالحفلات والمناسبات والألعاب النارية التي تصلح للأطفال:

- غروب، أنتِ جايبه إيه وهتعملي بيهم إيه أساسًا؟

ابتسمت ناظرة إليه بسرور عارم، قائلة بطفولة:

- أنا مش خبرة بأمورالتسويق؛ فقولت أجيب دول، إيه رأيك؟

استطاع معاذ أن يبتسم بصعوبة، وهو يتطلع حوله حتى لا يقوم بارتكاب جريمة في أحدهم؛ فهو على وشك أن يجن عقله، مما يصدم به كل مرة من فتاته غروب.

****

في أحد أفخم الفنادق الذي يمتلكه آل هاشم، كان يقيم هاشم ونائل ما يشبه الحفل كل مناسبة نجاح أو تحقيق إنجاز ما؛ فقد قرر إقامة حفل بمناسبة نجاحه في الترشح للانتخابات، رغم أنه لم يمر الكثير على وفاة أخيه، ولكن لا يمكن مخالفة هذه الطقوس حتى لا يخسر مشروعاته الضخمة في عالم البزنيس. هذا الحفل الصخم المليء بالخدم والحشم ونساء من أجمل ما ترى الأعين، ورجال من كبار الأعمال يحتوي الفندق على طبقة VIP والخدم فقط، تطلع معاذ نحوه بحقد وسخرية مقيتة، رغمًا عنه شعر أن هناك نارًا هوجاء تشتعل داخله تنهش به دون رحمة، التقطت عيناه أحد الزهور رائعة المظهر للغاية ذي رائحة فوَّاحة تشبه رائحة العنبر، اقترب ليتلمس إحدى وريقاتها برقة فابتسم تلقائيًا؛ لمظهرها الجذاب، سمع صوت أنثوي هادئ ناعم:

- خلي بالك من أجمل الزهور اللي وصلت، الباشا طلبها بالاسم من باريس مخصوص. استدار نحو ذاك الصوت المليء بالغرور؛ ليجد نورهان ترتدي فستانًا أحمر قانٍ يشبة اللون التي تضع على شفتيها؛ فقال معاذ بصوت مموهه خبيث:

- لازم يكون من أجمل الأنواع عشان أثار إعجابك. رمقته بنظرة يدركها معاذ جيدًا؛ فهو جذَّاب للغاية، وتلك الحلة التي يرتديها جعلت منه نجمًا عالميًا، وليس مجرد قناص محترف، همست

نورهـان بغمـوص:

- هو إيه؟

وضـع يديـه الاثنتـين في جيـب بنطالـه، ينظـر نحـو الزهـور، ثـم همـس بخفـوت: الزهـور.. أنهـى كلمتـه الأخـيرة بغمـزة وقحـة نوعًـا مـا، ثـم أردف قائـلًا: مهنتـك إيـه؟

قالت نورهان بفخر: جراحة.

رد معـاذ هاتفًـا بتهكـم: بنـج ومـشرط ودم وعمليـات يعنـي. هتفـت نورهـان بامتعـاض مكـررة مـا يقولـه، ثـم تابعـت بتحـدٍ: وبنعالـج المـرضى، شـكلك عنـدك عقـدة مـن الأطبـاء، أسـتاذي، إحنـا ملائكـة الرحمـة.

رد معـاذ مكـررًا باسـتهانة: ملائكـة الرحمـة، المفـروض متسـمعش كتير عشـان تـاكل عيـش في المستشـفى، ثـم تركهـا ورحـل دون أن يسـتأذن ولـو مـن قبيـل الـذوق، ظلـت عـدة دقائـق تحـاول فـك لغـز جملتـه الأخـيرة علهـا تفهـم شـيئًا، لكـن دون جـدوى.

اتجـه معـاذ داخـل الحفـل؛ ليسـلم عـلى مـن يعرفـه، اقـترب نحـو طاولـة الجـوكارد فوضـع جـو يديـه عـلى كتـف معـاذ بتلقائيـة؛ ليعرفـه عـلى ذلـك الضيـف الأجنبـي المرمـوق للغايـة؛ فقـال جـو:

- تعـالى عشـان أعرفـك، القنـاص الدكتـور معـاذ يـا فنـدم مـن أفضـل الرجالة عنـدي، وصديقـي على المسـتوى الشـخصي.

ابتسـم الضيـف مرحبًـا بـه؛ فابدلـه معـاذ التحيـة موافقًـا رأسـه؛ فنـاول الجـوكارد كأسًـا بـه مـن الفـودكا، إلى معـاذ قائـلًا:

- بصحتك.

كان يـشرب مـن الـكأس، ولكنـه عيناه لم تغفـل عـن فتاتـه مظهرهـا ملائـكي وهـي ترتـدي فسـتانًا أزرق شـاحب، وتتطلـع بانبهـار وذهـول حولهـا وكأنهـا

لم تذهب لأماكن كهذه قط..

بعد عدة فقرات من الاحتفال، وإلقاء كلمة هاشم صعد معاذ إلى المنصة، ثم توقف على المنصة، قائلًا بنبرة هادئة متزنة تتوافق مع الإضاءة الخافتة المسلط عليه، أمام هذا الحشد الهائل من جميع الفئات العمرية.

- حابب أتكلم على موضوع بيواجه المجتمع في عصرنا الحالي ألا وهو «العنف»: الإنسان حيوان متطور وما زال داخله العنف الحيواني، بيقولوا إن أغلب البشر إذا حقد أو غضب ممكن يقتل، لولا وجود بعض الحدود اللي بيطبقها القانون في الحقيقة، النص الأول من الجملة خطأ ١٠٠٪؛ لأن نظرية دارون اللي مقتنعين بيه الغرب، وبيحاولوا ينشروا ده في كل مكان يتنافى تمامًا مع الآية الكريمة حينما قال تعالى: « وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ» و « لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ» إذًا، لا نقاش في أشياء تم ذكرها في كتاب الحق، إحنا هنتكلم عن العنف بثلاثة طرق للوسائل التي تؤدي إلى العنف؛ الطريقة الأولي من الناحية البيئية؛ فالعلاقة بين العنف والاضطرابات النفسية مثل الاكتئاب والوحدة علاقة طردية، والاضطرابات النفسية والتربية الغير سليمة علاقة طردية جدًا، الإنسان فطريًا بيتولد لديه كتلة من الطاقة الإيجابية بتبدأ تتضاءل تدريجيًا لعدة عوامل نتجية تربية غير سليمة، أو بيئة عير صالحة؛ فتنتقل الطاقة السلبية وتتوراث في مسار انتقال للطاقة، مكونة ما يشبه النظام البيئي، وهكذا ينتج جيلًا من والعنف والنرجسية (شخصية سي السيد) والتطرف ...الطريقة الثانية من خلال مجموعة إحصائيات تواجدت أن هناك علاقة قوية بين الذكورة والميل للعنف، بوسائل عدة عن طريق مثلا زيادة في الكرمسوم، أو خلل في الجينات ممكن يظهر الرجل XY طبيعي جدًا، ولكن من الممكن يكون فية زيادة جينات، أو فرط في التعبر تزيد من احتمالية العنف، أعتقد اختبار الـ ATAC Seq مع RNA Seq ممكن يفصح عن الكثير، الطريقة الثالثة والأهم بالنسبة ليا، إن بعض الشعوب تكتسب بعض الصفات من الحيوانات

الـلي بتأكلهـا بسـبب احتـواء لحومهـا عـلى سـموم معينـة تـسري في دمـاء الإنسـان، إلى أن تصـل نحـو الدمـاغ، وبالتـالي تؤثرعـلى سـلوكهم نتيجـة اكتسـاب بعـض الصفـات بسـبب انتقـال الهرمـون إليهـم أثنـاء الطعـام؛ فبعـض النـاس بتكـون شرسـة في تعاملهـا، ولديهـا نزعـة عدوانيـة، وتميـل إلى العنـف والرغبـة في سـفك الدمـاء؛ ولذلـك قـال ابـن خلـدون في المقدمـة: أكل العـرب الإبـل فأخـذوا منهـا الغـيرة والغلظـة، وأكل الأتـراك الخيـول؛ فأخـذوا منهـا الشراسـة والقـوة، وأكل الإفرنـج الخنزيـر؛ فأخـذوا منـه الدياثـة، وأكل الزنـوج القـرود فأخـذوا منهـا حـب الطـرب. وقـال ابـن القيـم رحمـه اللـه: "كل مـن أَلِـفَ ضربًـا مـن ضروب الحيوانـات اكتسـب مـن طبعـه وخُلقـه فـإن تغـذى بلحمـه كان الشـبه أقـوى»؛ ولذلـك حـرم الإسـلام الكثـير مـن اللحـوم مـن ضمنهـا عـلى سـبيل المثـال؛ أكل الخنزيـر، والـلي نتجيـة زيـادة كميـات كبـيرة مـن تناولهـا في بعـض الـدول لاحـظ انعـدام الغـيرة، وظهـور الشـذوذ الجنـسي، وبعـض الأمـراض، وتـم اكتشـاف الحكمـة العلميـة مؤخـرًا مـن تحريـم الإسـلام هـذه اللحـوم، وصـدق رسـالة الإسـلام، وتحريـم النبـي منـذ أربعـة عـشر قرنًـا بوحـي مـن اللـه سـبحانه وتعـالى حـين قـال: « وَمَـا يَنْطِـقُ عَـنِ الْهَـوَى (٣) إِنْ هُـوَ إِلَّا وَحْـيٌ يُوحَـى»، وأحـب اختتـم كلامـي حـين قـال البـارئ سـبحانه وتعـالى في حـق حبيبـه النبـي الأمـي: «الَّذِيـنَ يَتَّبِعُـونَ الرَّسُـولَ النَّبِـيَّ الْأُمِّـيَّ الَّـذِي يَجِدُونَـهُ مَكْتُوبًـا عِندَهُـمْ فِي التَّـوْرَاةِ وَالْإِنجِيـلِ يَأْمُرُهُـم بِالْمَعْـرُوفِ وَيَنْهَاهُـمْ عَـنِ الْمُنكَـرِ وَيُحِـلُّ لَهُـمُ الطَّيِّبَـاتِ وَيُحَـرِّمُ عَلَيْهِـمُ الْخَبَائِـثَ وَيَضَـعُ عَنْهُـمْ إِصْرَهُـمْ وَالْأَغْـلَالَ الَّتِـي كَانَـتْ عَلَيْهِـمْ فَالَّذِيـنَ آمَنُـوا بِـهِ وَعَـزَّرُوهُ وَنَـصَرُوهُ وَاتَّبَعُـوا النُّـورَ الَّـذِي أُنـزِلَ مَعَـهُ أُولَئِـكَ هُـمُ الْمُفْلِحُـونَ «صـدق اللـه العظيـم.. ..ران الصمـت في منتصـف القاعـة، ثمـة شـبح خافـت خيَّـم عـلي ملامحـة و بريـق خاطـف مجنـون ظهـر في عينيـة، تزيـن ثغـرة بابتسـامة تلونهـا بعـض الانتصـار والزهـو، وهـو يلاحـظ صمـت الجميـع، حضرتـه يتلـذذ بشـعور هـذة اللحظـة، بينـما نظـرات عينيـه مسـلطة نحوهـا، هـي فقـط وحدهـا، وكأن لا يوجـد أحـد في القاعـة سـواها هـي فقـط.

تحـوَّل المـكان إلى جميـع مـن البـشر الذيـن يبـدون إعجابهـم بمحـاضرة معـاذ، وهتفـات أخـرى مـن بعـض النـاس: «كانـت محـاضرة رائعـة».... اقـترب معـاذ نحـو غـروب، وقـد كانـت مشـغول بالطعـام، تـأكل قطعًـا مـن الكعـك بمنتهـى العفويـة، والجميـع مـن حولهـا ينظـر نحوهـا بفضـول واحتقـار؛ فهمـس معـاذ بعبـث إلى أذنيهـا: أسـيبك دقايـق، ألاقيـكي مخلصـة نـص البوفيـه.

لم تسـتطع غـروب إمسـاك نفسـها مـن الضحـك، وقطـع الحلـو ممتلئـة في فمهـا؛ فقامـت بـدس قطعـة كعكـة في فـم معـاذ بمنتهـى العفويـة، وكأنهـا امتلكـت مائـدة الطعـام حتـى تتـصرف بهـذة الحريـة؛ ليضحـك معـاذ بزهـو وسـعادة قبـل أن يرمـق نظـرات مـن حولـه. ظـل الثنـائي هكـذا يـأكلان بنهـم دون اكـتراث لأحدهـم قبـل أن يـأذن لهـما بتنـاول العشـاء، لاحـظ نائـل وجـود هـذه الفتـاة جذَّابـة الملامـح بجانـب معـاذ طـوال الحفـل؛ فقـال مخاطبًـا هاشـم وهـو يشـير بالـكأس نحـو الفتـاة:

- مين دي يا جو اللي مع معاذ؟

نظـر هاشـم نحـو مـا يشـير إليـه؛ ليجدهـا نفـس الفتـاة التـي رآهـا مـن قبـل؛ فمـط شـفتيه باسـتنكار، هاتفًا:

- مـش عـارف، بـس شـكلها صغـيرة أوي، ممكـن حـد مـن قرايـب معـاذ بنـت أختـه أو بنـت عمـه كـدة،

ابتسم نائل بخبث هامسًا، وهو يهز الكأس بحركة دائرية

- هنعرف دلوقتي.

ثم اقترب نحوهما، قائلًا:

- أتمنى تكونوا استمتعوا النهاردة يا معاذ.

فقال معاذ بسعادة حقيقة لم يتذوقها من قبل:

- جدًا.

رد هاشم ناظرًا نحو غروب، قائلًا بصوت أجش:

- أمال مين الحلوة؟

صمت معاذ ولم يعلق عمدًا، ظنت غروب أنه لم يسمعه؛ فقالت بمنتهى البراءة والود:

- أنا قريبة معاذ، بس مش هقول اسمي عشان هو قالي مش تقولي اسمك لحد.

نظر نائل وهاشم إلى بعضهما باستنكار، بينما اتسعت عين معاذ بصدمة، وأقل من ثانية أدرك ما حدث؛ فمد يديه إلى الجوكارد؛ مصافحًا إياه؛ قائلًا باقتضاب:

- نورتنا يا باشا والله، كان يوم رائع، هنمشي إحنا.

ثم جذب ذراعيها استعدادًا للخروج، ولكن أوقفته نورهان، قائلة برجاء خفي :

- إحنا مش شربنا الكاسين زي ما اتفقنا قبل كدة.

هتف معاذ وهو في عجلة من أمره:

- وقت تاني يا نورهان.

ظهرت على وجهها خيبة أمل وحزن، لاحظ معاذ ذلك؛ فترك يد غروب؛ ليقول لها بيأس: خلاص الكأس فين فأعطته إياه بسعادة عارمة، رغم عدم معرفتها ما سيترتب على هذة الكارثة، غمزة وقحة تلقتها نورهان من نائل الواقف خلف معاذ مباشرة، جعلتها تشعر بالقلق؛ فاقترب نائل من الفتاة الواقفة تنظر إلى معاذ، وهو يتجرع الكأس دفعة واحدة باستغراب؛ ليقول نائل هامسًا بصوت ناعم:

- جميل الفستان اللي عليكِ، طالعة بتشبهي الأميرات يا أميرتي.

اتسعت ابتسامة غروب بفرحة عارمة غافلة عن نظراته الوقحة:

- شكرًا معاذ قالي كدة بردو لما اشتراه ليا.

قال نائل بصوت حذر محاولًا استدراجها: هو معاذ يبقى ليك إيه، قرايب؟

تطلعت غروب نحو الأعلى مفكرة:

- لا مش قرايب، أصحاب.

بعد عدة دقائق التفت معاذ إلى الخلف نحو نائل، وغروب تضحك فاستأذن نورهان التي كانت تتحدث معه في بعض الأعمال؛ ليذهب إليهما بغضب حانق؛ جاذبًا ذراع غروب بقوة جعلتها تتأوه ألما بحركة غير متوقعة، فاستأذن مغادرًا المكان بأكمله، اقترب نائل نحو الجوكارد الذي كان يتجرع من الكأس مراقبًا المشهد من بعيد، والغيرة الواضحة بتصرفات معاذ؛ ليبتسم بتهكم قائلًا بنبرة شيطانية خبيثة مستفزة:

- عرفت علاقة معاذ بالبنت إيه؟

تجرع هاشم الكأس جرعة واحدة؛ ليقول باستفزاز:

- عرفت جدًا، وأخيرًا لقينا نقطة ضعف لمعاذ.

ابتسم له نائل دون رد.. بينما في الخارج، حاولت غروب إبعاد ذراعيها من قبضته قائلة بسخط:

- سيب إيدي يا معاذ أنت بتوجعني.

لم يستجب معاذ لصراخها، مكملًا طريقه حتى وصل إلى الدراجة البخارية التي استأجرها لأجلها لنزهتهما معًا؛ فقال بصوت غاضب:

- اركبي.

كتفت ذراعيها بعند، ثم قالت بحنق:

- مش هركب، أنت بتكلمني كدة ليه؟

أخذ معاذ نفسًا عميقًا محاولًا إمساك لسانه عن قذفه بأكثر ما يمكن أن يندم عليه يومًا؛ فقال بهدوء مصطنع:

- أنت إزاي تسمح لنفسك تسلمي على أي حد كدة، وتتكلمي وتضحكي بالسهولة دي، أنت ليه كدة؟

لم تستطع إمساك نفسها عن الضحك، ثم قالت بسعادة:

- أنت بتتخانق معايا عشان كدة؟

صمتت تتشرب ملامحه العابسة، ونظرات عينيه الغير ثابتة؛ فابتسمت هامسة باستنكار:

- أنت زعلت؟

ثم تابعت بمنتهى العفوية:

- أوعى تقول أنت بتغير؟

انقلب معاذ مائة وثمانين درجة حين قذفت هذه الجملة في وجهه بمنتهى السهولة، فقط لو تدرك جيدًا كيف ينظر إليها معاذ في هذه اللحظة، ربما لطبقت على نفسها مقولة: «يارب تنشق الأرض وتبلعني»، ولكن البلهاء لم تشعر به، فقد كانت تنظر حولها بذهول مبهور بمظهر الفندق من الخلف والمارين ذهابًا؛ فأمسك معاذ ذراعيها؛ ليجذبها نحوه، ثم انحنى نحو أذنيها؛ قائلًا ببطء ونعومة بالغة:

- أيوة بغير، وانصحك خافي من جرَّاح بيغير.

توقفت أنفاسها للحظة، وأصبحت وجنتاها باللون الوردي.. متسائلة داخلها هل اختفاء الأصوات من حولها شيء طبيعي، أم هناك خطأ في

أذنيها من هول ما تشعر به رغم بساطة الكلمات، ألم يقل من قبل «أنني لست من النوع الذي يفضله»، ماذا يقصد بذلك إذًا.. قفز معاذ فوق الدراجة، قائلاً بنبرة هادئة:

- اركبي يلا.

همست بصوت مبحوح:

- هنروح فين؟

استند على مقدمة الدراجة، قائلًا بثقة:

- هنروح لأبعد مكان ممكن تتخيليه، سيبي نفسك ليا النهاردة.

قفزت فوق الدراجة خلفه، قائلة بفضول خفي:

- بردو هنروح فين؟

رد بصوت مجنون رغم اتزان نبرة صوته:

- مش بتقولي بتحبي الوحدة، هنروح مكان منعزل بعيد عن جميع البشر.

فما كان منه إلا أن أشار بيده نحو الدراجة البخارية بحركة آمرة؛ فابتسمت بسرور ودون لحظة تفكير قالت بجنون:

- يلا بينا.

***

الفصل العاشر

نظر نائل حوله في كل مكان؛ بحثًا عن معاذ؛ فقال:

- فين القناص يا نورهان.

أشارت نحو المكان الذي خرج منه للتو:

- طلع من المكان ده.

أمسك نائل خصلات شعره بقوة وعنف، ثم هامسًا شاتمًا يلعن هذا الحظ الذي يتوقف أمامه ككل مرة يحاول بها الإمساك بمعاذ، دلف إلى الداخل بوجه عابس قانط، لا يضيق التحدث مع أحد، لاحظ ذلك الجوكارد؛ فهمس قائلًا ببطء مترقب:

- خلصت المطلوب منك يا نائل.

قال نائل بتردد وهو داخله يلعن هذه الغبيه على عدم إلهائه بعض الوقت:

- القناص خرج هو والبنت اللي كانت معاه يا جو..

استشاط غيظًا، وهمس شاتمًا، ثم قال بنبرة حانقة من بين أسنانه:

- والمفعول اللي في الحقنة يا دكتور، أنت عارف إحنا حصلنا عليها إزاي، عارف أساسًا تكلفتها عاملة كام؟ هذا المخدر الذي يسمى بنفس الشيطان، ثم قذف السيجارة الفاخرة التي بيده مغادرًا المكان، تجرَّع نائل دفعة واحدة من الكأس، ساخطًا على مخططه الذي باء بالفشل قبل أن يبدأ، مفكرًا في القادم.

****

وبعد وقت طويل، وصلا إلى مكان شبه مهجور، يتواجد به مكان ضخم أشبه بالقصر، ولكن هيئته تدل على أنه قديم الأزل، معالمه

تبدو من التراث القديم، دخلا سويًا، ثم أغلق الباب الحديدي المهترئ خلفهما. فاغرة غروب فاها بذهول نحو هذا المكان الشاسع والواسع والحوائط المزخرفة، بطريقة فنية مبهرة، والفراغ المنتشر حوله إلا من بناية قديمة متربة في آخر الطرقة؛ فاستدارت إليه، قائلًا بذهول وانبهار:

- عرفت المكان ده إزاي؟

كان يضع يديه في جيب بنطاله، قائلًا بخفة وهو يشملها بنظرات عينيه:

- أنتِ فاكرة إنك الوحيدة اللي عندك سر، كلنا لينا أسرار ومكان بعيد منعزل عن العالم الخارجي نقدر من خلاله نعمل غربلة لأفكارنا وحياتنا عشان نقدر نكمل من جديد.

ثم أخرج من جيبه وشاحًا من الحرير باللون الذهبي وتقدم إليها ببطء وحذر، ونبرة غريبة عن عالمها:

- غروبي الليلة، هتتكلمي عن حياتك كلها، وتفتحي الصندوق الأسود.

ثم قام بربط الوشاح حول عينيها حتى لا ترى شيئًا، تصارعت أنفاسها حين شعرت باقتراب منها؛ فقالت بصوت باكٍ خائف:

- أنت هتعمل إيه؟ وليه بتحجب عيني عن النور أنا بثق فيك و... قطع كلماتها المبعثرة المشتته حين همس بنبرة هادئة تتناسب مع المكان الكلاسيكي:

- لحد آخر لحظة في عمري، معاكي هكون قد الثقة دي، ده وعد والوعد دين، بس أوقات بنبقى عايزين نتكلم بدون حواجز، بدون من نخاف من نظرات الطرف التاني؛ فنبطل نتكلم رغم إننا عايزين نكمل يمكن نرتاح.

ابتعد عنها بهدوء؛ لتشعر بالفراغ؛ فقالت بطفولة خائفة:

- أنت بتبعد ليه؟

رد معاذ بصوت يبدو طبيعيًا، وهو يتراجع للخلف، مبتعدًا عنها:

- أنا قريب جدًا منك، أنا أقرب إليكِ من نفسك، خدي راحتك في الكلام، أنا سامعك.

جلس معاذ على كرسي قديم الطراز، مدقق النظر إليها، ثم لمح دمعة حزينة تسقط من عينها بصمت؛ فحثها على التحدث بحذر، قائلًا: غروبي، أنا متقبل كل كلمة هتقوليها مهما كانت، ثقي بي وقولي يمكن أقدر أساعدك.

انقبض قلبها وهي تلهث بعنف، أفكارها مضطربة وقلبها ينتفض بشدة، والماضي وكأنه شريط يدور في خيالها، ارتجفت شفتاها كالأطفال، ثم قالت بدون مقدمات:

- كنت متجوزة راجل أكبر مني بـ٣٤ سنة.

*****

أول صدمة تلقاها معاذ حين انتصب ظهره فجأة، ابيضت مفاصل أصابعه بشدة وبرزت عروقه، انتقبض كفاه رغمًا عنه على ذراعي المقعد، همسها رغم هدوئه، يناسب ارتفاع وانخفاض عضلات صدره المتقافزة بتشنج، بينما اشتعلت عيناه بغضب أسود، وأصبح مظهره مخيفًا للغاية؛ فقد كان محقًا حين أخذ هذه الخطوة؛ فقال بنبرة حاول أن تبدو طبيعية:

- وبعدين؟

جلست على ركبيتها فوق الرخام البارد، ثم تابعت قائلة:

- كان كل يوم يتقدم لبابا واحد شكل، ومش هقولك إيه مواصفاتهم؛ لأني كنت عايشة في أقذر أماكن العشوائيات، لحد ما اتقدملي، طبعًا بابا مترددتش في جوازه مني؛ لأنه هيدفع أكتر من باقي العروض اللي قبل كدة، مكنتش عارفة أرفض؛ لأن والدتي لما قالت لا على جوازي بحكم

سني مرة ضربها بحديدة في وشها قتلها، وعدى الموضوع بكام شاهد زور، أصبحت أضعف من مواجهته، كل يوم رجاله سكيرة بيسهروا في بيت أمي من أسوأ فئات المجتمع بقيت بنام وأنا خايفة.

صمتت عدة دقائق تمسح دموعها من تحت الوشاح بطرف قميصها؛ فقال معاذ يستدرجها متوقعًا جوابها الحتمي:

- وحالك كان عامل إزاي مع الراجل ده بعد ما تجوزتيه؟

تطرق برأسها مجددًا، وهي تلهث بعنف، أفكارها مضطربة وقلبها ينتفض،الماضي وكأنه شريط يدور في خيالها، اتسعت إبتسامتها بحزن، ثم قالت بشجن:

- كانت الرحمة اللي جات ليا من السما، كان الرزق والهدية اللي ربنا باعتها ليا، أفضل أيام حياتي عشتها في عهده، أنا تعبت جدًا في حياتي، بس لما سابنا انكسرت أوي بعده؛ لدرجة إني حاولت الانتحار كتير، آخرها اللي أنقذتني فيها.

هز رأسه رافضًا بنفور، محاولًا استيعاب ما يسمعه، هناك بالتأكيد شيء خطأ في الكلام؛ فقال بنفاذ صبر:

- طب إزاي؟!

ردت غروب بألم وحنين، وهي تشد من التنورة التي ترتديها:

- كان نعم الأب، دخلني أفضل المدراس، كان بيعاملني زي بنته وكنت بقوله يا بابا، عمره ما حسسني إني أقل من أولاده، رغم أنهم كانوا أكبر مني, وبغيروا من معاملته معايا، دخلني أرقى المدارس، وكان بيصرف عليا كتير، وقبل ما يموت كتب في وصيته إن ليا ميراث في تركته بس أولاده طردوني بعد وفاته، ورفضو إن يكون ليا أي حاجة، يدوب اللبس اللي كان عليا، ولما رجعت تاني لنفس البؤرة، مستحملتش الإهانة، وسمعت بوداني ومراته بتقترح عليه إنهم يأجروني، قلت كفاية

بقا كدة عليا الحياة، وقررت إني أنتحر، أروح لحد عنده طالما لسة مش آذن بأخذ روحي، هو أحن عليا منهم كلهم، هو عالم مصيري كان هيبقى عامل إزاي.

اقترب إليها معاذ، ثم جلس القرفصاء أمامها مباشرة، ثم أزاح الوشاح من فوق عينيها الكبريتين اللتين أصبحتا بلون الدم، وأمسك ذقنها برقة؛ ليرفعهما نحوه؛ فقال بنبرة غريبة: مسألتيش الراجل ده ليه عمل معاكي كدة؟

طأطأت رأسها موافقة، ثم قالت بإيجاز:

- سألته كتير خلال الفترة اللي عشتها في القصر بتاعه قالي دين، وقبل ما يموت طلب يشوفني لوحدي وقالي إنه كان بيحب والدتي، وكانت حلم حياته، بس والدي هو اللي فرق بينهم، وأمي اتجوزت الشخص ده عرفي، ولما اتخلى عنها اضطرت تتجوز الراجل اللي أنا قضيت عمري كله معاه، وأنا فاكراه والدي، بصراحة كنت ديمًا بستغرب راجل زباله زي ده، والدتي مستحملة منه الذل والإهانة والضرب ليه، مع إنها من مستوى اجتماعي كويس، طب ليه مش بشوف أهلي؟ أمي ليه مقاطعينها، مؤخرًا جاوبني على السؤال ده، كلامه قالي دوري على والدك الحقيقي، وابحثي عن صندوق كان من ضمن الهدايا، وإنه أصبح من أكبر رجال الأعمال في البلد.

وضع معاذ يديه في شعره بعدم تركيز، ثم قال بتساؤل:

- فين الصندوق ده، ومين الراجل ده؟

قالت غروب بشرود:

- معرفش هو قالي مفتاح الصندوق معاه هو، لما تلاقيه خليه يشوف السلسلة دي وهو هيفهم كل حاجة.

أخرجت السلسلة التي تحدث عنها من قبل.

أفاق معاذ من الحالة التي كان بها، والتوى فمه بتهكم؛ ليقول بعدم تركيز، وهو يهز رأسه غير مصدق:

- حقيقة دي ولا خيال، أنا مكنتش متوقع كل ده، ولا أعرف الغموض اللي محاوطك بالشكل ده، بس اللي أعرفه غروبي أنتِ هديتي ورزقي من الدنيا، حقك هيرجعلك من اللي ظلمك، وده شيء مفروغ منه، الأهم إننا لازم ندور على والدك.

طأطأت رأسها بحزن شديد، وقالت بتحشرج:

- أنا عندي فضول أشوفه عشان أسأله أنت ليه عملت مع والدتي كدة؟ ليه تغلط غلطة تدفع ثمنها أمي عمرها من ذل وإهانة، وأكون أنا اللي بدفع الثمن، أنا بكره حياتي، وديمًا بحس إن وجودي في الدنيا كان أكبر خطأ، وكل ما افتكر إني مجرد غلطة بكره نفسي أكتر.

رد معاذ قائلًا بجدية رغم صوته الرقيق:

- لا مش غلطة، ده أنا اللي طيب، وابن حلال ومحظوظ عشان أصادف في حياتي النقاء والطيبة دي.

ابتسمت من بين دموعها، فقام بمسح الدموع المتساقطة على وجنتيها الناعمتين، ثم قام وجذبها من ذراعيها، قائلًا بمرح:

- تيجي نرقص.

قفزت من أمامه، قائلة بلؤم:

- الدور عليك يا دكتور.

عبس وجهها رغم ابتسامته المهلكة المزينة ثغره؛ فهز رأسه رافضًا، ولكن غروب نزعت الوشاح من رأسها، ثم رفعت أصابع قدميها إلى أعلى، حتى تستطيع أن تصل إليه ثم قامت بتغطية عينيه لتقوم بربط عقده على مؤخرة رأسه بأحكام ليقول معاذ بعدم فهم:

- بتعملي إيه؟

قالت غروب بإصرار وحسم:

- عايزك تلف وتدور بحرية في الملاذ ده، وتقولي حاسس بإيه، متجاوبش على طول، خد وقتك.

أخذ معاذ نفسًا عميقًا، ثم هتف بحيرة:

- حاسس بتوهان.

قالت غروب بنفس نبرته:

- إزاي؟

ظل يدور حول نفسه بأريحيه، ثم قال بنبرة رزينة هادئة:

- طالما فيه بشر يبقى فيه شر حقد خوف قلق.

جلست في نفس المقعد، ثم قالت بحذر:

- عشان كدة بتحب الوحدة.

رد معاذ بصوت متباعد:

- لا مبحبهاش، بس أنا ببعد عشان أتجنب الأذى.

قالت غروب باستنكار:

- غريبة، مع إنك بتتعامل مع مختلف أنواع البشر، ويمكن أخطرهم بحكم مهنتك.

رد معاذ بوضوح وأريحية مندهشًا من ذاته:

- عارفة إحساس الألم بيكون عامل إزاي، والكسرة اللي بتجي في غير معادها، أول ما تخرجت اشتغلت في الطوارئ، من الحالات اللي مرت

عليا ومش قادر أنساها، حالة شاب عنده إصابات متفرقة في كل مكان نتيجة شجار، في الوقت ده شوفت أسوأ شريط مر عليا في حياتي في ثواني تفكيري اتشل، لقتني بهرب من الغرفة بأكلمها، هربت من الشاب اللي كان بينزف من كل مكان، عرفت وقتها إني مكنتش بهرب من الحالة، كنت بهرب من شبح الماضي، وقتها بس اتأكدت إن الماضي هيفضل يطاردني لحد أموت، وده كان بيخلي الحقد يزيد أكتر من الأول. رغم إنها لم تفهم ما يقصده من حديثه، إلا أنها قالت بأسلوب آخر حتى يوضح ما يتفوه:

- الألم والكسرة السبب لانتمائك دايمًا للعزلة.

مط شفتيه بقلة حيلة، هامسًا ببطء:

- لأني اكتشفت إني كل ما أتعامل مع الناس أكتر بفطرتي، بخسر جزء من الطفل اللي جوايا، لحد ما روح البراءة بقت zero، وتحولت لمسخ بقا بيخاف يأذي اللي حواليه، عشان محروم من عدم الشفقة، وإحساس الحب والأمان والمثاليات اللي بنسمع عنها.

قالت بإشفاق:

- عشان كدة بتحب الوحدة.

هز رأسه بقوة رافضًا ومقاطعًا:

- لا طبعا، كداب اللي يقولك كدة، بالعكس أكتر ناس بتقول بحب الوحدة أكتر إنسان خايف ومنتظر من الحياة فرصة لو وقعت في طريقه مش هيفوتها، هيمسك فيها بإيده وأسنانه، الإنسان بيحب التجمع، الزحمة المشكلة إن الإنسان بيهرب من الماضي، واللي هو ميعرفوش إنه ذاته.

قالت غروب بنبرة إدانة:

- إزاي شخص جواه كل الحقد ده من العالم وتصرفاته عكس اللي جواه

معقـول يكـون تمثيـل؟

قال معاذ مكررًا ساخرًا:

- تمثيل، ليه أنت شايفاني شخص مش سوي؟

قالت غروب بخوف من القادم، وانحراف السيناريو؛ لينقلب ضدها:

- تصرفاتك معايا بتقول كدة!

اتسعت ابتسامة، ثم ضحك بخفة هامسًا:

- مش جايز تصرفاتي معاك أنتِ يكون بدافع حاجة تانية؟

تصارعت دقات قلبها بعنف؛ فقالت مغيرة محور الحديث، هاتفة:

- أكيد أنت حد مهم جدًا للناس اللي حواليك ومفيد بحكم مركزك.

رفـع معـاذ أحـد حاجبيـه، ملاحظًـا كيـف تتهـرب مـن محـور الحديـث، مغـيرة الموضـوع؛ فتغـاضى عـن ذلـك قائـلًا بتهكـم:

- مفيـد جـدًا ممكـن، أو تقريبًـا هـما بيوهمـونى بكـدة، أنـا عمـري مـا كنـت مهـم لحـد، أنـا مجـرد وهـم ، مسـخ دلوقتـي ولسـنين كتـيرة فاتـت لحـد مـا بقـت زي الكتـاب القديـم الـلى فقـد قيمتـه وفايدتـه واترمـى عـلى الـرف لحـد مالعنكبـوت نسـج عليـه والـتراب طمـس ملامحـه، مـش هكـون ببالـغ لمـا أقـول إني حاولـت كتـير أعمـل لنفـس حيـاة جديـد، ولكـن فشـلت حتـى إني اتسـببت في تلـف جسـدي، وتدمـير نفـسي لحـد مـا بقيـت زي المزهريـة بـدون ورد، يمكـن شـكلها مقبـول مـن بـرة، لكنهـا ملهـاش قيمـة لأنهـا فاضيـة.

شـعر ببعـض الـدوران، ثـم أغمـض عينيـه؛ ليذهب نحـو العـالم الثـاني، متذكرًا عندمـا كان يلعـب الكـرة مـع زملائـه، ثـم قـام بـركل الكـرة بقـوة؛ لتصطـدم بزجـاج أحـد السـيارت الفارهـة، وضـع يديـه عـلى جبينـه بصدمـة وتغـير وجهـه كالـذي فعـل مصيبـة ليـس لهـا حـل، قـام بالعـدو نحـو السـيارة؛ ليجد

شابًا في نفس عمره يخرج من السيارة صارخا بجنون وتهور؛ ليقذف أبشع الألفاظ على من قام بتهشيم زجاجة سيارته الجديدة الحديثة، كان معاذ يعلم جيدًا أن في هذا التوقيت من أشهر السنة يأتي جميع فئات المجتمع والطبقات الراقية؛ ليقضوا الإجازة الصيفية مع أجدادهم، تحمَّل معاذ هذه الشتائم المهينة معتذرًا لهذا الشاب المدلل، ولكن عندما وجد أنه لا يكف عن الصراخ؛ ليتحدث معه ويقدم له الحلول المتاحة، تركه معاذ ورحل من المكان، مما أثار الغضب والنار الهوجاء في عائلة الصبي المدلل؛ فأرسل إليه من قبيلة هذا الصبي أحد الرجال في المساء ليعتذر، ولكن خشي معاذ أن يذهب هناك حتى لا تكون مكيدة مدبرة له؛ فهو يعلم ما يمكن أن يفكر به شاب مدلل كهذا، ولكن لم يتوقف الأمر هنا؛ فكيف يتجرأ هذا الفتى على تهشيم زجاجة السيارة الفارهه لمدلل حتى لوكان خطأ غير متعمد؛ فأرسل إليه عدة تهديدات، وبعد أيام ليس بقليلة كانت نتيجة الثانوية العامة قد ظهرت، وعندما علم معاذ بأنه الأول على القرية التي يقطنها جاء؛ ليصرخ فرحًا أنه قد حقق الهدف الأول من أحلام والدته، ولكنه لم يحرك ساكنًا من الصدمة حين رأى منزلهم الصغير المتواضع يحترق، والجميع يصرخ محاولًا إنقاذ السيدة التي بالداخل، وبعد وقت ليس بكثير استطاع استنتاج الفاعل، حين قال له أحد رجال القصر يجب أن يعتذر بتحدٍ وتهديد:

- الباشا كدة هيزعل..

تميز معاذ غيظًا فقال بتبرم: ما يولع أعمله إيه، ما أنا اعتذرت مرة ..هذه الجملة البسيطة العفوية التي تلفظ بها للتو كانت السبب في جعل الباقي من حياته مشتعلة بنار هوجاء لم تهدأ داخله حتى الآن؛ فقام بحمل السلاح الأبيض»مطواة» دمية في جانبه، ولكن كانت الرحمة عندما اكتشف أمره في قصر مليء بالحشم والخدم، وأن يقوم بضربه فقط حد القتل، ولم تكن تصل إلى القتل، لم ينس أبدًا تلك النبرة الخالية من الرحمة والحياة، وهي تبث أبشع الألفاظ في أذنيه من أحد شباب

العائلة «الجوكارد».

لم يكن ينظر لوجهه وهو يتحدث ويهدد بكلماته السامة، لكنه كان يختزن بداخله كل قطرة سم يبثها داخل روحه؛ لتكون حجرًا آخر في جدار الانتقام الذي سيبدأ للتو فقط، منحني ينظر نحو البعيد والدماء تسيل من جانب فمه، حينها تذكر حديث والدته أنه يجب أن يبحث عن أخيه حتى يكون له سندًا ولا يظل هكذا وحيدًا في الحياة وإن كان أبوه تركهم مؤخرًا، ولكن هذا ليس ذنب أخيه، ثم ظهر أمامه وجه طفولي برئ، فتاة التي كانت ترواده في أحلامه كثيرًا؛ ليذهب إليها مأخوذًا بعينيها الساحرتين، متجهًا وراءها حيثما ذهبت.

ابتسامتها جميلة للغاية،ولكنها قد تبدو غريبة جدًا، يوجد بها نوع من الألم، الحسرة وخيبة الأمل...وال...والحرمان، يبدو أن الوقت قد تأخر كثيرًا..ترى لو كان صادفها وهو في حال أفضل كان سيتراجع عما في رأسه، أم سيترك للقدر رأي آخر؛ ليخطط لحياة مثالية كما تنبغي أن تكون. كان العالم لا يزال يدور من حوله وهو يترنح يمينًا ويسارًا، الصداع يكاد أن يفتك برأسه، كان صوتًا مضخمًا مثقلًا عليه، وهو يحاول فتح عينيه بصعوبة، وكأن عقله مستسلم للسقوط نحو الذكريات التي يتعايش عليها رافضًا الواقع وما فيه، إلا أن الصوت الأنثوي الراقي المصر يجذبه للواقع؛ فهمس معاذ بتعب:

- أنا فين؟

قالت غروب بقلق حقيقي:

- معاذ فوق إحنا في الملاذ.

فتح معاذ عينيه بصعوبة محاولًا استيعاب المكان إلى أن أدرك جدران القصر، وإضاءة الشمس التي تزعج عينيه؛ فهمس بصعوبة وهو يرمق بعينيه: إحنا بنعمل إيه هنا؟

ابتسمت هامسة بطفولة:

- أنت فقدت الذاكرة ولا إيه؟! أنت اللي جبتنا هنا إمبارح.

نهض معاذ سريعًا وكأنه لدغته عقربة، مبتعدًا عنها، وهو يقول بإرهاق بالغ:

- إمبارح، هو إيه اللي حصل بالضبط.

ضحكت غروب من تصرفه، ثم قالت بابتسامة مستفزة:

- اعترفت بكل حاجة إمبارح، إيه الصراحة دي، وإيه الكلام الغريب اللي قولت ده؟

توترت أعصاب معاذ من كلمات هذه الجنية الصغيرة «هل ستلعب بأعصابه هكذا كثيرًا»، رفع يديه إلى جبهته، وقال بتعثر وصوت خشن:

- أنا قولت إيه بالضبط؟ّ

وضعت يديها على خدها، مفكرة ثم هزت رأسها بجنون، قائلة:

- ما هو أنا مفهمتش أي حاجة من اللي قولتها.

أخذ نفسًا عميقًا، ثم قال براحة:

- الحمد لله إنك مفهمتيش حاجة.

قطبت جبينها باندهاش رغم أنها تتذكر كل كلمة تلفظ بها معاذ، إلا أنها حقًا لم تفهم الكثير مما قال، وكأن بعض الكلمات تشبه الطلاسم.

****

كعادته يقف في إسطبل الخيول، ذاك المنفى الذي يهرب به معاذ من العالم، أمام فرس محدد مبهر الجمال، يتأمله مبتسمًا ليملي عينيه من سحر جماله الناعم الأسود المخملي، ظل يداعب الفرس بصمت دون أن يظهر شيئًا مما يفكر به على ملامحه المتحجرة بفعل شهور وسنين، تربى بها أسوأ من أحدهم يظن؛ ليشرد بذكرى قريبة إليه للغاية،

كلما يشعرأنه يحتاج إلى فاصل في حياته حتى يستطيع الاستمرار بنفس الصمود، ونفس القناع الجامد الذي يتعامل به مع الآخرين بحكم عمله، ولكن هذه المرة كان يفكر كيف استطاع أن يبوح ما بداخله هكذا بمنتهى السهولة إلى هذه الصغيرة، ليست عادته على الإطلاق لم يعتد التحدث بحرية هكذا عن حياته بشكل عام، ولكن ماذا عن الماضي، يشعر بالحنين لما يحدث له، صوت داخله يصرخ قائلًا إن الأمر لم يكن بوعي، ولم يكن عفويًا على الإطلاق، ربما لو كانت فتاة أخرى غير غروب؛ لتخلص من الصخب الذي يطوف في عقله بلا هوادة؛ ليجعل مصدر الشك إليها، لكن هذا أشبه بالمستحيل، رغم وعيه أن الغدر حينما يأتي من الأشخاص الذين أفرطنا في ثقتهم و...،.. ولكن قطع دائرة الصراع الذي يدور بلا نهاية، حينما وجد سلاح أبيض»مطواة» انطلقت من الخلف؛ لتضرب في الباب الخشبي الذي كان يقف أمامه يراقب الخيل، كانت حركة فجائية جعلته يسلط النظر بذهول نحو المطواة المنغرسة في الخشب، والتي كان تبعد عن رأسه بضع سنتيمترات، يبدو أن هناك قناصًا محترفًا آخر، ظل مدقق النظر لمدة دقيقة دون أن يستدير متعمدًا، ثم سمع صوتًا قاصفًا مهددًا مخيفًا:

- بيقول أول الحرب بتبدأ بهدوء.

أخيرًا استدار معاذ إلى الصوت الخلفي؛ ليرى شابًا طويل القامة، يرتدي زيًا أسود قاتم وقلنسوة بلون الزي الذي يرتديه ومصوب سلاحه نحوه مباشرة؛ فقال ببرود قاتل، وكأنه يتعرف على أحدهم دون أن يدرك الموقف الذي به:

- أنت مين؟!

رد عليه عمر بنبرة بها من الشر والحقد:

- أنا اللي جاي أمحيك من على وش الأرض أنت والباشا بتاعك، بس مش كل الحرب خدعة.

حك معاذ ذقنه ومط شفتيه باقتناع زائف:

- النزاهة في الحرب دايمًا بتقلب ساحة المعركة، وتخلي المنتصر مهزوم والمهزوم منتصر.

هتف عمر، قائلًا بصوت صارم، ويديه على الزناذ:

- أنت مضطر تنفذ كل اللي مطلوب منك.

أشار بيده أن يتوقف هاتفًا باستنكار ساخر:

- وأنت مضطر تقولي مفكر نفسك مين عشان أقولك أمرك ياسيدي.

زمجر عمر بسخرية، قائلًا:

- مش مهم تعرف أنا مين.

قال معاذ بشك:

- النقيب عمر.

كانت كلمة موجزة انطلقت من فم معاذ، جعل عمر يتسمر مصدومًا من ذاك الشاب حين، قال معاذ:

- وأنت صبي من صبيان الجوكارد.

صمت قليلًا، وقد شل تفكيره تمامًا، كما الواضح أن الهدف حقًا مشترك، ولكن هو لا يدري بذلك مما جعله يسمع نبرة استنكار منه:

- إيه، استغربت ليه، فاكر معلوماتي بس أنك مجرد شغال في المستشفى بتاعته.

أشار معاذ بحاجبه نحوه قائلًا بثقة وأعين مبتسمة:

- عمر بيه اللي طول الوقت في دماغه ولا كأني مجرم.

أجابه عمر موافقًا بنبرة إجرام، ومازال السلاح مصوبًا في وجهه:

- وأنت القناص بقا، اللي طول الوقت بيتكلم عليه، صحيح دكتور ولا قناص؟!

رد معاذ ببرود جليدي رافعًا حاجبيه معًا:

- اللي يجي على هواك يا باشا.

رد عمر قائلًا باستحقار ليستفزه:

- تعرف أنت شبه مسجون عندي اسمه الليمع، ليمع عشان بيلمع المناطق الوسخة اللي زي أمثالك، واللي أنت أساسًا كنت متربي فيها، وعشان كدة الليلة لازم واحد يموت.

- يبقى أنت.

هذا ما تلفظ بها معاذ بعد أن أظلمت عيناه فجأة، وظل يقترب منه ببطء حتى قذف من يديه فرشاة يداعب بها الخيل جعلها تصدر صوتًا، مما جعل عمر ينظر نحو مصدر الصوت، ويتطلع نحو ما ينظر إليه معاذ؛ ليستدير في نفس اللحظة؛ ليجد معاذ أمامه مباشرة محاولًا خطف السلاح من يديه، ولكن لم ينجح حين اشتد بينهما معركة كانت متكافئة استمرت لما يقرب من نصف ساعة.

كل منهما يطلق على بعضهما أبشع الألفاظ، وكل منهما يحاول ضرب الأخر بأقصى ما يستطيع؛ فصرخ معاذ، قائلًا بصوت متقطع: الانتقام كان هدفك من البداية لمحتها من أول ما شوفتك في المشرحة.

كاد ليبتعد معاذ خطوتين للخلف من هول اللكمة التي هجم بها عمر، إلا أن معاذ صرخ مستسلمًا حين وجده قاما بكسر زجاجة، ثم التقط منها الشظية؛ ليضربه في وجهه، يقسم معاذ في تلك اللحظة أنه ليس في وعيه على الإطلاق؛ فقال وهو يرفع يديه باستسلام:

- إحنا هدفنا مشترك.

توقف عمر في آخر لحظة عما كان ينتويه دون تردد قائلًا بحذر، وهو يلهث بشدة:

- إزاي هتخون الباشا بتاعك مثلًا..

قالها وهو يبتعد عنه، فقام معاذ من مكانه، وهو ينفض الغبار من جسده، ثم أردف بسخرية ونبرة مميتة:

- لو كنت عملت تحريات حقيقة عني فعلًا يا حضرة الضابط كنت عرفت إنه من ألد أعدائي.

كرر عمر ساخرًا:

- ألد إيه ....وصابر كل السنين دي ليه انسحبت، ولا آكل عيشك معاه.

- أوقات الانسحاب بيكون بداية الانتصار.

- منتهى الغباء، الانتظار وتدوال الأيام عشان تشوف على حياة عينك، رد المظلمة ممكن ميحصلش أنت كدة مستسلم.

قال معاذ بشرود، ناظرًا نحو البعيد هاتفًا:

- كل بداية وليها نهاية، الوقت المستقطع بينهم بتقدر تقرر شكل النهاية عاملة إزاي، ومش بعيد ترسم أبعادها عشان تقدر تقتنص نقطة الضعف وتصيب الهدف، أوقات التسرع بيدمر، لكن التريث بيقلل نسبة الخطأ، خاصة وأنت عارف إن الخصم ذكي جدًا، ويقدر يميحطك وبسهولة يا إلا مكنتش دلوقتي قدامي بتهاجمني كدة على اعتبار صبي من صبيانه.

كانت الجملة الأخيرة بها نبرة من الاستهانة والسخرية.. فقال عمر بتريث بعد أن شعر ببعض الهدوء والمنطقية في حديثه:

- عندك فكرة في دماغك.

ابتسم معاذ بشيطانية، قائلًا بحقد دفين:

- عندي أفكار....

****

ظل جالسًا بالسيارة ينتظر معاذ، بينما أسند مقدمة رأسه للخلف، مغمضًا يتذكر هذا اليوم المشؤم المحفور في ذاكرته، اشتدت قبضة عمر على عجلة القيادة من هول ما يشعر به، زفر بقوة ثم استغفر رغمًا عنه بصوت مسموع، لم يستطع التوقف عن التفكير فيما حدث في الماضي القريب، القريب للغاية، حينما تجمدت تعابير وجهه مرة واحدة واسودت عيناه، وأصبح مظهره مخيفًا للغاية عندما سقط الهاتف فجأة، رفع أمين الشرطة والذي يدعى»حسن» عينيه عن الورق الذي كان يقرؤه؛ ليصطدم بمظهر عمر الذي توقف فجأة؛ فقال حسن بقلق:

- عمر بيه أنت كويس؟

أخذ عمر المفتاح والسلاح وهو لا يرى أمامه حسن الذي كان يلحقه، قاد عمر السيارة بأقصى سرعة حتى تخطى عدة إشارات، ولم يشعر بنفسه ولا حسن الذي ينادي عليه بقلق؛ عله يتحدث عمَّا وراء هذه الرسالة الغامضة التي جعلته يبدو كروبوت متحرك ينفذ أوامر، بينما لا يتردد في ذهن عمر سوى الرسالة التي أرسلت له مؤخرًا. انطلق سريعًا نحو المشفى؛ ليجد ضابطًا يستند على عصاه بالكاد يقف مطأطأ رأسه بحزن كسير، وبعض العساكر، وأصوات نساء تبكي بقوة أصوات متزاحمة حوله وذهن مشتت للغاية، تجاوزهم جميعًا دون أن يتفوه بكلمة واحدة متجهًا نحو الغرفة؛ ليجد الطبيب يفتح له الثلاجة الخاصة بالموتى؛ ليجد جثة صديق طفولته سمير، الشيء الوحيد المبهج في حياته، الوحيد الذي وقف بجانبه في معظم الأزمات والمصاعب التي مر بها، وتخطا معًا، داخله سؤال يصرخ بعنف صديق طفولته ومراهقته

وشبابه يذهب هكذا في غمضة عين، صدمه الخبر التي تلقاها للتو جعلته يتوقف صامتًا، لا يسمع المحققين ورجال الشرطة ولا أحد، وكأنه متيقن أن هذا كابوس سيفيق منه بعد عدة دقائق؛ ليشاكسه ككل يوم، ويتحدث معه عن أحلامه التي سوف يحققها معًا كما اتفقا، وتخطيط لتربية طفلته الصغيرة، ابتعد بخطوات غير متزنة عن هذه الغرفة ومن فيها؛ فكل ما يحدث بالداخل غير حقيقي وغير منطقي أبدًا، وكان أول ما جذبه داخل حضنه عابد، وهو يقول في أذنيه مواسيًا:

- الصبر الصبر يا عمر، وربنا ما هنسيب اللي عمل كدة، بس الصبر.

بينما عمر لا يسمعه، لا يسمع أحد، هو فقط يسمع صوت ضحكاته المميزة الخشنة، متيقن أن كل ما يراه أمامه حقيقه لا مستحيل، مراسم العزاء والدفن حدثت أمام عينيه وهو صامت لا يتحدث بثمة كلمة، فقط يحرك رأسه كإشارة رد التحية يقف يرمق الناس من حوله كالمشاهد الذي يشاهد مسرحية سودواية، ليس له دور بها، فقط يشاهد دون تعليق وهو موقن داخله أن ما يحدث فترة مؤقتة، ثم يعود لحياة من جديد هو وصديقه، ورغمًا عنه سقطت دمعة من عينيه؛ فمسحها سريعًا بإصرار، ثم أزاح تلك الدمعة الخائنة اللعينة التي تلتها من على وجنتيه، وكأنه يخش أمام نفسه أن تنهار تلك القوة التي يحتاجها في الأيام القادمة، ذاك الصامد الذي يشبه الجبل الجليد في قوته وهيبته، داخله ضعف كالزجاج الهش للغاية، إذا لمس أحدهم يكسر ويتفتت إلى قطع صغيرة على الفور. وعندما دخل معاذ السيارة بجانب عمر، وضع يديه على كتفه، قائلًا بإشفاق على كتلة الألم المتمثله أمامه، رغم أن فقر التعامل مع الانهيارات والمواساة كل واحد منهما داخله جراح لا تنتهي أبدًا، ليس لديه طاقة؛ ليواسيه في مصيبته التي حدثت له؛ فقال باقتضاب:

شد حيلك يا عمر بيه، ده امتحان صحيح صعب شوية، بس هيعدي، الصبر على الابتلاء ليه جزاء عظيم عند ربنا، وربنا بيعوض.

كان شاردًا في البعيد، لا يسمع ماذا يقول، فقط يهز رأسه موافقًا، ثم

قال بصوت متباعد قادم من بئر عميق: هنعمل إيه دلوقتي؟

قال معاذ بنبرة باهتة: هنركز على رأس الحية هو البداية، ثم أخرج سيجارة من علبته، وقام بإشعالها؛ ليأخذ نفسًا كبيرًا، قائلًا بنبرة مخيفة:

- بداية الطريق لازم تدفع الثمن، الثمن غالي.

قال عمر بنبرة ميتة باهتة، دون أن يلتفت إليه:

- وأنا مستعد.

التوى فك معاذ بسخرية، قائلًا باستهانة:

- كلنا بنقول كدة في البداية.

التفت نحو عينيه بقوة، ثم مط عمر شفتيه هامسًا:

- مفتكرش أن كلنا واحد، من الأفضل تتكلم عن نفسك بس، أنت لسة متعرفش أنت بتكلم مين.

هز معاذ رأسه بإعجاب ساخرًا هاتفًا:

- الأيام هتثبت لنا...مين بالضبط اللي بنكلمهم يا باشا..

قال عمر بدون مقدمات، وهو ينظر نحو البعيد يائسًا:

- بس أنا هقدم استقالتي.

التفت إليه معاذ، قائلًا بحدة:

- لا يا عمر بيه، لازم تكون محافظ على الميري هيساعدنا كتير وبالقانون.

تؤرجح ساقيها كالأطفال بينما هو يراقب تحركاتها، ارتجفت أصابعها وهي تدس خصلة خلف أذنها، كانت تطاير فوق عينيها، شعر معاذ بالتمادي مع هذه الفتاة مجهولة النسب أكثر مما يمكن, حتى لو كان يشكك في بعض الأمور؛ فمجرد شكوك تدور في رأسه لم يتأكد من حقيقتها

بعـد، وزاد هـذا الأمـر بعـد اللقـاء الأخـير الـذي دار بينهـما، يجـب التخلـص منهـا في أسرع في وقـت حتـى لا يضـع قدميـه في طريـق لا يـود الدخـول بـه أبدًا..وعندمـا جـاء موعـد الالتقـاء بهـا كالعـادة شـعر بالضعـف الـذي ينتابـه عندمـا يلتقـي بعينيهـا تعمـد الوقـوف بعيدًا,لا أحـد يلاحظ وجودهـا الغريب الوحيـد بـين الزحـام, يراقـب جلوسـها مطرقـة الـرأس بحـزن يخفيـه الظـلام المحـاط مـن حولـه، اسـتثناء الأنـوار الخافتـة والبـشر يتجولـون مـن حولهـا. في هـذه اللحظـة نظـر نحـو عينيـه بقوة..لديهـا كبريـاء غريـب يظهـر للوهلـة الأولى..عندمـا يراهـا رغـم تصرفاتهـا الطفوليـة التـي لا تليـق بأنثـى جذابـة الملامـح، يعتقـد أن الطفولـة سـتظل سـاكنة وجههـا حتـى تكبرعينيـه بلـون العقيـق الخـام يكـون بنيًـا محمـر في أكـثر دراجاتـه دفئـا، وتظهـر لامعـة في الشـمس بدفـئ عـالٍ، سيشـعر بالنـدم الشـديد إذا تركهـا اقـترب منهـا، قائـلًا بصـوت حاسـم:

- غروب.

أدرات غـروب وجههـا نحـو صـوت معـاذ؛ لتبتسـم بخفـة وكأن الكـون يـشرق لوجههـا؛ فقـال برغبـة حقيقيـة وحسـم:

- تتجوزيني.

فغرت فاها ذهولًا؛ لتشير بإصبعها على نفسها غير مصدقة:

- أنا..!؟

داخلـه يتخبـط بعنـف، صراع داخلـه سـيفتك برأسـه قريبًـا، كان قـادم في هـذه الجلسـة لإنهـاء التواصـل بهـا، فـماذا يتفـوه الآن؟ أفـاق معـاذ من شرود مقتربًـا إليهـا؛ لينهـي هـذا الـصراع الداخـلي حـين قـال بعذوبيـة واسـتنكار:

- ممكن أعرف إيه سبب الابتسامة دي؟

التفت غروب نحو الصوت المحبب لقلبها:

- أصـل الموقـف الـلي إحنـا فيـه، اتكـرر قبـل كـدة معايـا، بالنسـبة ليـا

مألـوف.

قطب معاذ جبينه بدهشة؛ فقال بتساؤل:

- موقف إيه؟

نظرت غروب حولها متأملة؛ ثم قالت ببراءة وطفولة:

- الموقف اللي إحنا فيه ده، نفس المكان، نفس الكلام، نفس النجوم.

همس معاذ بنفس النبرة:

- تقصدي إنك مع كنت حد هنا قبلي كدة ولا ديجافو؟

هزت رأسها نافية، ثم همست بنبرة غريبة:

- لا بس الأحداث مش جديدة، ديجافو يعني إيه؟

قال معاذ شارحًا باختصار:

- الجنـين في مرحلـة الحمـل بيمـر عليـه شريـط حياتـه، الشـعور حاسـه وارد تكـوني شـوفتيه لمـا كنتـي جنـين عشـان كـدة الموقـف مألـوف.

أمالت رأسها هامسة بدلال دون قصد:

- وأنت مريت بحاجة زي كدة؟

شرد معـاذ نحـو البعيـد، وشـفتاه تزينهـا ابتسـامة وليـدة غريبـة مـن نوعهـا، جعلـت غـروب قلبهـا يتنفـض بعنـف؛ فهمـس ببـطء ونعومـة، مدققًـا عينيـه نحوهـا مبـاشرة، جعـل دقـات قلبهـا تتضاعـف أكـثر مـن ذي قبـل:

- أول مرة شوفتك فيها.

ابعـدت غـروب عينيهـا نحـو البعيـد؛ فهـي مـا زالـت متأثـرة بعـرض الـزواج الـذي عرضـه مـن عـدة أيـام؛ فقالـت غـروب بطفولـة وإدانـة:

- بس أنت قولت أول مرة شوفتني فيها إني مش من النوع اللي بتفضله.

حك معاذ مؤخرة رأسه، قائلًا بإحراج:

- أوقات الواحد بيقول حاجات غريبة وهو جعان.

انفرج فم معاذ مبهورًا حين انفجرت ضاحكة وهي تضرب كفًا على آخر بعفوية، يا إلهي دائمًا يلاحظ معاذ صمتها الغامض الحزين بعض الشيء، ولكن يشعر كلما اقترب منها أكثر يجعله يؤمن أن السعادة اقتربت منه، وربما الحياة رضيت عنه أخيرًا.

******

دلف هاشم نحو حجرة المكتب وداخله بركان مشتعل كاد أن يحرق المشفى بأكملها حين تأكد من وجود علاقة بين معاذ والضابط ،ورأى بعينيه وهو يركب سيارته، بدت عيناه كحريق مستعر أسود اللون، وهو يهرتل بكلام غير مفهوم على الإطلاق، صارخًا:

- تربيتي كل السنوات للحقير ده وفي الآخر، حط إيده في إيد الضابط واتفقوا، الولد ده يتقتل اللي يخون سيده في أول فرصة يتقتل فورًا، أنا قلبي كان حاسس إنه بيخوني، كلف الرجالة بقتله مدة صلاحيته بالنسبة ليا انتهت. فهم نائل على الفور ما يقصده؛ فظل ينظر أمامه، ويحرك القلم بين يديه باستهتار؛ فصرخ هاشم بصوت كالجليد والنار:

- إيه البرود اللي أنت فية ده، خالك محروق دمه وأنت ولا كأنك هنا.

أنزل نائل قدميه من فوق المكتب، ثم همس بصوت شيطان أعمى:

- محتمل قتله يقضي علينا إحنا، والنف للمبتدئين، إحنا هنعلم عليه عشان يفكر ألف مرة قبل ما يغدر، هو بيتعامل مع مين. نظر هاشم بطرف عينيه، ثم هتف بصوت عميق راسخ شرس:

- تقصد إيه؟ الواد ده يتقتل فورًا مفيش نقاش في قراري.

قال نائل بنبرة جافة خالية من الرحمة، وهو يشير نحو الأريكة التي بجوار المكتب:

- عجبني حماسك، أقعد هنا، خد نفسك واسمعني.

ثم اتجه نحو المكتبة التي تحتوي على عدد كثير من الملفات وبعض الكتب الطبية، ثم أخرج ملفًا ووضعه على الطاولة أمام أعين هاشم الفضولية المتفحصة، جلس نائل في المقعد أمامه واضعًا قدم فوق الأخرى، قائلًا:

- بص بقا يا خالي عشان تنتقم من حد، لازم تقتله بالبطيء تسويه على الجانبين، التلذذ بالقتل مرة واحدة هيفقدك لذة الاستمتاع البطيء، اللي هتحس بيه وأنت بتحرق قلبه على البنت اللي متعلق بيها.
قال الجوكارد بتفكير وهو ينظر نحو الملف باستنكار:

- مش فاهم عايز تقول إيه.

أخرج من الملف إبرة ممتلئة بسائل لونه غريب، قائلًا بشيطانية:

- دي إبرة Strychnine Cholinestrase واحد من رجالتنا يستدرج البنت لشقة وتتحقن الإبرة في الوريد، والليلة تخلص، لكن قتل ودم ونلوث إيدينا ونشتري لسة صابون عشان نطهر إيدنا من الدم اللي هيطولنا معندناش وقت لكدة،

رغم شعور هاشم بقبضة قلبية لا يعلم تفسيرها، ولكنه ابتسم وهتف بصوت خبيث منبهر:

- إيه الدماغ السم دي.

ضحك نائل عاليًا، ثم هتف بنبرة أكثر تسلطًا:

- ده بس جرعة بسيطة تحرق قلبه، والجاي جرعات بطيئة موت بالبطيء لحد ما يخسرها تمامًا, نفرق الأحبة الأول، بس لازم نبدأ بيه.

شعر هاشم بالارتياح بعض الشيء، ربما هذا يخفف النار المندلعة في أحشائه؛ فقام من مكانه استعدادًا للذهاب، قائلاً بقوة:

- أنا هوكل لك المهمة؛ لأني مش فاضي، أسمع أخبار كويسة الفترة الجاية؟

ثم تركه، وانصرف مغادرًا المكان.

****

الفصل الحادي عشر

دلف معاذ داخل الشقة، والإرهاق يعتلي ملامحه الخشنة، وضع المفتاح والهاتف على الطاولة بعشوائية، ثم نزع عنه المعطف الذي كان يرتديه، وقام بفك ساعة معصمه، ثم لحقه باقي أزرار القميص الأسود الذي كان يرتديه، وارتمى بجسده فوق الأريكة وهو يفرك جبينه بإرهاق، اخترقت أصابع يديه الطويلة داخل شعره الطويل الكثيف الذي يتساقط على جبينه بنعومة ويسر، ورأسه لا يدور إلا في ذلك المجهول الغامض، كاد أن يسقط غريق النوم..والذي يعد بالنسبة له لا شيء سوى الهروب من الواقع الأليم، والماضي القاتم الأسود الذي يلاحقه بكل مكان حتى لا يرحمه في بعض أحلامه، ولكنه شعر بشيء غير متزن عندما تعثر بأكثر من شيء وهو يتجه نحو الأريكة؛ فقام بإضاءة الضوء؛ ليصطدم من منظر الشقة وهي منقلبة رأسا على عقب، والأكواب مندثرة على الأرض كالماس، وزجاج الباب مهشم إلى قطع صغيرة، وكأن أحدهم كان يبحث عن شيء ما، لم يستطع معاذ إمساك لسانه عن سب من تسبب بجعل شقته بهذه الفوضى المزرية، أخذ يتفحص الأشياء المرتمية فوق الأرض، ولكن توقفت نبضات قلبه لثوانٍ، وتوقف النفس عن الهواء حين خطر في عقله أن يفقد أغلى وأثمن شيء على قلبه، الصلة الوحيدة اليتيمة التي تجعله يتعايش على ذكرى من أحببهم يومًا ما، عندما يلتقي بأخيه يتعايش على أمل أن يلتقي به ولو ليوم واحد، يوم واحد فقط.

انحنى ليتلقط الحذاء الصغيرالذي يصل طوله في حجم الإصبع الصغيرة، والذي يتواجد داخله منديل صغير مكتوب اسمه بالدانتيل، ابتسم معاذ بحنين وعطف، وكأنه ينتظر يوم كهذا، ولكن قطع هذا الصمت القاتل رنين الهاتف؛ فأخرج من جيب بنطاله الجينز الضيق؛ ليضعه على أذنه بلامبالاة، قائلًا:

- نعم.

رد عليه من الجهة الأخرى صوت رجولي أجش:

- الباشا عايزك يا معاذ، تحت الشباك عربية لونها أسود، أنزل أركب فيها حالًا، ثم أغلق الخط !!!

أنزل معاذ الهاتف من أذنيه بتكاسل، ثم وقف أمام النافذة؛ ليجد اثنين من الرجال ذوي البنية الضخمة يرتديان حلة باللون الأسود، أزاح الستار مستعدًا للخروج والغضب الأسود القاتم يعمي عينيه، ولكنه مجبر على الصمت حتى ينال ما يريده، ولكن ترى ماذا يريد الجوكارد في وقت كهذا حتى يتصل عليه أحد رجاله، دلف معاذ أخيرًا إلى المقر الذي يقيم به الجوكارد ذاك المكان الثقيل على قلبه، دخوله حرفيًا بمكان كهذا، يشعل لهيب الانتقام داخله، فوهه البركان التي لم تهدأ مع الوقت والأيام والسنين إن كان يظن ذلك. وقف مكانه يتطلع حوله باحتقار من ذاك المكان المقزز المثير للغثيان، وهو يرمق ذاك العجوز وهو يلعن ويسب بأبشع الألفاظ بسبب تلك اللعبة اللعينة، نعم من هم أمامه ملوك القمار، تلك الطاولة الدائرية التي تورث العداوة والبغضاء والحقد بين المتلاعبين بأكل الأموال بينهم بالباطل، وحصولهم على المال بغير الحق، ويؤدي في الغالب إلى الإجرام، أو الانتحار، أو الجنون، أو المرض.

- تعالى يا قناص.

جلس الجوكارد وهو ينفث سيجار كوبي، وضع ساقًا فوق آخر مبتسمًا بخبث، قائلًا بهدوء خطير خفيض، وهو يتفحص جسده القوي الضخم: عادة خطيرة إنك تشيل سلاح بذخيرة في جيب بنطالك. زم معاذ شفتيه بأسف زائف ساخر:

- اعذرني على أخذ احتياطي.

أشار هاشم بالسيجار وهو يقول بحماس زائف:

- هشعر بالإهانة إني رديت عليه رد غير ده, صحيح عجباني شقتك أوي ريحتها بتفوح كدة بالرجولة والقوة.

شده من قبضة يده بقوة، حتى برزت العروق، ولكنه حاول التحكم في غضبه الكامن بابتسامة هادئة حين قال:

- أنا متأكد إنها مش أول مرة.

قال الجوكارد بصوت قاصف، وهو يتجرع من الكأس باستهتار مصدقًا:

- أيوة حقيقي مش أول مرة، بالمناسبة حد قالك قبل كدة يا معاذ أن سريرك مريح للغاية.

رغم دهشة معاذ عما يتفوه به، ولكن شعر أنه قد انكشف أمره؛ فقال معاذ بنبرة مستفزة غاضبة:

- يهمني راحتك يا باشا ابق أومر الرجالة تاخد السرير المرة الجاية على الأقل هيكون في غيابي.

رمقه الجوكارد بنظرة مميتة، ثم صوَّب السلاح تجاهه، قائلًا بنبرة ازدراء:

- أظن معندكش مانع أضرب عليك نار عشان أنظف المسدس؟

ثم قام بإطلاق النار نحو وجهه؛ لتمر الرصاصة بجانب أذنيه اليسرى مباشرة، بينما التوى فك معاذ بثقة وهدوء وهو يقف، وهالة من الرجال تحيط به وكأنه يملك المكان بأكمله، رغم أنه في عرين الأسد الآن، بينما أحد صبيانه يهتف قائلًا:

- بالصلاة على النبي يا باشا طلع فيه قناصين هنا مش واحد بس (إشارة إلى معاذ)، نظر الجوكارد بطرف عينيه نحو الصبي متفاخرًا، بينما تابع الجوكارد هامسًا:

- تعرف مصطلح النرجسية اللي مش بياخد العبرة من غيره بيكون غبي، الأسطورة عبارة عن أي شاب بيحب نفسه لدرجة الجنون، وغرق لما شاف صورته ياميه، ليه حابب تكون في يوم من الأيام كدة.

رغم أن الكلمات غير مرتبة، ولكن استطاع معاذ استنتاج ما يقصد؛

فقـال باسـتنكار زائـف: تقصـد إيـه؟

قال الجوكارد بنبرة غامضة مخيفة:

- عـارف مشـكلتك إيـه؟ شـايف نفسـك في عـالم مثـالي، وفي الحقيقـة عـالم وهمـي مزيـف أنـت صنعتـه لنفسـك عشـان تـبرر أخطـاء كتـير أوي بترتكبهـا يـا معـاذي.

صمت معاذ متعمدًا؛ ليتابع هاشم قائلًا:

- أوعـى تفتكـر إنـك فاكـر حالـك مـن الأقويـاء، أنـت أضعـف البـشر الأقوياء أمثـالي مـش موجديـن في الحيـاة، ولـو فيـه فأكيـد أنـت مـش منـه يـا معـاذ.

ثـم اسـتدار؛ ليـولي إليـه ظهـره مشـيرًا بذراعيـه بصلـف وغـرور أن يغـادر.. ولا يوجـد حـل سـوى الصمت.

فقـد كان عـدم الـرد عـلى الجـوكارد رغـم تهديـده الخفـي، يسـمى بالضغـف؛ فأنـت خاطـئ عزيـزي القـارئ؛ فهنـاك فـرق بـين الصمـت والسـكوت؛ فالسـكوت يتولـد مـن الخـوف والضغـف وعـدم القـدرة عـلى الطـرف الآخـر، بينـما الصمـت؛ فهـذا يـدل عـلى أن العاصفـة الموشـكة عـلى الانـدلاع لم تبـدأ بعـد.

***

في نادي الرماية...

بعـد ذاك الحـدث المثـير للتقـزز والاسـتفزار، ذهـب معـاذ بوجـه قاتـم وملامـح متجهمـة، بينـما كانـت عينـاه غاضبتـين بشـدة، صـدره يغـلي بنـار محرقـة، متجهًـا إلى عـالم آخـر، المـكان الوحيـد الـذي يخـرج بـه كبتـه وغضبـه الحـارق قبـل أن ينفجـر عـلى أحدهـم دون قصـد يبـدو أن أمـره انكشـف، وتعاونـه مـع الضابـط أصبـح محـور الحديـث الغامـض الـذي يحمـل في طياتـه التهديـد والحـذر مـن القـادم، الجـوكارد لا يتحـدث هبـاءً، ولا عشـوائيًا هكـذا...

صالة الرماية بالنسبة لة شيء مختلف تمامًا عن أجواء الرصاص والضجيج المصاحب؛ فالزجاج المضاد للرصاص الذي يفصل صالة المشاهدة عن ميدان الرماية يمنع نقل الأصوات إلى الخارج. وما إن تخطو داخل المكان حتى تنعزل عن العالم الخارجي، وتصيرأصوات الطلقات صوتًا يشبه الأزيز الخافت، وقف معاذ أمام الصالة الخاصة بالتدريب على السلاح، وضع السماعة العازلة للصوت في أذنيه، والتي تعتبر شرطًا لازمًا للدخول إلى القاعة، ثم سحب سلاحًا محشوًا معدًا للإطلاق؛ ليصوبه مباشرة تجاه هدفه، ولكن انطلقت الطلقة في الهواء مخطئة مسارها تمامًا، بدت طائشة وانفعالية وبعيدة عن الهدف؛ فأخفض سلاحه في عنف وكلمات تتكرر في أذنيه كطلق ناري تخترق جسده؛ لتستقر في قلبة مباشرة، مما جعلها تقف ترمقه من بعيد، محاولًا تهدئة نبضات قلبها اللعينة؛ فكم تمنت لحظة كتلك..وها قد حانت الفرصة لتقتنصها كاقتناصها لأهدافها في محل عملها دائمًا. قام معاذ ليعمر سلاحه مرة أخرى، ثم رفعه على مستوى ذراعه قبل أن يغمص عينيه ويصوب الهدف ..ودون لحظة تفكير أطلق النار فأصاب الهدف من أول مرة، فسمع صفيرًا خافتًا فنظر خلفه؛ ليسمعها تقول بثقة وهدوء: برافو عليك، ديمًا وأنت بستخدم السلاح اجعله جزء من جسدك، وأبعد توتر الأعصاب عنك عشان توصل لهدفك بسهولة. رفع حاجبه باندهاش ساخر؛ ليرمق فتاة شقراء من أعلى رأسها إلى أخمص قدميها، وهي ترتدي كابًا أسود وبنطالًا وقميصًا بنفس لون الكاب، حاملة سلاح على ذراعيها بثقة وقوة، وكأنها محترفة في مجال القتال؛ فهتف بلهجة باهتة، ساخرًا:

- يا سلام! مش عارف أنا من غير الكلام ده أنا كنت هعيش إزاي.

اقتربت منه ببطء؛ لتقول بابتسامة باردة سمجة:

- لا وكمان دمك خفيف؟؟!!

رمقها بنظرة متعالية، ثم استدار؛ ليكمل ما بدأه.

زمت نورهان شفتيها بسخط، يبدو أن الطريق أمامها طويل وشاق للغاية؛ فهو ما زال يراها مجرد متدربة فقط.

فقالت باهتمام مستفهم:

- بالمناسبة أنت كنت واقف مع عمر بيه إمبارح قدام المستشفى، أنت كنتوا صحاب ولا مجرد تعارف ؟!

استدار إليها معاذ بكامل جسده، عاقد حاجبيه باندهاش مستفهمًا قائلًا بشك:

- أنتِ تعرفي منين إننا اتقابلنا إمبارح؟

هتفت نورهان ببساطة:

- كنت واقفة على الباب مستنية حالة وشوفتك.

ظهر على شفتيه شبه ابتسامة جانبية؛ فضحتها ابتسامة عينيها المحببة لقلبها.. فقال بتهكم وهو ينظر نحو الهدف الذي أصابه للتو:

- هو أنتِ اللي كنتِ مناوبة إمبارح، وأنا بقول المستشفى كانت بتسلم الأهالي الجثث بالدور.

اتسعت عين نورهان بسخط، ثم هتفت بصدمة وغضب:

- كانت حادثة كبيرة، وبعدين ده قضاء وقدر.

تجاهل تعلقها، ثم قال بنبرة هادئة:

- وأنتِ بقا تعرفي عمر بيه منين؟؟

هزت كتفها بخفة:

- لما كان بيستلم جثة سمير بيه، وتعرفنا على بعض وقتها ولا أنت نسيت؟!

هز رأسه بتفهم:

- أها حقيقي!!

مدت يدها قائلة باندفاع وجرأة مرحبا:

- خلاص ننسى اللقاء البارد ده، ونبدأ من الأول مكنتش متوقعة أشوفه في يوم إجازتي.

نظر معاذ إليها بعدم ارتياح هل من المعقول أن يكون وجودها الآن صدفة، أم أن الجوكارد ابتدأ بتنفذ خططة القذرة، ثم همس ببطء خافت ساخر:

- شوفتي بقا الصدف.

ابتسمت إليه بابتسامة فاتنة كوجهها الفاتن المشرق:

- إيه رأيك فيه كافيه قريب لو حابب ندردش شوية..!

أخذ معاذ نفسًا عميقًا، ليست من عادته أن يثق بأحدهم بهذه السهولة حتى لو كانت أحد أفراد مجموعته، ولكن لا مانع لتسلية فراغ وقت خاصة مع فتاه شقراء جميلة مثلها، وقت قليل فقط يعلم إلى أي مواضيع سوف تتطرق بها من غير هاشم؛ ليفكر بالأمر بمنتهى الحقارة؛ فمن يكون حتى لا يفكر بأمر كهذا؟!

****

في أحد الأيام..

انتفضت فوق الفراش صارخة بقوة, ثم وضعت يديها على عينيها بعنف حتى لا تتذكر ما رأته, وضعت يديها على صدرها، محاولة استنشاق الهواء وكأنها كانت تختنق, وبعد أن شعرت ببعض الهدوء أغمضت عينيها؛ لتنفجر باكية بقوة، لماذا الآن لماذا في ذلك التوقيت؟ لا تعلم كم مرة من الوقت، ساعة اثنان أكثر، لا تعلم فقط تنظر نحو

السقف بشرود, تفكر في الذي رأته أساسًا، لم تكن الحياة عادلة من البداية معه حتى تستشعر الاندهاش الآن. الحياة لم تكن منصفة أبدًا أبدًا. قطع حبل أفكارها المأساوية رنين الهاتف، شعرت أنها لا تستطيع أن تتحدث، فمن غيره سيقوم بالاتصال عليها الآن غيره، ولكن دون فائدة رنين متواصل بدون ملل، أخذت الهاتف بيد مرتعش؛ فسقط منها رغمًا عنها...فحاولت التقاطه مره ثانية، ثم وضعت الهاتف نحو أذنيه هامسة بنبرة مرتعشة من هول التوتر الذي تشعر به:

- نعم.

فقال معاذ باستنكار مرح :

- ما بترديش ليه، إحنا مش هنخرج!؟

قالت بصوت حاولت أن يكون هادئًا ثابتًا:

- حاضر.

عندما التقيا، شعر أنها ليست على ما يرام؛ فأعاد سؤاله المتكرر بحسم منذ أن رآها بهذا التوتر:

- غروب أنتِ مش بخير أبدًا، فيه إيه، ومتقوليش بخير؟!

همست بتردد واضح:

- أنا حلمت بكابوس.

قال معاذ بارتياب حذر:

- كابوس إيه؟

نظرت نحو البعيد، وكأنها تتخيل الأحداث أمامها:

- حلمت أن فيه بنت بتجري في المستشفى, نفس الممر اللي كنا فيه، وبعدين شوفت في حضنك بنت بتعيط عليها جامد؛ لأنك فقدتها تعرف

مـين البنـت دي؟

هز معاذ رأسه بترقب وحذر، ابتعلت غروب غصة مسننة كصدأ:

- أنـا، كانـت الغرفـة رغـم أنهـا أنيقـة ومرتبـة بـس شـبه الأشـباح بتخـوف وترعـب، هـو أنـا لـو م.... قاطعهـا معـاذ قائـلًا مطمئنًـا رغـم الألم والقلـق الـذي يعصـف بـه الآن:

متفكريـش مجـرد أضغـاث أحـلام، فكـري بـس في فرحنـا، وأيامنـا الجايـة. قاطعته قائلة بنبرة صادقة تلونها بعض القلق:

- أول مـرة أسـلم قلبـي لحـد.. أول مـرة أبـص في عيـون حـد وأنـا حاسـة بالأمـان.. أول مـرة أخـاف بجـد، أخـاف مـن الجـاي.

أبعـد معـاذ عينيـه نحـو البعيـد هاربًـا مـن عينيـه بـدلًا مـن أن يطمئنهـا ...هـي تتفـوه بحديـث مقبـض للقلـب تـرى هـل مـن الممكـن أن تنـوي الحيـاة الغـدر بـه مـرة أخـرى مثـل مـا فعلـت قبـل ذلـك كثيـرًا, ربمـا فقـد العـد مـن الأذى الـذي لحـق بـه منـذ أن وطـأت قدمـه هـذه الأرض.

****

في اليوم التالي بعد بحث دام لعدة أيام...

- اكسر الباب.

كان هـذا رد عمـر عندمـا لم يجـد أحـدًا مجيبًـا عـلى البـاب.. فهمـس معـاذ باقتضـاب:

- لا، مش دلوقتي.

ظـل الاثنـان يطرقـان بـاب الشـقة الخاصـة بدكتـور نائـل، ولكـن مـا مـن مجيـب؛ فقـال عمـر:

- يبقـى البنـت الـلي في الاسـتقبال كلامهـا حقيقـي، وأن فعـلًا عنـده مؤتمـر

ممكـن ياخـد شـهور.

تميز معاذ غيظًا، قائلًا بنبرة باهتة:

- لا هو موجود، بس شخص واحد بس اللي ممكن يوصلنا ليه.

في مـكان مهجـور للغايـة، لا يتواجـد فقـط سـوى مبنـى متهالك صغـير يحتوي عـلى طابـق واحـد فقـط، وقفـا أمـام المنزل،هـذا المبنـى الـذي تنبعـث منـه رائحـة دخـان وضحـكات عاليـة، يلقبـون الاسـم في المناطـق الشـعبية بمـا يسـمى «الخـمارة»، فتـح معـاذ البـاب؛ ليدخـل هـو وعمـر، ولكـن أوقفهـم عمـر؛ ليرمـي قنبلـة في منتصـف المبنـى المهجـور، ثـم رفـع بيـده شـيئًا يشـبه الرمـوت كنـترول، قائـلًا بصـوت جهـوري:

- الـلي يفكـر يقـرب مـن هنـا تكـة واحـدة المـكان هينفجـر بأكملـه أنـا عايـز فتحي مـرزوق.

جميعهـم أشـار نحـو صبـي يبـدو أنـه صغـير في السـن؛ فاقـترب معـاذ؛ ليأخـذوه بالقـوة وهـو يشـير بالسـلاح نحـو الجميـع حتـى لا يهجـم عليـه أحـد، اقـترب إليـه ليأخـذه مـن لياقـة قميصـه، ثـم غـادر المـكان؛ ليضربـه عمـر، قائـلًا بقـوة:

- أنطق يلا الباشا بتاعك فين؟

- وربنا ما أعرف يا باشا.

أخرج معاذ مطواة من جيبه؛ ليضعها حول رقبته:

- أنا معدنيش وقت أسالك لسة، اتشاهد على نفسك يا روح أمك.

قال الصبي بسرعة:

- خلاص ياباشا هقول مكانه فين.

كان عمـر مظهـره في تلـك اللحظـة مخيفًـا، يتنفـس بقـوة وعنـف وهـو

يحـاول السـيطرة عـلى غضبـه.. عينـاه بـدت كحريـق مسـتعر أسـود اللـون وحـين تكلـم....

الفصل الثاني عشر

في أحد الأيام ...

كان معاذ يقوم بالاتصال إلى غروب حتى يستعد للخروج معه لإعداد تجهيزات الفرح، ولكنها كانت لا تجيب، كان مترددًا كثيرًا أن يصعد إليها نحو المكان الذي قام بتأجيره حتى تكون قريبة منه ولكنه أبى، لربما تكون نائمة الآن؛ فأرسل لها رسالة قصيرة منتظرًا الرد، ثم سقط في النوم من شدة الإرهاق، وبعد عدد مناسب من الساعات استيقظ معاذ من النوم؛ ليبحث عن الهاتف بجانبه؛ ليجد رسالة من رقم غريب، نظر إلى الهاتف بأعين نصف مفتوحة ليحدد ملفًا، قام معاذ ليتكأ إلى حائط الفراش وهو يفرك عينيه؛ ليفتح هذا الملف المتواجد داخله فيديو، ظل صامتا دقيقة والأفكار تتزاحم في رأسه، ثم عزم الأمر وقام بفتحه ليجد أسوأ ما يمكن أن يراه أي رجل لفتاة قبل زواجهما بأيام، اشتدت قبضة معاذ فوق الوسادة؛ ليصرخ قاذفًا إياه بعنف نحو الحائط، ثم قام بالاتصال بالرقم الذي أرسل من خلال هذا الفيديو، ولكن دون جدوى؛ ففتح باب الغرفة بعنف متجهًا نحو غروب غير عابئ بمظهره الخارجي، ثم طرق الباب عدة مرات؛ لتفتح غروب قائلة بصوت متعب حانق:

- فيه إيه يا معاذ؟

دلف نحو الداخل، ثم أغلق الباب بعنف، قائلًا بغضب أسود يوشك على قتل أحدهما:

- أنت كنت فين إمبارح؟

قالت برهبة من هيئته: كنت هنا في الشقة.. أخذ نفسًا متجهمًا، ثم همس بحذر وهو يميل رأسه جانبًا، ونظراته مصوبة إليها باتهام:

- مش حقيقي أنا رنيت عليكِ كتير..!

كتفت غروب كتفيها بعند، قائلة: بقولك كنت هنا.

كادت لتتخاطاه، ولكن أمسك ذراعيها بقسوة؛ فقام بفتح الفيديو ووضع شاشة الهاتف أمامها قائلًا بغضب صارخ: طب ده تفسيره إيه؟

شعرت غروب بصدمة حين وجدت نفسها بهذه الهيئة تحمل كأسًا وتتطوح في مكان يشبه ملهى ليلي، فقالت بارتباك:

- أنا كنت معاك إمبارح معرفش المكان ده.

لم يشعر معاذ بنفسه إلا وهو يصفعها بقوة حتى سقطت على الأرض من شدة الصفعة، ثم نظر إليها باحتقار قائلًا:

- لتاني مرة أنا غبي عشان صدقت وحدة قذرة بتعرف تتقمص شخصية الطفلة البريئة باحترافية مذهلة، أنا بكرهك قدر محبتي ليكي.

ثم بصق في المكان بقرف تاركًا إياها...

****

يقف أعلى الجبل في نفس المكان حيث الظلام الحالك، الهواء الجليدي يلفح وجهه، تائه في ذكرياته، لم يدرك أن الدموع تتحرر معلنة الانهزام أمام العالم الكبير المحيط به، بشرته التي بدت تماثل الرخام، برودته جاءت دموعه لتعلن هزيمته، مبكي مؤلم عندما تخذل من هذا العالم.

بعد قليل وجد رسالة مكتوب بها «يارب تكون عجبتك الهدية الأولى» بنفس الرقم الذي أرسل الفيديو؛ فقام بالاتصال بالرقم وهو يشعر بالجنون، ولكن وجده مغلقًا ذهب نحو شركة الاتصالات حتى يستعلم عن هذا الخط، ولكن وجده غير مسجل، مما يجعله يشعر بشيء غريب في الأمر، وجد رنينًا مستمرًا ظل عدة إيام، ولكن أغلق الشاشة المضيئة دون رد، فقد حاول عمر الاتصال به كثيرًا، ولكن دون فائدة، اتجه نحو شقته وقام بإشغال نفسه في هذه الرياضة المرهقة عله يتخلص من هذا الهم الذي يحمل فوق صدره، فجأة رمى الثقلين

الحديديـن مـن يـده بأقـصى قوتـه بعـد أن طوحهـما؛ فاصطدمـا بالحائـط؛ ليحدثـا شرخـين بشـعين في دهانهـما، ثـم سـقطا بقـوة عـلى الأرض محدثـين زلازلًا، ذهـب ببـطء إلى منشـفة وأغـرق بهـا وجهـه، ثـم رفـع رأسـه؛ لينظـر أمامـه بـشرود متوحـش وبعينـين احمرتـا مـن الغضـب، عـادت بـه أمـواج ذاكرتـه إلى منـذ أكـثر مـن أربعـة عـشر سـاعة، حـين تحـدث مـع ياسـين بعـد إلحـاح بالـغ منـه، بعدمـا قـص عليـه الأمـر وشـكه الزائـد عـن حـدة في دكتـور نائـل، رد يايسـن بعـد صمـت طـال لدقائـق:

- كلنـا عارفـين إن دكتـور نائـل رغـم إنـه مـن أشـطر الجراحـين ورئيـس أطبـاء في سـن صغـير بـس كشـخصية زبالـة، اتكلـم معاهـا أكيـد عندهـا تفسـير لكـدة أسـمعها وأعـرف ليـه راحـت للزفـت نائـل ده.

صمت معاذ يستمع له، تشجع ياسين حينما شعر أنه بدأ يقتنع بالأمر:

- شـوف يـا معـاذ طبيعـي إنـك تغـير، بـس الـلي مـش طبيعـي إن متكونـش واثـق وعـارف البنـت الـلي شـوفت فيهـا أم أولادك، أحسـبها بالعقـل والمنطـق إزاي عـارف تحركاتهـا وكنتـوا داخلـين في علاقـة جديـة؟

قال بصوت غريب على ذاته، محاولًا استيعاب الصورة كاملة أمامه:

- معنـي كـدة أنـا اتهـورت ومكنتـش عاقـل، إني اتصرفـت كـدة، أنـا أبـدأ أقلـق بقـا.

رد ياسين ببساطة:

- بالعكـس الحـب مفهـوش منطـق ولا عقـل، ده تـصرف طبيعـي متوقـع منـك لـو كنـت عملـت غـير كـدة يبقـى الـلي بينكـم مجـرد مـشروع جـواز بـس مـش حـب، عـلى قـد مهـو ألم بتـصرخ بيـه عيونـك.

****

في أحـد الأيـام جـاءه اتصـال مـن الجـوكارد، فلـم يكـن حـدث يبنهـم أي تواصـل بعـد هـذا اللقـاء الـكارثي الـذي كان يحتـوي عـلى حـوار يحمـل في

طياتـه التهديـد والغمـوض، وعندمـا وصـل نحـو مقـر الجـوكارد، لم يأخـذ حـذره حـين شـعر بأحدهـم قـام بركلـه بقـوة؛ ليسـقط أمـام الجـوكارد مبـاشرة، كاد ليتلفـت معـاذ حتـى يصفـع ذاك الحقـير الـذي تجـرأ عـلى فعـل شيء كهـذا، التـوى فـك معـاذ بثقـة وهـدوء وهـو يقـف وكأنـه يملـك المـكان بأكملـه رغـم أن هنـاك دمـاء تسـيل نحـو فمـه.

هتف معاذ باختصار موجز:

- أنت عايز إيه يا باشا؟

جلس على المقعد الوثير، ثم رفع قدمًا فوق الأخرى، قائلًا بحقد:

- تعـرف إيـه عـن الخيانـة يـا معـاذ، عـن الغـدر، مـن الـلي ربيتـه وصرفـت عليـه مـن صغـره لحـد مـا وصـل للمكانـة الـلي هـو فيهـا دي، عشـان يحـط إيـده في إيـد حتـة عيـل أفعصـه بصابـع رجـلي الصغـير زي مـا عملـت مـع صاحبـه.

رغـم معرفـة معـاذ جيـدًا مـا يقصـده إلا أنـه زفـر بضيـق، ثـم قـال بغبـاء مصطنـع:

- أنا مش فاهم أنت تقصد؟

خـرج نائـل مـن غرفتـه؛ ليقـول بنـبرة مسـتفزة سـافرة، وهـو يزفـر مـن فمـة دخـان السـجائر:

- لا أنت فاهم كويس هو يقصد إيه؟

نظر نحو الجوكارد قائلًا باستفزاز:

- عمر، النقيب عمر صح كدة؟

أشـار الجـوكارد إلى الرجـال المتواجديـن خلـف معـاذ، التفـت معـاذ تلقائيًـا نحـو الخلـف؛ ليجدهـم قامـوا بالهجـوم عليـه ليقيـدوا حركتـه تمامًـا، وقـام أحـد الرجـال بلكـم معـاذ بقـوة ليتـأوه صارخًـا، رفـع معـاذ عينيـه بتسـاؤل

عـما يجـري، ثـم احمـرت عينـاه بقـوة غاضبًـا حينـما انحنـى إليـه نائـل وهـو يلعـب بالـكأس أمـام عينـي معـاذ المشـتعلتين بلهيـب؛ ليهتـف بنـبرة مقـززة بـاردة:

- حبيبـي أنـت ليـه نيتـك زبالـة كـدة، واول مـا شـوفتني مـع حبيبـة القلـب في شـقة لوحدنـا اتعفـرت كـدة، أنـت دماغـك شـمال ليـه؟ بابنـي أنـا مـش ممكـن هبـص لوحـدة قـد بنتـي، صحيـح هـي ثمـرة شـهية ناضجـة عايـز اللي يقطفهـا، لم يكـن يكمـل كلامـه الوقـح حتـى صرخ بـه بشـدة محـاولًا قتلـه، لـولا وجـود رجـال الجـوكارد المقيديـن حركتـه تمامًـا؛ فبصـق بقـوة في وجهـه حتـى يقـوم نائـل بمسـح جانـب وجهـه وهـو مغمـض عينيـه بصـبر، ثـم أكمـل بهـدوء مسـيطرعلى حالتـه:

- أقـصى مـا قـدرت تعملـه للأسـف، عـلى العمـوم هـي عنـدك صـاغ سـليم، ثـم قـام مـن مكانـه متجهًـا بجانـب الجـوكارد تابعـا بتقـزز وازدراء:

- اطمـن، الباشـا مـش نـاوي يقتلـك هـو بـس باعتلـك هديـة ثالثـة صغـيرة كـدة يـارب تعجبـك.

ثم أشار إلى الرجال بأن يتركوه بعد أن يقضوا واجبهم معه....

عندمـا غـادر مـن المـكان الـذي يبغضـه، فهـم مـا يـدور حولـه، يبـدو أنـه لـن يتفاجـأ بعـد، مـن ذاتـه والغبـاء الـذي تحكـم بـه وجعـل غضبـه الأسـود يتحكـم بـه؛ ليسـلم غـروب عـلى طبـق مـن ذهـب؛ ليقـوم بالاتصـال عـدة مـرات ولكـن مـا مـن مجيـب، اتخـذ قـرارًا بأقـل مـن دقيقتـين، دون أن يـدرك عواقـب مـا يقـدم عليـه، صعـد نحـو الأعـلى نحـو المـكان التـي تقطـن بـه، وقـف أمـام البـاب يفكـر بالأمـر عـدة دقائـق قبـل أن يطـرق البـاب بهـدوء، وعندمـا يـأس مـن عـدم الـرد قـام بالنـداء عليهـا ولكـن دون جـدوى، زفـر بضيـق وقلـق ثـم قـام بتنفيـذ مـا يـود فعلـه مـن البدايـة؛ فقـام بـضرب البـاب بقـوة عـدة ضربـات حتـى ارتـج البـاب فركلـه بقدميـه؛ ليفتـح معـه ، دلـف نحـو الداخـل وهـو يهتـف مناديًـا بحـذر:

- غروب!

على الجانب الآخر، كانت غروب تسمع حطام بالخارج، ولكن لا تملك حتى التحرك نحو الباب، بالكاد استطاعت أن تتشبث بإطار الباب بإصبعها وأظافرها هامسة باسم واحد فقط تحتمي به، خائفة مما يحدث في الخارج، فتح معاذ باب الغرفة ببطء حينما شعر بثقل خلف الباب، ولكن تضاعف ذهوله وصدمته حينما وجد غروب تحاول التنفس بأقصى ما تستطيع وما تملك ومظاهرها مخيفة للغاية، جسدها يرتجف والعرق يتصبب من جسدها، شعر معاذ بالقلق؛ فقام بوضع أصابعه على رسغها؛ ليقيس النبض؛ ليجده يتحرك ببطء، قام بحملها بذراع واحد بقوة دون تفكير، وهو يخرج الهاتف من جيب البنطال مسرعًا الاتصال إلى نورهان، قائلًا بعجلة:

- نورهان جهزي لي غرفة رقم ** في الاستقبال، وقابليني عند بوابة الطوارئ ضروري، أغلق الهاتف محاولًا إسراع السيارة بأقصى ما يمتلك، مرتكبًا عدة مخالفات لإشارات المرور، وعندما وصلا إلى المشفى في غرفة الاستقبال، تقدم إليها ياسين، قائلا بقلق: مش دي غروب هي مالها؟

رد معاذ وهو يضع لها أنبوبة تنفس صناعي:

- اشتباه في حالة تسمم.

أسند معاذ رأسه نحو الحائط، مكتفا ذراعيها، مسلط عيناه نحوها من وراء العازل الزجاجي وهي متكورة في الفراش كالجنين، متشبثة بطرف الفراش بقوة، وكأنها تحتمي من أحدهم، غرفة مظلمة تمامًا إلا من إضاءة خافتة مسلطة عليها، لا يتذكر منذ متى وهو يقف هكذا، ولكن داخله صوت يصرخ هامسًا بتوسل، لا تتركيني وترحلي غروبي، فأنا أتألم لمجرد أن يتطرق في ذهني اختفائك عن عالمي الغريب، أنا وحيد للغاية، ودربت نفسي لسنوات على هذا وتحملت، لكن هذه المرة لن أستطيع أبدًا، بعد أن أصبحت محور حياتي المظلمة البائسة التي فاحت

منها رائحة الدم والانتقام، صدقيني لا أهتم أن تكون علاقتنا تحت أي مسمى، بقدر اهتمامي بوجودك الدائم في حياتي غروب، قطع الصراع الداخلي صوت ياسين حين اقترب إليها بهدوء:

- معاذ نتيجة التحاليل، حاليًا بتعاني من تشنجات وشلل بعضلات القصبة الهوائية.

رفع معاذ حاجبيه بانتباه، ثم أخذ نفسًا عميقًا محاولًا استجماع شتات عقله؛ ليستدير إليه متظاهرًا بلامبالاة والقوة، أخذ منه الورق دون أن ينظر نحوه؛ ليقرأ ما بداخل الملف بصمت، نظر ياسين نحو غروب، قائلًا بإشفاق:

- معاذ أنت كويس؟

قال معاذ ببعض الإرهاق:

- تابع حالة غروب يا ياسين محدش هنا بثق فيه غيرك خاصة إنها هنا في وكر الأفاعي، أنت عارف صعب تخرج من هنا، ولو كنت ودتها مشفى تانية كانت ممكن تموت مني.

قال ياسين وهو يضيع يديه على كتفه مواسيًا إياه بتعاطف:

- متقلقش في عنيا، أنت رايح فين؟

قال معاذ بنبرة مميتة:

- هصفي حسابي عشان ضميري يكون مرتاح.

دلف معاذ نحو غروب، ثم همس في أذنيها:

- أنا كنت أناني لما قولتلك هساعدك تعرفي مين والدك؛ لأن لما عرفت، خبيتك عنه، وكان هو السبب في اللي أنتِ فيه، نزع السلسال من رقبتها وهي تنظر نحوه بعيون باكية صارخة بأن لا يفعل ذلك، ولكنها لا تستطيع التحدث، هزت غروب رأسها نافية، ولكنه عزم أمره لن

يشعر بالحزن لوحده بعد الآن لا بد أن يدفع الجميع الثمن، انحنى نحوها، هاسمًا بنفس النبرة: أنا آسف غروبي.

ثم غادر المكان دون أن ينظر نحو عينيها؛ لأنه يعلم جيد أنه سيفقد السيطرة على نفسه إذا ظل أكثر من ذلك، لم يكن قد غادر معاذ باب المشفى وجرعة السائل الذي تلقتها غروب بالقوة وجعل حالتها تسوء هكذا إلا وقدمين تقوم ببث السموم في كيس المحلول؛ ليرفع ياسين سماعة الهاتف نحو أذنيه قائلًا بكل شيطانية وتقزز: الدوك نائل، طمن الباشا كل حاجة بتحصل زي ما أمر، ثم تابع بتساؤل:

- صحيح يا باشا، اشمعنا السائل دة كان ممكن عينة من الـ HIV وتخلص الليلة.

جاءه الرد بصوت رخيم غامض:

- الإيدز، فيه احتمال الشفاء حتى لو كانت نسبة ضئيلة، أنا بحب أقطع عرق وأسيح دمه.

- أستاذ ورئيس قسم يا باشا.

كانت هذه كلمات ياسين المهللة قبل أن يغلق الهاتف.

***

في الجراج..

نزل هاشم من سيارته بكل هيمنة وجبروت، وكأنه امتلك الأرض ومن عليها، تحركت السيارة بعد أن أشار للسائق بالانصراف بعنجهية وصلف، ثم أخرج علبة السجائر، أشعلها وأخذ نفسًا عميقًا؛ ليجد شخصًا، غامضًا يديه في جيب بنطاله الجينز، ومعطف أسود طويل يتطاير قليلًا من خلفه، يماثل تطاير شعره الظاهر من تحت الغطاء الشتوي نوعًا ما، وقف خلفه مباشرة قائلًا بصوت غامض مدمر مدان: بتدمر صحتك؟

استدار الجوكارد للخلف؛ ليجد شابًا يرتدي معطفًا منحنيًا ينظر جانبه يرتدي طاقية شتوية وكوفية يخفي جانب وجهه، ويديه الاثنتين في جيب معطفه، يقف بثقة وقوة، ثم رفع رأسه مباشرة نحو عينيه؛ ليهمس الجوكارد دون صوت:

- معاذ ؟

كاد أن يصرخ مستغيثًا بمن حوله، ولكن في جزء من الثانية كان معاذ يقف خلفه مكبلًا حركته بسلاح أخرجه من ظهره في أقل من الثانية، قائلًا بفحيح:

- شششش، أنا مش جاي عشان أقتلك.

صمت الجوكارد حين أكمل بصوت مخيف: أنا هنا عشان كل يوم تموت ببطء تتحسر على أغلى ما تملك، تجلد روحك في اليوم ألف مرة على غبائك، مينفعش أموت لوحدي لازم تدوق حرقة القلب على بنتك الوحيدة.

قطع كلامه هاشم بحدة حين قال بهلع:

- نورهان؟!

ضحك معاذ ضحكة ساخرة خافتة خالية من المرح والشعور، ثم قال ببرود:

- نورهان مين؟ أنا بكلمك على بنتك اللي من صلبك اللي عشت سنين بتدور عليها، غروب.

وكأن الأكسجين توقف والسكون قد عم في أرجاء المكان، وعقارب الساعة قد توقفت، وكأنه لم يحدث شيء، لم يمر شريط حياته بسرعة البرق، وتذكر حبيبته الذي عاش على ألم فقدانها لسنوات، الأرق الذي يهاجمه مساء كل ليلة دون رحمة؛ لينهش جدار قلبه المكلوم كل هذا لم يتذكره، ولن يسمح بأحدهم يلعب في رأسه من جديد ليس بعد كل ما مر

بـه، وظـن أنـه حـان انتهـاء البـلاء؛ فقـال بقسـوة رغـم رعشـة نبرتـه القلقـة:

- أنت بتتكلم عن مين؟ أنا مليش غير بنت واحدة بس وهي نورهان.

هتـف معـاذ بـلا تعبـير وهـو ينظـر نحـو البعيـد، ومـا زال السـلاح مصوبًـا نحـو رأسـه:

- هممم وكمان بتجادل ليك حق تعترض معذور من الصدمة.

ثـم ابتعـد عنـه؛ ليقـف أمامـه بعدمـا تأكـد أنـه لـن يفعـل شـيئًا، فقـط ليتلـذذ برؤيـة تعابـير وجهـه الحزينـة التـي تتحـول تدريجيـا مـن حنـين واشـتياق إلى حـسرة وعـذاب، إلى نـدم وجلـد الـذات، حـين همـس معـاذ قائـلًا بصـوت جيلـدي شـامتًا:

- سـبحان اللـه، معـروف إنـك بتحـب البنـات وعمـري مـا شـفتك في حياتـك القـذرة دي أذيـت بنـت بـل العكـس، أنـت اتبنيـت ويـوم مـا قـررت تـأذي، تكـون بنتـك حبيبتـك الـلي مـن صلبـك، مكنتـش متوقـع العدالـة الإلهيـة تيجـي بالسرعـة دي.

ابتلـع هاشـم غصـة مسـننة كادت أن تشـطر حلقـه بصعوبـة حينـما تعمـق في ملامـح معـاذ الجديـة، قائـلًا باسـتنكار وكلـمات متبعـثرة: أنـا مـش ..أنـت مـين الـلي قالـك إن نورهـان مـش بنتـي ...ومـين الـلي أذتيهـا؟

قـال معـاذ باسـتهانة وغضـب قاتـم رغـم الغضـب الأسـود الـذي يقطـن عينيـه:

- ابـن أختـك، الدكتـور نائـل، إبليـس تبعـك المتحـرك عـلى الأرض فضـح ليـا سرك ..مـن زمـان بـس كان غبـي زيـك ميعرفـش البنـت الـلي اسـتكترتوها عليـا لمـا شـفتوني سـعيد وفرحـان معاهـا تبقـى بنتـك، غـروب الـلي أكـبر مستشـفيات البلـد باسـمها.

لمـح معـاذ الصدمـة التـي ارتسـمت عـلى ملامـح بشرتـه الشـاحبة كالأمـوات بشـكل يثـير الشـفقة، وبـرزت التجاعيـد المنتـشرة في وجهـه، وارتعشـت

شـفتاه حـين قـال بصـوت جهـوري؛ ليحـاول إقنـاع نفسـه مـبررًا:

- أنـت كـذاب البنـت نزلـت ميتـة، أنـا إتاكـدت بنفـسي، واضـح إن الانتقـام والسـواد الـلي جـواك خلتـك تخـرف، أطلـع بـرة قبـل مـا أجيـب رجالتـي تقتلـك.

هز معاذ رأسه ضاحكًا بسخرية، هاتفًا:

- كنـت متوقـع منـك رد زي ده، ويمكـن أكـتر بـس عشـان تعـرف إني بتكلـم بمنتهـى الجديـة.

أخرج ملفًا من جانبه؛ ليعطيه إياها، قائلًا بقسوة:

- ده تحليـل الـ DNA شـوفه وأتاكـد بنفسـك لـو حابـب، ثم أخرج السلسـلة الخاصـة بغـروب بعـد أن نزعهـا مـن رقبتهـا؛ ليلفهـا حـول أصابـع يديـه ويتسـاقط كـف السلسـال يمينًـا ويسـارًا أمـام عينيـه الحذرتـين الفضوليتـين؛ فتابـع معـاذ:

- يمكـن لـو فكـرت الـورق مـضروب ومزيـف زي حياتكـم، لكـن أعتقـد إنـك لـو فتحـت الكـف أكيـد مـش هتعـرف صـورة بنتـك، لكـن الأكيـد هتعـرف والدتهـا السـكرتيرة بتاعتـك زمـان.

ثـم تركـه وانـصرف تـاركا إيـاه يتخبـط في بحـر العـذاب دقـق النظـر نحـو الصـورة؛ ليجـد فتـاة حياتـه الماضيـة بـكل طيشـها ومتعتهـا، يـا إلهـي يشـعر بالـدوار وكأن أحدهـم لطمـه بأقـصى قـوة لا يسـتطيع فعـل شيء سـوى أن يسـقط فـوق الأرض؛ ليـأتي أحدهـم يوقظـه مـن النـوم ككل يـوم يخـبره أنـه مجـرد كابـوس اسـتفاق منـه ....

***

كان عمـر يفحـص بعـص الملفـات، طـرق البـاب ليـأذن بالدخـول؛ ليجـد العسـكري يحمـل الملـف الـذي يحتـوي عـلى المعلومـات الخاصـة بالطبيـب معـاذ، التقطهـا عمـر بلهفـة متشـوقًا، كاد أن يفتحـه؛ ليعلـم مـن هذا الشـاب

الغامـض، ولكـن سـمع رنـين الهاتـف؛ ليجـد اسـمه، فقـال بهـدوء:

- نعم يا دكتور.

سمعه صارمًا مقتضبًا:

- عايز أشوفك دلوقت يا عمر بيه.

ثـم أغلـق الخـط.. تقابـلا فـوق الجبـل المـكان المعتـاد الـذي يلتقيـان؛ ليقـول معـاذ دون مقدمـات نحـو عمـر الـذي ينـزل مـن السـيارة عـلى عجلـة:

- لازم نبـدأ الهجـوم، الجـوكارد كشـفنا، وعـارف إني عـلى تواصـل معـاك، ولازم نقـضي عـلى نائـل.

أومأ عمر رأسه قائلًا بلهيب الانتقام:

- وأنا موافق.

ظـلا يتحدثـان بعـض الوقـت إلى أن ذهـب عمـر نحـو المكتـب بحكـم العمل؛ ليجـد الملـف موضـع فـوق المكتـب كآخـر مـرة تركـه؛ ففتحـه ليقـرأ مـا بداخلـه ببعـض الملـل، ولكنـه شـعر بصدمـة حينـما قـرأ أول ورقـة في ملـف كامـل بـه الكثـير مـن المعلومـات، هـل معـاذ يكـون شـقيقه أم يخيـل لـه ذلـك، أو يكـون تشـابه أسـماء لا أكـثر، رحـل سريعًـا نحـو البنايـة التـي يقطـن بهـا، دلـف إلى الشـقة بإرهـاق بالـغ ليجـد والدتـه وزوجتـه ينتظرانـه، جلـس إلى المقعـد بجانـب أمـه، ثـم انحنـى يقبـل يديهـا، قائـلًا:

- أخبارك إيه يا أمي؟

قالت صفية بحب وحنان:

- بخير يا عمري، منتظرينك عشان نتغدى سوا؟

قال عمر باقتضاب: مليش نفس.

قالت أهلة بسرور بالغ: إزاي يا عمر؟ إحنا منتظرينك من بدري.

رد عمر بهدوء:

- اتغدي أنتِ لو حابه!

همست صفية بحزن:

- ليه يابني أنت وشك شاحب.

قال عمر بإصرار:

- لا أنا هقوم أنام، بس قبل ما أنام أنا عايز أتكلم معاكي شوية، ادخلي أنت يا أهلة دلوقتي.

رغم غرابة الموقف الذي لم تمر عليه من قبل، ولكن قالت أهلة بهدوء:

- حاضر.

قالت صفيه بفضول:

- خير يا عمر؟

رد عمر بدون مقدمات كنبرة متهم:

- أنت إزاي متقوليش إن ليا أخ عايش في المدينة هنا؟!

- قالت صفيه بصدمة وعفوية غير مقصودة:

- معاذ، أنت قابلته؟

همس عمر بهدوء مسيطر:

- أنتِ عارفة، ليه مقولتليش حاجة مهمة زي دي؟

قالت صفية بحزم رغم تعابير وجهها المتوترة:

- أنا عارفة إن والدك ليه ابن اسمه معاذ معرفش عنه معلومات أكتر من كدة!

قال عمر بنفاذ صبر:

- طب مكلمتنيش عنه قبل كدة ليه؟

قالت صفية بوجوم:

- لأنه مش شخص مهم في حياتنا لدرجة إني أكلمك عليه!

برقت عيناه ببريق متوحش، ثم قال بنبرة باترة كحد السيف:

- شخص مش مهم؟! ده أخويا من لحمي ودمي.

ابتعلت صفية ريقها بقلق؛ لتقول باستنكار:

- شوفته فين عشان تكلمني عنه كدة!؟

صمت عمر لتقول صفية باستفزاز:

- أكيد واحد من المساجين اللي عندك.

التوى فكه بخشونة؛ ليقول بغضب حارق متهكم:

- مسجون؟!

قالت صفية بحدة لم تكن مقصودة:

- من فضلك يا عمر أبعد عن الشخص ده، صدقني أنا عشت عمري كله أربيك أحسن تربية سيبت البلد عشان متختطلش بأي بيئة تانية من الممكن تأثر على فكرك.

قال عمر بصوت قاتم وقح:

- أنتِ مش هتقولي لي أعمل إيه ومعملش إيه، عشان شوية أفكار ومعتقدات.

قالت صفيه بحذر:

- تقصد إيه؟

قـال عمـر بصـوت شرس لا يمـت للمـرح بصلـة، رغـم نـبرة العتـاب التـي تلـون نـبرة صوتـه:

- غلطـتِ كتـير يـا أمـي.. كان لازم تفكـري في قـرارك ألـف مـرة قبـل مـا أتصـادف بيـه؛ لأن كان لازم هشـوفه، وأتعـرف عليـه في يـوم مـا.

كادت لتتحـدث صفيـة معترضـة عـما سـيحدث بعـد ذلـك، ولكنـه بعـد أن تحـرك خطوتـين اسـتدار إليهـا، قائـلًا بتهكـم وبـرود:

- الشـخص الـلي خايفـة يأثـر عـلى فكـري ومخطلتـش بالبيئـة بتاعتـه جـراح في أكـبر مستشـفيات البلد...ثـم تركهـا مغـادرًا المـكان...

الفصل الثالث عشر

هذا لم يكن عادل أبدًا....

اقترب جو من غرفة غروب ابنته بعد أن أعطى الأمر إلى ياسين للتوقف عن بث هذا السم اللعين، ثم وقف أمامها خلف الزجاج العازل يراقب ملامحها عن قرب وهي تنظر نحو البعيد، في المرة الأولى التي رأها بها شعر بحنين غير طبيعي، ولكن لم يعلم كيف يصف هذا الشعور، ربما؛ لأنه لم يتذوقه من قبل، بينما الآن فهو يعلم جيدًا ولكن بعد أن وقع عقد سفك دمه بيده، وتحطم القلب إلى الأبد والندم الذي سوف يكون حليفه في الفترة القادمة. اقترب إليها لتنتبه غروب التي أصبح وجهها شاحبًا، وجسدها نحيل كسرطان سحق جسدها الرفيع؛ لتجد ذاك الرجل يحمل في يديه سلسال من الفضة؛ ذاك السلسال الذي نزعه معاذ من رقبتها منذ أيام مواعدًا إياها أن كل شيء على ما يرام. علمت على الفور ماذا كان يقصد معاذ، هذا والدها التي طالما تمنت أن يراها وتراه، وجدته يجهش في البكاء؛ فقالت بصوت باهت متشفٍ: تعذب, تسمم, تقتل, وتسمي أفعالك رحمة، ومنتظر حكم الناس، وعايز الناس تسقف وتقول عاش البطل الشجاع بس أنت فشلت،عايز تعرف السبب؛ لأن أنت أناني. لم يستطع التحمل؛ فجلس نحو أقرب مقعد, نظرت غروب نحوه بحقد هامسة بقهرة وتهكم:

- لا لا دي مش دموع حب وأبوة أبدًا، صدقني لو الزمن رجع بيا تاني، مكنش جيت المدينة دي عشان مش أعيش الموقف ده، أبويا اللي قاعد قدامي ده سهل عندي أبدله بمسخ، ومش هحن أبدًا لمجرد أن الدم واحد.

جاهد الجوكارد أن يتحدث بوهن وضعف شديد للغاية:

- سامحيني يا غروب، ولكن يديه كانت ترتعش بقوة حتى فقد الوعي؛

فقام الأطباء بوضعه في إحدى غرف المشفى، بعد أن تم الكشف على حالته التي تعرضت إلى جلطة أدت إلى شلل نصفي.

*****

رفع معاذ الهاتف نحو أذنيه؛ ليتحدث بنبرة تشبه الجليد من قوة صلابتها:

- عمر باشا أنا عرفت مكان نائل فين، جاهز تيجي؟

قال عمر بلهفة:

- فوق ما تتخيل.

- منتظرك في عنوان (.....)

ثم أغلق الخط..

****

دخل كلٌّ من عمر ومعاذ إلى إحدى البنايات الخالية، ما عدا بعض الشقق المعدودة التي يقطنها بعض الرجال التابعين للجوكارد؛ ليجد عمر ومعاذ أحد رجال الأمن يقول بخشونة:

- أفندم.

أخرج معاذ الهوية الخاصة به بكل ثقة، قائلًا:

- أنا معاذ واحد من رجالة الجوكارد وطالع للدكتور نائل.

قال الرجل ضخم البنية:

- الدكتور مش هنا، وإمشي يلا من هنا عشان المشاكل.

تحسس معاذ ذقنه بنفاذ صبر، ثم قام بسحب الرجل ليلكمه في وجهه بقوة، حتى استطاع كل منهما النفاذ نحو الأعلى؛ فهذا المكان من شدة

انقطاعه عن العالم الخارجي لم يجد الكثير من الناس ليعرفوا هذا المكان، ولا يتواجد به حراسة مشدة كباقي أملاكهم، صعد إلى الأعلى بسرعة نحو هدفه قبل أن يتحرك رجال الجوكارد؛ ليقتحما الشقة التي يهرب نائل بها كالفأر الخائف، ثم صوب السلاح في وجهه؛ فظهر طيف ابتسامة إجرام على زاوية شفتيه يدركها نائل جيدًا، وهذا عمر الآخر يبادله النظر بكره واستياء، نظرة تحمل في طياتها الكراهية والحقد، موجات من الذل والقهر جعلته يشتعل فجأة؛ ليهمس عمر بصوت هادئ مرعب وكأنه آخر مرة يتحدث بعدها:

- أهلين، بشرفي ليلتك ما هتعدي النهاردة.

رفع نائل يديه إلى الأعلى كنوع من الاستسلام بعد أن وضع سائل الخمر فوق الطاولة؛ ليقول بصوت خبيث:

- عمر بيه والدكتور معاذ، وأخيرًا اتجمعوا الأخوات.

لم يدرك ما قاله معاذ حين همس بفحيح أفعى: وأخيرًا اتقابلنا، أنا كنت شايف نظرات الغدر في عينيك من البداية، ومع ذلك مكمل، ويوم ما تأذي وتسمم يكون في حد مني.

قال نائل ببرود مميت:

- أنا مش بلوث إيدي بالحاجات الخفيفة دي، صاحبك اللي كان واخد المهمة كلها وبأمانة عملها بضمير.

قال معاذ باستنكار ذاهل مترقب:

- صاحبي مين ؟

همس نائل بتلذذ:

- دكتور ياسين.

شعر معاذ أن الدنيا تدور به من هول ما يشعر؛ فقال بعفوية غير

مقصـودة:

- أنت كداب، مستحيل!

- واتحقق المستحيل، شكلك متعلمتش دروسي زمان كويس.

ثـم قـام نائـل بفتـح اللابتـوب أمـام السـلاح المصـوب نحـوه؛ ليجـد فيديـو يشـاهد ضرب حقـن بلـون الأحمـر القاتـم نحـو المحلـول المثبـت في يـد محبوبتـه غـروب؛ ليشـعر بالنـار تحـرق أحشـائه أكـثر، فانقـض عليـه في ضربة غـير متوقعـة، وكأنـه قـد أصابـه الجنـون، ثـم قـام بتصويـب السـلاح نحـوه؛ ليقـول عمـر بنـبرة حـذرة شـديدة ومذهولـة، رغـم عـدم معرفـة مـا الحـوار الـذي يـدور بينهـما:

- معاذ إياك، الشرطة زمانها جايه، إياك تتهور!

قال معاذ بصوت مخيف:

عايـز توقفنـي اضربنـي بالنـار، ثـم وضـع المسـدس أمـام صـدره؛ ليقـول مـرددًا:

- هقتلك أنا، مش بهدد أنا.

لم يكـن يعلـم لماذا تذكر هذا المشـهد من قبـل؛ ليتطرق إلى ذهنه الآن حين قال نائل:

- معانا قناص ممتاز أنت نسيته ياباشا.

-تعالى ياقناص.

قال الجوكارد بتفحص: دقتك في التصويب كام؟

قال معاذ برزانة:

-٣ متر لقتل فأر..!

ربما لأنها المرة الأولى الذي يلتقي بوكر الأفاعي، عاد إلى الواقع ورجال الشرطة تقاومه بقوة للابتعاد عن الدكتور نائل، اهتزت حدقة عينيه وهي تنظر إلى ملامح وجهه الجذابة كجاذبية مجرم قاتل للتو، أخرج عمر قيد حديدي ليقوم بالقبض عليه، ومعاذ ينظر نحو عمر هل الأمر انتهى هكذا بمنتهى البساطة، ربما قتله أفضل، ولن يتوقف معاذ هذا الوحش الكاسر، ولكن كل ذلك التفكير المرهق أصبح سرابًا حين شعر معاذ باقتراب عمر له، ثم قام باحتضانه بقوة، هامسًا في أذنيه بصوت عذب مواسٍ:

-كله هيمضي، وربنا هيعوضنا طالما إيدينا في إيد بعض ياخويا.

****

الفصل الرابع عشر

- هل تظن أننا سوف نلتقي يومًا ما؟

- بحدائق الذاكرة بقصر الأحلام هناك حيث سنلتقي أنا وانتِ.

- لكن الحلم ليس بحقيقة.

- يكفي أن نكون معًا فقط.

استيقظت من النوم، تحسست رأسها بألم، ثم نظرت جانبها نحو النافذة؛ لتجد معاذ جالس على الأريكة محني رأسه يتطلع إلى البعيد بشرود حزين كإعادته، أزاحت الفراش جانبًا، ثم جلست على طرف الأريكة، وضعت غروب يديها فوق كتفيه بعفوية، قائلة بخفوت:

- بتفكر في إيه؟!

رافعًا حاجبيه بانتباه دون أن يستدير، ثم قال بعد وقت طويل:

- حاجات مجنونة، أماكن كتير، خطط برسمها في خيالي لو أحققها معاكِ.

انتهى كلمة برجاء خفي.. همست غروب بطفولة:

-خطط.

هتف معاذ بخفوت:

- أيوة .

اتكأت بقدميها نحو الأريكة، ثم وضعت ذراعيها الاثنين حول كتفيه هامسة بشجن:

- كل حد فينا عنده حلم.

قاطعها قائلًا: أنا أقصد قصتنا أنا وأنتِ من منظوري.

ردت غروب بدهشة:

- قصتنا!

صمت عدة دقائق، لا يتحدث، فضول قاتل يفترسها، ولكنها انتظرت بصبر؛ ليتحد أخيرًا، هامسًا بصوت مبحوح بعد وقت طويل احترق أعصابها:

- هقولك حدوتة حلوة.

همست بنعومة:

- قول.

قال معاذ بتحشرج:

- في الصيف، في الحر تحديدًا، شهر يوليو أو يونيو، ملل وفتور، وأنت عايشة مع مامتك في بيت بسيط مستقر.

رددت غروب بنبرة يتيمة محرومة، لم تتذوق طعم حلاوة هذه الكلمة منذ زمن بعيد:

- ماما.

تابع هامسًا وهو يبتلع غصة في حلقه بدت كالصديد:

- وفي يوم نزلتي تشتري عصاير تخفف جو الحر الممل، ووالدتك قالتلك بعد غروب الشمس تعالي نتمشى على الشاطئ.

قطبت حاجبها باستنكار:

- وأنت فين في القصة دي.

نظر نحو الأعلى، وعيناه تلمع بحزن فهمس بشرود:

- أنا كنت في القرية بحضر شنطتي عشان أسافر مع صاحبي*ماجد*المصيف

قبل ما اشتغل بعد ما خلصت دراستي، وأمي بتتخانق معايا مش موافقة أروح وأسيبها بسبب انتشار حالات الغرق، بس في الآخر روحت شوفتك في الشاطئ كنت ماشية في إيد مامتك وفستانك بيطير حواليكي من شدة الهوا كنتي شبه الملايكة، وأنا كنت بلعب كورة على الشاطئ أنا وصديق عمري ماجد، وقتها اختفت كل حاجة وبقيتي أنتِ وبس، كنت بتشربي كولا ولابسة نظارة حلوة أوي صحيح كبيرة في وشك، بس ملامحك البريئة جملتها بتضحكي، فرحانة ومركزة على البحر، كانت غروب تستمع إلى كلماته الهامسة الهادئة الحزينة، رفعت عيناها نحو الأعلى ترمش بسرعة حتى لا تتساقط الدموع المترقرة في عينيها، تابع هامسًا:

- كان كل هدفي أكلمك..

قالت بصوت حاولت أن يبدو هادئًا ثابتًا:

- وبعدين إيه اللي حصل؟

شعر معاذ بدفء على كتفه؛ فعلم أن هذا الدفء الذي شعر به للتو، دموعها الذي تعد له أثقل من أثقل شيء من الممكن أن يتحمله بشر، فوق احتمال طاقة البشر بكثير، تتساقط بنعومة وحزن، يعلم جيدًا ماذا ممكن يحدث له، ربما لو استدار لن يستطيع أن يتحكم في نفسه، عد عشرة حتى ثمانية، ثم لم يعد يستطيع تمالك نفسه، استدار إليها أخيرًا، ثم نظر نحو عينيها بقوة وهو يبتلع غصة مؤلمة بحلقه، ثم قال بصوت عميق راسخ:

-كنت في الوقت ده عايز أقولك إني بحبك.

كانت تتساقط الدموع على وجنتيها بغزارة، همست رغمًا عنها وإلا كانت ستختنق بها: مقولتش ليه؟

هز رأسه بألم، ثم قال بحيرة وتوهان:

- مش عارف.

تأوهت غـروب بصمت وهي تغمض عينيها مـن شـدة مـا تشـعر بـه، بينـما قلبها يعلن ألما وصل إلى أقصاه، ثـم قالـت بحـزن عميـق:

- أنا عايزة أكون معاك.

ثـم ابتعـدت عنـه لتعطيـه ظهرهـا منخرطـة في بـكاء عميـق تـصرخ كالأطفـال الـذي فقـد أعـز مـا يملـك؛ فاقـترب إليهـا محـاولًا تهدئهـا، بينـما هـو عـلى النقيـض تمامًـا؛ فقـد أعلنـت دموعـه الاستسـلام، وتغلبـت عليـه للتسـاقط بغـزارة وكأنهـا وجـدت فرصـة للتحـرر؛ فقـال بصـوت مهـزوز آسـفًا:

- أنا آسف.

سـلط النظـر نحوهـا، وداخلـه صـوت يـصرخ، مـاذا فعلـوا بهـا حتـى تكـون طـوال الوقـت شـاردة الذهـن، باهتـة الملامـح، كسـيرة الـروح، نظـرة الحـزن والانكسـار الواضحـة في عينيهـا شـفافة؛ لـيرى نظـرات تائهـة حائـرة خائفـة، تفتقـد للأمـان، بعينهـا لم تبـق الحيـاة، اسـتطاعوا بـكل قسـوة قتلهـا، سـجنوا ضحكتهـا الطفوليـة، وأطلقـوا صراح الألم، آثـرت الصمـت عـلى أن تبـوح عـما يعذبهـا، أدركـت الحقيقـة الصادمـة لـن تكـون مثـل الأول بنقائهـا وفطرتهـا، قتلـوا شـيئًا داخلهـا أقـوى مـن أن يبتسـم لهـا الحـظ مـرة أخـرى، أكـثر مـا يؤلمنـي استسـلامها لـكل شيء، دعـت الحيـاة تعصـف بهـا كـما تشـاء، ليـس لديهـا أحـد تبـوح لـه بمـا يثقـل كاهلهـا، لم تعـد تكـترث بعـد ضحكتهـا مؤلمـة، وقلبهـا عـلى وشـك الحطـام، احتضنـت قبضتـه الخشـنة القويـة، يديهـا الناعمـة الرقيقـة بقـوة وتماسـك؛ فقالـت بصـوت مختنـق بـاكٍ:

- ياريـت لـو كنـت شـوفتك مـن زمـان، وقضيـت معـاك وقـت أكـتر مـن كدة.
رد عليها معاذ هامسًا بصوت مبحوح مؤلم:

-ياريت.

قالت متوسلة برجاء وخوف مرعب خفي:

- أنت مش هتبعد عني صح؟

قال معاذ بتلقائية دون لحظة تفكير أو تردد:

- لآخر يوم في عمري.

زفرت بيأس وخيبة أمل:

- بس أنا هبعد عنك غصب عني.

ابتسم بألم وهو يشد قبضته على يديها أكثر، هامسًا بصدق:

-إياكِ، قاومي عشاني، أنتِ الإنسانة الوحيدة اللي ارتحت معاها ولاقيت نفسي فيها.

هتفت غروب بدهشة:

- معادلة غريبة، أنت دكتور، أكتر واحد عارف حالتي, صدقني الحياة هتستمر.

هتف قائلًا بصوت هادئ واثق:

- والأمل أقوى يا غروبي، صحيح الحياة بتستمر، ولكن منهم ناس ميتة وهي على قيد الحياة, أنا مفيش بنت تملى عنيا، ونصيبي مش موجود مش اتخلق طول ما أنتِ عايشة.

قالت باستفهام فضولي:

-وأنت ليه متأكد كدة؟؟

قال بقوة وثقة صارمة صادمة:

-أنا مش متأكد، أنا موقن وخلاص، ووقتها أكون شاكر. أغمضت عينيها بهدوء وهو يتحسس يديها، شعر كأنها آخر مرة ينظر إلى عينيها بلون العقيق، ويمتع نظره بجمالها الخلاق، هل من المعقول

أن ينسى أن يقول لها إن جمالك يطفئ نور الشمس، نزف جرح مؤلم داخلها وهي لا تصدق مدى تفكير شاب في ريعان شبابه، إلى أي تفكير وصل إليه، يا إلهي ما هذا الوجع، أغمضت عينيها بسكون تام، قائلة أول جملة سمعتها من معاذ حين قال:

- علمت أن جمالي يطفئ نور الشمس.

صاحبت دمعتين انسابتا فوق خدها الشاحب؛ ليشعر معاذ بيديها التي سقطت في كفه بعد أن كانت تحتضنها بقوة، وجهاز القلب يصدر صوت صرير مزعجًا إشارة إلى توقف القلب، تركها معاذ على الفور؛ لينادي على الأطباء، ومع محاولة الطبيب في إنعاش قلبها، لكن دون جدوى، وضع معاذ يديه فوق رأسه بحسرة، والدموع تتساقط بغزارة معلنة استسلامها، فعندما استوعب قليلًا أسوأ خبر من الممكن أن يتوقعه يومًا ما. انحنى إلى الحوض في حمام شقته، ضاربًا وجهه بالماء البارد عدة مرات، عله أن يستفيق من ذاك الخبر المفجع، ثم استقام ناظرًا إلى صورته في المرآة، ذاك الألم الذي يشعر به الآن لا يعادل آلم آخر، ترى ما يشعر بداخله من نار هوجاء؛ رغبة سادية في تعذيب أحدهم، ملامح جامدة لا حياة بها، ولم يشعر بشيء سوى تحطيم ما في الغرفة بأكملها. لعله يشعر بالراحة قليلًا وهو يود فعل ذلك.

تمت بحمد لله